إدريس

من وحي القرآن والسُنّة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

2017م

المحتويات

المقدمة 3
إدريس 18
من وحي القرآن 18
صفات النبي إدريس 65
1 ـ صدِّيق: 65
2 ـ نبي: 66
إدريس من ذرية الاصطفاء: 71
3 ـ عليُّ المكانة: 78
4 ـ مُنعم عليه: 153
5 ـ مُجتبى: 173
6 ـ مهدي: 174
7 ـ صالح: 196
8 ـ ساجد: 198
9 ـ بكيّ: 204
10 ـ صابر: 212
فوائد الصّبر: 257
11 ـ مرحوم. 295
إدريس من السُنّة 326
نبوّة إدريس: 328
نسب إدريس: 329
إدريس في السّماء الرّابعة علوّ: 330
إدريس عامل مُصلح: 378
حديث الأنبياء في السّماء: 378
معجزة إدريس: 380
وفاة إدريس: 382
انفتاق الأرض وهبوط آدم: 382

المقدمة

بسم الله الذي أرسل الرّسل مبشّرين ومنذرين، وختم الرّسالات بخاتم الأنبياء والمرسلين محمّد وعلى جميع الأنبياء.

يعد البحث في الرّسالات السماوية وما يتعلّق بالأنبياء والمرسلين وسيرتهم في الدّعوة والتبليغ ومنهجهم في الحياة أمر بالغ الأهمية في العقيدة والسّلوك، لأنّه يقدّم للإنسان الباحث عن مثالية يعيشها وعطاء يأمله كلّ ما يعينه على تحقيق مبتغاه، وذلك من خلال مجموعة الدروس والعبر التي يمكن أن ينهل منها وهو يبحث في تلك السير الخالدة.

لكن ذلك لا يتأتى بالوصف المجرد عن التحليل، لأنّ الوصف يعرض الأشياء كما هي بينما التحليل يقدّمها كما أريد لها أن تكون، لذلك كان منهجنا هنا وفي كلّ ما كتبنا التحليل المستند على آيات القران الكريم بالدرجة الأساس، ثم وعند الضرورة عدنا لما هو موثوق من مصادر أخرى على رأسها السنة المؤكّدة من غير أن نتوسّع في ذلك.

لكنّنا في هذا المبحث أمّام تحدٍّ عقلي، هو: قلة ما ورد من آيات مبينة لرسالات الأنبياء والرّسل الذين نتحدث عنهم وهم سيدنا إدريس وسيدنا هود وسيدنا صالح صلّى الله عليهم وسلّم.

هذا التحدّي نواجهه بما ينبغي له، وهو أنّ ننطلق في الحديث عن هؤلاء المكرمين الأخيار من القليل الوارد مستندين ومحتجين بالفيض الوافر من آيات الذكر الحكيم، وذلك كما نعتقد ليس فيه شيء من مخالفة المنهج الفكري ولا التسلسل الموضوعي لما كتبنا، ولأنّنا نعتقد

جازمين أنّ القرآن هو كتاب الله الذي أنزل على محمّد وفيه ممّا أنزل على جميع الأنبياء والمرسلين في كلّ زمان ومكان، لذلك؛ فإنّنا إذ ننطلق من القليل لاشكّ وجدنا الكثير من الداعم والمفصل لهذا القليل، وهذه دعوة لكلّ من له رغبة حقيقية في البحث، دعوة لأن تكون آيات القرآن شاملة غير مقصورة ولا محدودة على موضوع واحد، فالقران نصّ واحد من الواحد جلّ وعلا، ولا متغيّر في ثوابته التي جاء بها كلّ الأنبياء والمرسلين، وإنّما التغيير قد حصل بما هو تابع للمتغير (الإنسان) من حيث مراعاة الله عزّ وجلّ لمتطلبات الحياة ورغبات الإنسان وطبيعة سلوكه، كما حرم الله على بني إسرائيل مثلا ما حرم بظلم منهم مصداقا لقوله تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا}[1]. وغير ذلك ممّا يتماثل مع هذه الآية الكريمة.

وعليه فإدريس عليه الصّلاة والسّلام نبيا كريما من الأنبياء الكرام الذين أخبر الله عنهم في كتابه العزيز وباسمه وحدّث عن شخصه؛ فوصفه نبيا صدّيقا ومن الصّابرين، ودعا إلى وحدانية الله وهو من عرف الخط بالقلم وهو كذلك يجيد خياطة الثياب، وهو من نظر في علم النجوم وسيرها.

وقد أختلف العلماء في مولده ونشأته، فقال بعضهم إنّ إدريس ولد ببابل، وقال آخرون إنّه ولد بمصر، وقال غيرهم أنّه ولد ببابل وهاجر إلى مصر، وقد آتاه الله النبوّة فنهي المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شرع الله؛ وهو يدعو النّاس إلى الله وإلى مكارم الأخلاق. وكانت له مواعظ وآداب فقد دعا إلى دين الله، وإلى عبادة الخالق جلّ وعلا، وحرّض على العمل الصالح، وحض على الزّهد في هذه الدنيا الفانية

---

[1] – النساء 160.

الزائلة، وأمرهم بالصّلاة والصّيام والزّكاة، وغلّظ عليهم في الطهارة من الجنابة، وحرّم المسكر من كلّ شيء وشدد فيه. فأطاعه نفر قليل، وهذه من سُنن الحياة حيث، أكثرهم يجهلون ولا يعقلون ومجرمون وضالون.

قال البخاري: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أنّ إلياس هو إدريس، واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء: أنّه لما مرّ به عليه السّلام قال له مرحبا بالأخ الصّالح والنبي الصّالح، ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قالوا: فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قالا له"2.

فإدريس نبي من أنبياء الله الكرام مُتمكِّن من الطّاعة التامة لله ربّ العالمين حتى وُصف بأنّه صدِّيق في معتقده لله واحدا أحدا طائعا لأمره فيما أُمر به ومنتهيا وناهيا عمَّا نهى عنه.

ولأنّه نبي كريم وصدِّيق عزيز فهو: من المكرَّمين بالنبوّة واليقين اللذين بهما وُصِف صدِّيقا لكلّ ما أظهره الله عليه من أسرار وآيات عظيمة حيث لا تكذيب ولا ظن في نفسه، ولذا، كان على الرفعة الإيمانية التي بها أخذ المكانة العليا عند الله.

وهناك أراء مختلفة على زمن النبي ادريس عليه الصّلاة والسّلام؛ فهو على احتمالين:

أمّا أن يكون قبل نوح وأمّا أن يكون بعده، فإن كان قبل نوح عليهما الصّلاة والسّلام، وجب ذكره تنصيصا في الاصطفاء كما نص

2 مستخرج أبي عوانة، 1، ص 107.

الاصطفاء على آدم ونوح أي أن يقال: إن الله اصطفي آدم وإدريس ونوحا، وهنا يكون القول الفصل وتنتهي القضية.

ولما لم يذكر إدريس نصا في الاصطفاء، فقد دخل الآل المصطفين كونه نبي، ولما كانت الآية على ما هي عليه (إن الله اصطفي آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) دخل اصطفاؤه في جملة الآل وهذا يعني أنه بعد نوح عليهم الصّلاة والسّلام.

ففي سورة مريم عند ذكر الأنبياء التي وردت، يبدأ الذكر برأس الآل بقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}[3]، وبعد ذلك في الآيات التالية يذكر الله تعالى الوهب الذي وهبه لإبراهيم وهو: إسحاق ثم تلاه يعقوب فموسى فهارون وهذا الفرع الأوّل من الذرية التي بعضها من بعض التي يدخل بها آل عمران ومريم وعيسى عليهم الصّلاة والسّلام.

فيتوقف عن ذكر ذرية هذه السلسلة عند هارون، ثم ينتقل إلى إسماعيل بقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}[4].

ومعلوم أنّ إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام هو الفرع الموازي للآل عمران من إسحاق، وهو الابن الأكبر لإبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام أجمعين، وبعد أن يورد الله تعالى بعض صفات إسماعيل، يأتي على ذكر إدريس بقوله تعالى: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) وهذا الذكر في السلسلة الثانية هو الآل المنحدر من إبراهيم إلى إسماعيل إلى محمّد عليهم الصّلاة والسّلام أجمعين.

---

[3] - مريم 41.

[4] - مريم 54.

وهنا أكثر من تساؤل مثل:

. ذكر إدريس بعد إسماعيل كما ذُكر يعقوب بعد إسحاق.

. ذكر إدريس مع إسماعيل يجب أن يكون له ما يبرره.

وعليه: يمكن أن نقول بداية مع التحفظ ريثما نسوق الأدلة، أنّ إسماعيل أسبق من إدريس، كما أنّ إسحاق أسبق من يعقوب.

وهنا فالنبي ادريس عليه السّلام قد اجتباه الله اجتباء؛ أي أنعم الله عزّ وجلّ عليه بالاجتباء نعم كثيرة مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا}[5].

فقوله تعالى: (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) تدل على أن اجتباء إدريس هو اجتباء أنبياء لأجل مهام يراه الله خير من يقوم بها إدريس في الأرض التي أجتبي إليها إدريس نبيا.

ولأنّ الاجتباء من الله فهو اجتباء تعظيم لمهمات وأدوار ومسؤوليات جِسام ونبأ عظيم لا يقدر عليها إلا من يُجتبى إليها اجتباءً.

والاجتباء للأنبياء والرّسل هو اجتباء عن غير اخذ رأي من المجتبيين الأكارم، فهم الذين تتوفر فيهم معطيات الفضائل الخيّرة في مرضاة الله عزّ وجلّ.

[5] – مريم 56 . 58.

ولأنّه الهادي فهو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية حق بالفعل الحقّ قوّة وقدرة.

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أُوَلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا}[6].

يُفهم من الآيات الكريمة السابقة أن إدريس من الذين هداهم الهادي المطلق بواسع هدايته وفضله، (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا) أي من الذين تم توجيههم بالحقّ إلى الحقّ فهم على الرشاد الذي به يُميزون بين المفضل والأكثر تفضيلا وبين الخير والأكثر خيرا وبين الموجب والأكثر وجوبا وهم الفاعلون للخيرات الحسان وهم المؤمنون حقا الذين على الدرجات العلا وهم الوارثين في الدارين فأوّلئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وعلينا أن نميّز بين المهدي وبين المهتدي:

المهدي هو من كان على الهداية من الهادي المطلق، أي وكأنه مخلوق على الهداية خلقا بأسباب مشيئة شاءها الله لعبد من عباده ليكون على الهداية قولا وفعلا وسلوكا وعملا.

أمّا المهتدي فهو من عرف وتبيّن حتى أدرك الحقّ من الباطل فتخلى عن الباطل وتمسَّك بالحقّ واسترشد به سبيله فكانت له الهداية بالحقّ

---

[6] - مريم 56 . 58.

من أجل الحقّ وإحقاقه، قال تعالى: {فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}7.

ولذا؛ فالفرق كبير بين من كان على الهداية أصلا، وبين من اهتدى بعد ضلال أو انحراف أو غفلة أو جهل أو كفر وشركٍ.

ولهذا؛ فإدريس كان على الهداية أصلا فهو لم يكفر ولم يُشرك ولم يضل السبيل الحقّ، بل كان على الهداية التي جنَّبته كلّ ذلك حتى وصفه الله بأنّه على الهداية بقوله تعالى: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلِئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا).

وعليه فالهادي هو مغير الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كلّ شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ}8 وهو منزِّل نصوص وحِكم وكلّم الهداية إليهم حتى لا يضلون وإن ضل بعضهم فإنّ الهداية من ورائه تلاحقه بالفعل وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

والهداية تكون على معنيين:

. أحدهما بمعنى الإيضاح والإرشاد يقال: أهديت فلانا الطريق أي أرشدته إليه.

7- البقرة 38.

8 - الإسراء 97.

. والآخر بمعنى التوفيق قال الله عزّ وجلّ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[9] أي أنك لا تستطيع أن توفق للهداية من أحببت، ولكن الله يوفق من يشاء ولا يجوز أن يريد به هاهنا الإرشاد والإيضاح؛ لأنّه لا خلاف بين المسلمين أنّ النبي أرشد وبين وأوضح وبلّغ من يحب ومن لا يحب، فبيَّن بذلك هدي الرسالات السماوية التي قبله، والرسالة التي جاء بها، إذ لا خلاف أنّ الدين عند الله الإسلام، وجميع الرسالات السماوية كلّها مصدرها الهادي وهنا نستطيع أن نقول أنّ هدي النبي عليه الصّلاة والسّلام هدي تكلّيف، وأمّا بالنسبة للمبلَّغين فهديهم هدي اختيار لما دلت عليه الآية الكريمة، فالرّسول هو الخليفة الهادي بالإضافة، ولأنّ الهادي هادي الطريق، والهدى واحد من الطرق التي تؤدّي إلى النجاة، فكان الخليفة يأخذ بالمهتدين به إلى نجاتهم وفوزهم، وأمّا الفتنة فمعناها الامتحان والاختبار إلا أنّها مستعملة في عرف التخاطب بمعنى الخذلان، يقال: فُتن فلان إذا أخذل وضل، ويدلّ على صحة هذا التأويل أنه قال الهادي بمعنى الموفق فمعناه والله أعلم أنه الموفق بفضله، والخاذل لمن شاء بعدله لا إله إلا هو الفعال لما يريد.

ولأنّه لولا الهداية التي من وراءها هادي ما كان المهتدين جاء هدي الهادي لنبيه إدريس ليكون على الهداية التي يُريدها الله تعالى لعباده الصالحين ورُسُله الكرام صلّى الله عليهم وسلّم.

ولأنّ الأنبياء والرّسل هم أنبياء ورُسُل هداية بعث الله أنبياءه ورُسُله إلى شعوبهم وأقوامهم وعشائرهم ولقراهم ولأممهم وللكافة فكان من بين هؤلاء الأنبياء العظام إدريس مهدي على الحقّ بالحقّ. وفي مقابل

---

[9] - القصص 56.

الهداية كان الضلال وأهله الذين استحبوا العمى على الهدى. قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}10 وحب العمى عل الهدى انصراف بالكلّية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، أي من طريق الهداية إلى طريق الضلال فكان الابتعاد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وللهداية أربّعة أنواع:

1- هداية دلالة.

2- هداية معونة:

3-هداية تسديد:

4- هداية تأييد:

الأنبياء والرّسل الذين أعدهم الله إعدادا (صالحين) للنبأ العظيم والرسالات الخالدة، ممّا جعلهم في رحمته داخلين وهم من الصالحين، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}11.

فقوله تعالى: (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) تدل هذه الآية الكريمة على أن دخول إدريس وغيره من الأنبياء والرّسل في رحمة الله كان بأسباب أنهم كانوا صالحين (نافعين غير ضارين) إنهم المصلحون غير المفسدين؛ فهم على هذه الدلالة لو لم يكونوا مُعدّين على الصلاح ما كانوا في رحمته من الداخلين.

---

[10]- فصلت 17.

[11]- الأنبياء 85، 86.

ولأنّ بلوغ أمر الصلاح ليس بالهين؛ فالله تعالى يُعد من يشاء لأنبأه ورسالاته من يُعِدُ إعدادا، ولهذا كان إدريس نبيا مُعدّا على الصلاح وكان من الداخلين في رحمة الله الرّحمن الرّحيم (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ).

ومع أنّ الله يُعِدُ من يشاء من نبيٍ ورسولٍ على الصلاح إلا أن باب الصلاح مفتوح أمّام عباد الرّحمن، فمن عمل صالحا وأصلح ما أفسده المفسدون في الأرض وأمر بما أمر الله ونهى عمَّا نهى عنه سيكون من الصالحين طاعة وهداية وهو مولي أمره لله تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}[12].

الصلاح وفاء على التمام من عند الله إعدادا، أو بلوغا بالقول والعمل الصالحين، قال تعالى: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}[13]؛ فقوله تعالى: (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) مع أنّ هذه الآية الكريمة جاءت في الماضي بالنسبة لزمننا نحن إلا أنّها تدل على المستقبل في زمن نبي الله شعيب، (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) أي بعد أن تُتِم الثمانية حُجج أو توفِّي على العشرة ستجني يا موسى وافيا معك غير مخلٍ بما أقوله لك في الزمن (الآن) هذا الوعد هو وعد الصالحين الذين أخصهم الله بما أخصهم به من نبأ عظيم ورسالات خالدة.

---

[12]- الأعراف 196.

[13]- القصص 27.

وفي اللغة الصلاح من الصلح و"الصلح ضد الفساد ويقال رجل صالح في نفسه من قوم صُلَحاء ومُصْلِح في أَعماله وأُموره وقد أَصْلَحه الله"14.

ولأنّ إدريس من الصالحين إعدادا من عند الله تعالى؛ فهو من المستخلفين في الأرض والمصلحين فيها، وهو كغيره من الأنبياء والرّسل يدعو للتي هي أحسن وأقوم، ولذا فمن يتقي الله ويقول قولا سديدا ويعمل صالحا يُصلح الله له من أعماله مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}15.

ولأنّ ادريس نبيا مجتبى؛ فلا يمكن أن يكون عجولا، أنّه النبي الصبور، وهذه على اختلاف مع الطبيعة البشرية العجولة: ذلك لأنّ الإنسان بطبيعته عجول لا يحب الانتظار ولا يطيق أن يطول به الوقت عند عزمه لقضاء أمرٍ ما، وبطبيعته أيضا أنّه مخلوق لا يهدأ ولا يستكين بسهولة ولا تنقطع متطلباته في الدنيا، فلا يقنع بأيّ شيء ولا يرضى بأي حال، قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}16، لكنّ المؤمن الحقّ لا تكون من صفاته الخوف والجزع واليأس بل يهبه الله تعالى الصبر والرضا ويملأ فؤاده بالطمأنينة التي يبحث عنها ملايين النّاس الذين يبتعدون عن خالقهم فيبتعد هو بالتالي عنهم، فلا يأتي الشعور بالأمن والطمأنينة من إنسان مشغول قلق كلّ همه جمع ما يرغب في الدنيا متناسيا أنها

14- لسان العرب، ج 2، ص 516.

15- الأحزاب 70، 71.

16 المعرج 19 . 21.

زائلة وفانية، فيتملكه اليأس والجزع لضياع ما كان له وكأنه تناسى أنه من عند الله الخالق القادر على كلّ شيء.

وللصبر ثلاثة أنواع هي:

أوّلا: صبر على ممّارسة الطاعات والعبادات:

قد يتبادر على ذهن المؤمن أن في المداومة على القيام بالعبادات اليومية كالصلاة والاستغفار وقيام الليل والحمد والصيام هو أمر هيّن على كلّ النفوس المسلمة ولكن هذا غير صحيح لأن من شأن هذه العبادات والطاعات أن تجعل من بعض المسلمين في ضيق وملل منها، فنرى البعض يهملها أحيانا أو يقوم بها وكأنها عادة يومية أو غرض عليه الخلاص منه، فتكون صلاته عبارة عن عبارات وحركات يؤدّيها في اليوم ويكررها، ولكن في الوقت نفسه نجد هناك من المؤمنين من يقوم بها بكلّ صبر وحب في نيل رضا الله تعالى عليه، فيسارع إلى القيام بكلّ ما عليه من فروض وواجبات دينية ويتعداها إلى النوافل بل ويداوم عليها حبا في الله ورسوله الكريم — - فلا يؤخره هطول المطر عن الخروج لصلاة الفجر ولا يتكاسل عن قيام الليل بحجّة النعاس أو التعب أو البرد الشديد، وهذه الأعمال تحتاج إلى الصبر الطيب للمداومة عليه وعدم قطعها.

ثانيا: الصبر عن الخطيئة:

حياة البشر في الدنيا مليئة بالإغراءات التي من شأنها أن تؤدّي بالإنسان إلى الهلاك، وخاصة أنه مخلوق ضعيف أمّام الشهوات والأهواء لوجود الشيطان الذي يزيّن له هذه الأمور ويحببها لنفسه، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ

مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآَبِ}17، فمن النّاس من يسيطر عليه حب المال فلا يملك الصبر لفراقه أو الإنقاص منه، يفوق حبه في قلب صاحبه عن كلّ حب، وأحيانا نجد من يضعف أمّام النساء فلا يملك نفسه أمّام إحداهن فيقع في الرذيلة، قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}18، مع أنّه لو صبر وثبت لكان الله أثابه ووهب له الخير الكثير، وتارة نجد من يعشق اكتناز الذهب والفضة وكأن حياته موقوفة على ذلك، فلا يبحث عن الأمّان والهدوء إلا في ظل وجودها، لذلك فقد كانت حياة المؤمن تعدد وتكرار لامتحانات وابتلاءات عليه تجاوزها بالصبر والجلد عليها، فيكون الإنسان في جهة ورغبته في جهة أخرى يعارضها ويقف أحيانا ضدها إذا أمرته بالسوء والفساد، ولا يسيطر المؤمن عليها إلا إذا كان متعادا على الصبر ومتمرس على الجلد والثبات في وجه كلّ مفسدة ولا يدعم هذا الموقف الثابت إلا حب المؤمن لخالقه وسعيه لطلب رضاه ومغفرته.

ثالثا: صبر على القضاء والقدر:

---

[17] آل عمران 14.

[18] النساء 25، 26.

القضاء والقدر أمر من الله يقع على الإنسان، ولكلّ إنسان قدره وقضاؤه يقدّره الله عليه حسب علمه المسبق وحكمته المطلقة في خلقه، لذلك لا يجب على المؤمن أن يوقع نفسه في مقارنة بينه وبين أي مؤمن آخر أعطاه الله ومنحه من نعمه الكثير الكثير، فلابدّ أن يكون الإنسان المؤمن على يقين بأن الله تعالى عادل في توزيع نعمه وعطاياه على خلقه، سواء كانت صحة أو مال أو جمال أو قوّة أو سلطان أو غيرها، فالصبر على القضاء والقدر يُخلق في نفس المؤمن ويكون من دعائم ثبات الإيمان واليقين بحب الله ورحمته بنا، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[19]، فيكون الرضا هنا نابع من طاعتهم لله وإيمانهم بحبه لهم، آملين في نيل رضاه وجنته، ونستطيع أن نرى تجسيد هذا النوع من الصبر في أسرى المسلمين الذين يقبعون في سجون الأعداء يلاقون أشد أنواع التنكيل والعذاب، لا ذنب لهم إلا أنهم يدافعون عن الحقّ ويتمسكون به، فنراهم أكثر صمودا من غيرهم وأشد صبرا على البلاء، فلا يضيق صدرهم ولا يتنازلون عما آمنوا به، بل نلاحظ أن إيمانهم يزداد ويكبر في ظل هذه الظروف فيزدادوا شدة وصبرا وقوّة منبعها أن هذا هو قدرهم الذي كتبه الله عليهم.

والنصوص القرآنية لم تذكر كثيرا عن دعوة إدريس ونبوّته، ولكنّها بيّنت عديدا من صفاته الأمر الذي جعلنا نركّز الحديث عن صفات هذا النبي الكريم، وكانت صفات حقيقة بالائتساء، فهو صدّيق نبي

---

[19] البقرة 155 . 157.

مرفوع المكانة، ومجتبى منعم عليه ساجد باكٍ طاعة لله وصفات أخرى ستجدها في أثناء القراءة.

ومن هنا نستبصر غايتنا التي نأمل فيها أن يكون هذا البحث دعوة لبحوث أخرى لا تقتصر على الوصف والتكرار لما هو موجود في كتب السير التي يشك العقل في أخبارها لاسيما تلك التي تستقي أخبارها من الإسرائيليات، بل تذهب إلى التحليل المستند على الحجّة والمرتكز على المنطق للإتيان بالجديد، وهذا ليس له وجه مبالغة لا من قريب ولا من بعيد فهذا القرألّا تنفد موارده فهو كلّمات ربّي تنفد البحار ومثلها ولا تنفد كلّمات ربّي مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلّمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلّمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}20.

هذه الكلّمات ما هي إلا بمثابة المصادر الغنّاء لكلّمات توحي بها هذه الكلّمات وتدل عليها، ولذلك؛ فالقرآن تنقضي عجائبه وفيه خبر ما قبلنا وخبرنا وخبر ما بعدنا، ولذلك؛ فهو لا ينفد، ولا تنفد كلّماته.

ونحن إذ نقوم بهذا العمل نرجو وجه الله، وندعوه التوفيق والسداد لكلّماتنا التي استقينها من كلّماته المعجزة جلّ جلال الله مولانا نعم المولى ونعم النصير، وما التوفيق إلا من عند الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017م

[20] - الكهف 109.

إدريس

من وحي القرآن

إدريس نبي من أنبياء الله الكرام مُتمكِّن من الطاعة التامة لله ربّ العالمين حتى وُصف بأنّه صدِّيق في معتقده لله واحدا أحدا طائعا لأمره فيما أُمر به ومنتهيا وناهيا عمَّا نهى عنه.

ولأنّه نبي كريم وصدِّيق عزيز فهو من المكرَّمين بالنبوّة واليقين اللذين بهما وُصِف صدّيقا لكلّ ما أظهره الله عليه من أسرار وآيات عظيمة

حيث لا تكذيب ولا ظنّ في نفسه، ولذا، كان على الرفعة الإيمانية التي بها أخذ المكانة العليا عند الله.

ولأنّه مرفوع المكانة (في علوٍ عظيم) مصداقا لقوله تعالى: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}21، فهو على الخصوصية المتميّزة في مقامات الله العظام، ورفعته هذه غير محددة؛ فهي على الاحتمال:

. أن تكون مكانة في الحياة الدنيا.

. أن تكون في الحياة الآخرة.

. أن تكون في الدارين.

ولأنّه مرفوع رفعا إلى علوٍ عظيم فهو بدون شك كان على الأرض ثمّ بعد ذلك رُفع منها إلى ما هو أعظم وأرفع، وهكذا حال الأبرار الذين هم في عليين كما يصف علوهم العلي جلّ وعلا: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ}22.

ولأنّه مرفوع رفعا بالقوّة والفعل الحقّ؛ فهو المكرّم من قِبل رافعه وهو المميز والمتميّز عن غيره والمفضّل، قال تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ}23.

وعليه فانّ النبي ادريس عليه الصّلاة والسّلام مرفوع المكانة عند الرّافع الأعظم، والرّافع تعالى هو "الذي يرفع من استحقّ الرفع من

[21]– مريم 57.

[22] – المطففين 18.

[23] – الإسراء 55.

أوليائه يرفع منزلتهم في الدنيا بإعزاز كلمتهم ويرفعهم في الآخرة بارتفاع درجتهم"[24].

وَالرّافع الْمُعْلِي لِلأَقْدَارِ[25].

الرّافع هو الذي بيده القوّة الممكِّنة من تحقيق الرفعة وإحداث النقلة إلى ما هو أفضل وأجود وانفع وأفيد. والرّافع في القرآن الكريم هو الاسم الدال على الله تعالى مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[26].

وفي لسان العرب المحيط: الرّافع هو "الذي يرفع المؤمن بالإسعاد وأولياءه بالتقريب، والرفع ضد الوضع، رفعته فارتفع فهو نقيض الخفض في كل شيء"[27].

ولو عُدنا للآية السابقة (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) لعرفنا أنَّ الرّافع هو الذي جعل الخلائف تتوالى من ولادة سابقة إلى موت يلاحقها، ومن ولادة جديدة إلى موت متجدد، حتى النهاية بالولادة التي لا يلاحقها الموت أبدا (البعث).

وبما أنّ الله جعلنا خلائف الأرض، إذن الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف عليها. وبما أنّ الأرض لا يمكن أن تكون بدون

---

24 تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 41.

25 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 192.

26 الأنعام، 165.

27 لسان العرب، ج 1، ص 1197.

خلائف عليها. إذن الرزق في الأرض والعيش عليها لن ينتهي مادام الموت لم يمت بعد. والموت بطبيعة الحياة لن يموت إلا بقيام الساعة، وحينها تصبح الأرض مطوية مثل طي السماوات.

والخلائف: جمع خليفة، وهم الذين يأتون من بعد سابق عليهم من بني جنسهم، وهم من ترتبط صفات اللحوق بهم، ممّا يجعل الموت يلاحق كل ولادة ويجعل الاتصال لا ينقطع بالرغم ممّا يفعله الموت، ولذلك فلله في خلقه شؤون.

وقوله: (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أي مع أنّه خلقكم في أحسن تقويم، إلا أن مصائركم على الأرض تعتمد على ما تقدمه أيديكم من عملٍ، فمن يُصلح في الأرض لا يتساوى مع من يُفسد فيها. ومن هنا تتفاوت الدرجات بالإيجاب وبالسلب، فالذين استجابوا لربهم الذي جعلهم خلائف الأرض، سينالون جزاءهم حسنات، والذين لم يستجيبوا لربهم الذي يُرِيدهم أن يكونوا خلائف الأرض سينالون أجورهم من العذاب مصداقا لقوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}[28]. ولذلك فالعلو في الدرجات الحسان رفعة مقام، وتميُّز عن الذين لم يتمكنوا بأعمالهم من بلوغ الرفعة الحسنة. فرفع الله بعض من الخلائف درجات ولم يرفع البعض الآخر بالأسباب، أي بما تقدم الأيدي، ولذا فأسباب تحقيق الرفعة لم تكن محجوبة عن العباد، أو مقصورة على فئة منهم، بل هي متاحة في دائرة الممكن لمن يعمل صالحا يرضاه الله، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يرهُ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يرهُ وما ربك بظلام للعبيد. ولهذا فالخليفة في الأرض هو الذي يعمل فيها صالحا، ويعمل على إصلاحها بإصلاحه لِما يفسده المفسدون فيها.

---

[28] الأنعام، 132.

الرّافع: هو المِمكّن من إحداث النقلة، من مستويات دنيا إلى مستويات عُليا، والرّافع هو الذي لا يَرفَع إلا بعد تقديرٍ لِما يُرفع، والذي لو حاول الإنسان القيام به لدرس الشيء المستهدف بالرفع قبل أن يَقدِمَ على رفعه. ولكن لأن الرّافع في هذه الآية الكريمة هو الله عزّ وجلّ، لذا فهو الرّافع بقوة علمه لعلم الغيب.

ولأنّ وراء فعل الرفع هدف وغاية، لذا أظهر الله الهدف من الرّفع وهو (ليبلوكم فيما آتاكم) وهذه الآية تعني ليمتحنكم فيما رزقكم به وما أعطاكم من نعم، فمن يُسر له البصر والسمع والعقل والفؤاد وما يملك من مُلك من مُلكه تعالى في طاعته وإجلاله، يتفوق فيما يُبتلى به من امتحانٍ، ويفوز بالجنّة، ومن لم يطع الله ويشرك به أو يفسد في الأرض فيخسر المستوى الذي خلقه الله تعالى عليه وهو (أحسن التقويم) ويخفضه على كفة الميزان إلى أسفل السافلين كمقياس سالب في مواجهة مقياس أعلى العليين على الكفة المماثلة للميزان العدل.

ولذلك فإنّ الله سريع العقاب (إنَّ ربَّك سريع العقاب) أي أنه في الوقت الذي يَحدث فيه السلوك الانحرافي يُكتب في ذات الوقت الفعل العقابي المناسب للفعل الانحرافي، الذي لا يُمحى إلا بالاستغفار والتوبة والرّحمة من الله تعالى. ولذلك، مع أنّ ما يَقدِم عليه الإنسان ويراه سريعا من أفعال خارجة عن الطاعة التامة لله تعالى، إلا أن الله خالق العباد والأعمال يرى الأعمال والأفعال قبل حدوثها وحدوث السرعة التي يرى بها المخلوق ما يرى، وفقا لقاعدة: (يعلم ما لا نعلم) مصداقا لقوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[29]، وقوله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}[30]. ولهذا فالله

---

[29] الأنعام 73.

[30] النعام، 59.

سريع العقاب لمن عصاه فيما أمر، وهو سريع في إحداث المغفرة مصداقا لقوله تعالى: (وإنّه لغفور رحيم)، فالله القادر بكل سرعة على رفع الأعمال بالحسنات، قادر بالسرعة ذاتها على إحداث المغفرة والرّحمة لمن يتعظ ويهتدي للتي هي أحسن وأقوم. ولذا فإنّ الرّحمة فعل استجابة للطاعة، فمن أطاع الله فقد فاز بالرّحمة فوزا عظيما، ومن عصَ الله فقد خسر بخسران الرّحمة خسرانا كثيرا، وما ربُّك بظلامٍ للعبيد.

وبما أنّ الله هو الرّافع الذي قال: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[31]. بما أنّه كذلك، إذن الخليفة هو من يستمد صفة الرفع من صفات الرّافع المطلق، حتى يتمكن من الإسهام في إحداث النقلة لمن يستوجب رفعهم إلى درجات التفضيل والتمييز الحقّ. فبالرفع يتحسَّن المستوى النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والذوقي والثقافي للأفراد والجماعات والمجتمعات، وبه أيضا يتأهلون إلى تأدية الوظائف والمهام المفضلة إنسانيا، ويلعبون أدوارهم بما يفيد وينفع ويُقدَّر من قبل الآخرين في مرضاة الله عزّ وجلّ، وبالرفع أيضا يتم حمْل المسؤوليات الشخصية والمسؤوليات المشتركة مع الآخرين سواء كانوا أزواجا أم أباء أم رفاق دراسة وعمل أم مواطنين من أبناء البلد.

وعليه فمن صفات الخليفة التي ينبغي بها أن يُصلح في الأرض هي: الرفع الذي به يتمكن من بلوغ الدرجات العلا، أي أنه كلما أسهم في

[31] البقرة، 30.

رفع مستوى الأفراد إلى ما فيه خير، ارتفع مستواه عند الله في العليين مع الذين ورثوا الأرض واستخلفوا فيها، وورثوا الجنّة بما عملوا.

ولذا عليكم يا بني آدم أن ترفعوا من مستويات إخوانكم المسلمين حتى يبلغوا درجات الإيمان، ويكونوا متعاضدين معكم على الرفع بأفعال الخير، وعلى الأبناء الخلفاء أن يخفضوا لآبائهم أجنحة الذل من الرّحمة ليزدادوا رفعة على المقامات العظام، وعلى أحفادهم من بعدهم أن يتعظوا بما يعمل المصلحون في الأرض ليكونوا على الطاعة والشهادة من العاملين عليها. وليتقوا الله ربّهم فيما يعملون ويؤدون من مهام وأعمال إنسانية، وفيما يحرثون ويزرعون ويحصدون، وما يرعون، ويكيلون ويَزِنُونَ، وفيما يشهدون عليه بالحقّ دون زيادة ولا نقصان.

الرفع علو من مستوى أقل إلى مستوى أعلى مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}32.

القواعد ثوابت لإرساء ما هو قائم، والرفع علو من أسفل إلى أعلى، وقواعد البيت الحرام لم يعرف بالتحديد من وضعها، ولكن الذي يُعرف هو رافعها (إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام) اللذين عَمِلا على رفعها من الأرض إلى ما هو قائم عليه، ممّا يجعل القواعد الثابتة في الأرض مؤسسة على حمْل ما يُرفع عليها.

والروايات تتحدث عن توقعات لواضعي القواعد، فهناك من يرى أن الملائكة هي الواضعة لها، وهناك من يرى أن آدم هو الذي هبط بها من الجنّة، وهناك من يقول بأن القواعد مؤسسة يوم أن خلقت الأرض، وهناك من يقول بأن علاقة قوية بين المكان الذي هبط عليه

[32] البقرة، 127.

آدم وقواعد البيت الحرام. إلا أنَّ هذه الروايات والأقوال وإن وجدت في الكتب أمهات وفروع، فهي في حقيقة الأمر لم تمتلك الدليل القاطع والحُجَّة اليقينية فيما كُتب فيها، ولكن الشيء الوحيد المتفق عليه هو أنَّ أسرارا كثيرة لا يعلمها إلا هو خلف هذه القواعد التي تم رفعها من قِبل إبراهيم وإسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام33.

ومن وجهة نظرنا وفقا للقاعدة التي تقول: (وراء كل مخلوق خالق) فإن الأرض وما فيها ومن عليها من ورائها خالق واحد أحد لا شريك له في الملك بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وبما أن البيت هو بيت الله الحرام، إذن هو المكان الذي لا يأتيه طائف ولا راكع ولا ساجد ولا عاكف إلا مؤمنا بالله. ولذا فهو المكان المقدس للمسلمين من آدم وإبراهيم إلى محمّد ومن تبع رسالة محمّد بالهداية والإيمان.

ومع أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام هما اللذان رفعا القواعد بناءً ماديا، إلا أن الغاية من رفع القواعد هي إظهار الإيمان برب واحد لا شريك له. وفي ذلك الإظهار ارتفاع عن الكفر والشرك بعبادة الله الواحد القهار. وبالطواف والركوع والسجود والاعتكاف في البيت الحرام يُكفِّر الإنسان عن ذنوبه ويمحو سيئاته، وفي هذه نقلة من مستويات الدنوِّ، إلى مستويات العلو والارتفاع.

ولذا يُعد البيت الحرام آية من الآيات الكرام، فكما يطوف الملائكة حول العرش يطوف الخليفة حول بيت الله الحرام إيمانا وتوحيدا واعترافا وتقربا وتضرعا لله؛ وفي كلا الطوافين تماثل، ففي العالم غير المنظور لبني الإنسان تطوف الملائكة، وفي العالم المنظور الذي اختير فيه الإنسان خليفة في الأرض يكون هو الطائف المشاهد حول البيت المحَرَّم. ولذا

33 تفسير القرطبي، ج 2، ص 120 . 124.

فالطَّواف المشاهد هو المقصور على الخليفة، والطواف غير المشاهد لله تعالى فيه من المسلمين والمؤمنين الموحدين الذين هم لله طائعين ولا يشركون بالله شيئا مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[34].

إذن الرفعة هي الغاية التي تكمن وراء الإيمان والطاعة التامة لله، ولذا فمن رغب عن ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لن يبلغ عند الله رفعة، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}[35].

ولأنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام غايتهما بلوغ الرفعة، قالا: (ربنا تقبل منَّا إنك أنت السميع العليم) أي بعد أن أتما عملية رفع القواعد من المستوى الأرضي إلى المستوى الارتفاعي، كان لهما الأمل في بلوغ الغاية وهي أن يتقبل الله عملهما حتى ينالا الثواب الذي به تتحقق الرفعة لهما في الحياة الخالدة.

قال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}[36]. المقصود بالبيوت هي بيوت الله (المساجد) التي يُراد لها أن تُرفع وتعلو ما حولها من العمران، ليرتفع في مآذنها الآذان نداء المصلين للصلاة. ليعلم المسلمون بأن الوقت قد حان للصلاة فيأتون مقبلين على ذكر اسم الله، وإقامة الصلاة والتسبيح باسمه في المساجد التي فيها يُذكر ويُسبح باسمه تعالى، دون خوض في حديث آخر لا علاقة له بعبادة الله عزّ وجلّ، ولذلك

[34] الذاريات، 56.

[35] النساء، 125.

[36] النور، 36.

فالمساجد للصلاة والتعبد ولذكر اسم الله تعالى، فهي لم تكن آماكن للترف وقول الزور، ولا أماكن للهو واللعب فهذه الأفعال وما يماثلها تُبعد وتلهي عن ذكر اسمه فلا تُذكر في المساجد التي فيها يُرفع اسم الله فوق كل مسمى.

قال تعالى: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}37. بطبيعة الحال بما أنَّ هناك درجات بين العباد، هناك تفاوت بينهم في كل ما من شأنه أن يجعل بعضهم مرتفع أو على حالة من الرفعة والارتفاع، وبين من هم في أسفل ومن هم في أسفل السافلين. فقوله تعالى: (رفعنا بعضهم فوق بعض درجات) تعود على ذات الرّافع، الذي رفع البعض درجات عن البعض الآخر، من حيث المقدرة والنبوّة والملك، فهناك المؤمن وهناك الكافر، وهناك الموحِّد وهناك المشرك، وهناك الرئيس والمرؤوس، والحر والعبد، والغني والفقير، والعالم والجاهل، والقوي والضعيف، والفطن والغبي، والبائع والمشتري، والحاكم والمحكوم، والجميل والقبيح، والحكيم ومن لا حكمة له، والماهر ومن لا مهارة له، وهناك الخليفة وهناك من لم يتمكن من الاستخلاف فيها؛ وبين هذه وتلك ينتشر العباد على درجات السلم القيمي بين عليين وأسفل السافلين.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}38 هذه الآية الكريمة تبين الضعف الإيماني الذي يَلمّ بالإنسان حتى يسخر البعض من البعض الآخر من بني جنسه، وذلك حيث يسخر الغني من الفقير، دون أن يمد له يد

---

[37] الزخرف، 32.

[38] التوبة 79.

العون التي تُحفِّزه على الخروج من أزمات فقره وما يلمُّ به من حاجة، ويسخر الحاكم من المحكوم فيزجَّ بالبعض في السجون دون رحمة ولا شفقة، وكأنهم ليسو من طينته، ويقلل المالك من شأن المملوك دون أن يسعى لفك قيده أو كسره حتى تعم الحرية من يريد لهم الله أن يكونوا خلائف في الأرض، ويسخر القوي من الضعيف دون أن يمد له يد العون التي تخرجه من وهنه. وفي مقابل ذلك يجد المسخور منه نفسه تسخر هي الأخرى من الساخر الذي لم يذكر فضل الله عليه ويتوب إليه وينتهي عن كل سخرية واستهزاء ببني جنسه الذين فضلهم الله على ما خلق ويطيع الله تعالى استجابة لما نهي الله عنه بقوله عزّ وجلّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[39]. ولذلك قال تعالى: (ورحمة ربّك خيرُ ممّا يجمعون)، أي أن رحمة الله عزّ وجلّ هي خير ممّا يجمعونه في الحياة الدنيا التي هم فيها يسخرون من بعضهم بعضا، ولذا لو يتذكرون هذه الرّحمة الواسعة ما سخر أحد من احدٍ، ولا ظن أحد منهم ظن السوء الذي يجعل صاحبه يسخر من الآخرين ويعتقد في نفسه أنه بما يملك هو خير منهم، وهو في حقيقة أمره قد لا يكون كذلك.

وعليه فالخليفة هو من يُسهم بلسانه وأفعاله وأعماله إلى ما يؤدّي إلى تغيير أحواله وأحوال بني جنسه من الدرجات السفلية إلى الدرجات الرفيعة العلية التي تجعل النفس بالاتعاظ تقتدي وتسلك سبل الحقّ. ولذا عندما يكون الخليفة رافعا للظلم عن المظلومين،

---

[39] الحجرات، 11.

والكيد عن المكيدين، والحقّد والحسد عن المحقودين والمحسودين، والاستغلال عن المستغَلين، والعبودية عن المستعبدين، عندما يكون الخليفة كذلك يكون بطبيعة الحال من المصلحين الذين يرثون الأرض ويستخلفون فيها ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء بغير حق، وهم الذين إذا ما أخطأوا يستغفرون من كل خطيئة، ولذا فهم الذين لا يقترفون ذنبا ولا إثما وهم الذين يخافون الله ويتقونه فيما يقولون وما يفعلون ويعملون ويسلكون.

فالإنسان بطبيعته خيِّر، ولكن بأساليب التربية المتباينة تتباين حياته وتختلف ممّا يجعل البعض في حاجة لمن يُسهم في رفعهم من المستويات الدنيا إلى المستويات العليا، فالكافر على سبيل المثال هو في حاجة لمن يرتفع به من مستويات الكفر إلى مستويات الإيمان، وهذه رسالة على المؤمنين المستخلفين في الأرض، وليست رسالة على المفسدين فيها، والمشرك دائما هو في حاجة لمن يرتفع به من الشرك إلى الوحدانية الإلهية، والجاهل في حاجة لمن يرفعه من جهله إلى النور ويظهره عليه، والمريض في حاجة لمن يرفعه من مرضه وعلته إلى الصحة والشفاء، والمظلوم في حاجة لمن يرتفع به إلى العدل حتى يتمكن من ممّارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته بإرادة وحرية، وهكذا كل إنسان في حاجة لبلوغ درجات الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة، التي ببلوغها تتحقق الرفعة بالأبناء حتى يرثوا الأرض ويعملوا على إصلاحها ولا يُفسدوا فيها، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعملون صالحا يرضاه الله تعالى. ولذا فإن عمليات الإصلاح تكون أول ما تكون للأسرة وبها من أجل مستقبل يُرسِّخ القيم والفضائل الإنسانية الخيرة، ومن يرد أن يكون خليفة الله في الأرض فعليه أن

يعمل كل ما من شأنه أن يحقق الرفعة والارتفاع بالمستوى القيمي الأخلاقي لبني الإنسان ذكورا وإناثا.

قال تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}[40]. بدأت سورة الانشراح بالاستفهام المتضمن للإجابة اليقين، (ألم نشرح لك صدرك!) أي أنَّ شرح صدر الرّسول يقينا لا شك فيه، وذلك بالدليل القاطع وهو وضع الوزر عنه، والوزر: العبء. وهو الذنب الذي كان فيه، ويقصد بذلك (الجاهلية) أي لقد حدثت الرفعة للرسول من الجاهلية إلى النور (الإيمان)، وهذه نقلة سريعة لم تتم بالتعليم المدرسي والمنهجي المقولب بل تمت النقلة بالإعجاز، الكامن في الأمر (كن).

وشرح الصدر ليس الشرح المادي، بل هو الشرح المعرفي الذي به انتقل الرّسول إلى العلم بالأمر الذي كان يجهله ممّا جعل الله عزّ وجلّ يصف الرّسول بالنبي الأمي، وذلك تبرئة له من أي قول وظن بأن الرسالة من بنات أفكاره قال تعالى: {وَبالحق أَنْزَلْنَاهُ وَبِالحقّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاس عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا}[41].

وعليه لا يتحقق شرحُ الصدر إلا بما يحقق الرفعة القولية والعملية وهذه لا تتحقق إلا بالآتي:

---

[40] الشرح، 6.

[41] الإسراء 105 . 108.

. أولا: الإيمان: قال تعالى: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}42. إنَّ إيمان الرّسول بما أُنزل إليه من ربِّه مبنيا على إيمان الرّسول بربه أولا. ثم ثانيا الإيمان بما أنزل إليه. أي أنه لو لم يؤمن بالله ربه ما آمن بما أنزل إليه منه. وبذلك لا يمكن أن يتم الإيمان بالله وبما أنزل على الرّسول إلا بعد شرحٍ للصدر ليستوعب النور الذي يمتلئ به بعد غفلة وجهالة عنه.

. ثانيا: العلم: قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}43. القراءة نور يدخل الصدر وينير العقل بالعلم والمعرفة الواسعة التي تهدي للحقيقة وتنقل القراء من ميادين الجهل التي تضيق بالصدور إلى ميادين العلم الواسعة التي ترشد وتهدي للتي هي أحسن.

. ثالثا حُب الآخرين أقارب وأباعد: قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}44. وقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}45. وقال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النّار فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

---

[42] البقرة، 285.

[43] العلق، 1 . 5.

[44] الحجرات، 10.

[45] الإنسان، 8، 9.

تَهْتَدُونَ}46. وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}47.

بناء على هذه المتغيرات الثلاثة سابقة الذكر شرح الله تعالى صدر نبي الكافة بالإسلام، وبها نَقلهُ من الأمية التي لا تعرف الحقّيقة يقينا إلى النور الذي يهدي للتي هي أحسن وأقوم. ولذلك لم يُعد رسول الله أميا بعد أن مكّنهُ الله تعالى من القراءة بقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}48. إنها أول سورة نزلت على رسول الله وفقا لما روته عائشة رضي الله تعالى عنها49. ومعنى اقرأ باسم ربك: أن تذكر اسم ربّك افتتاحا لما تقرأه من القرآن الكريم وذلك بقولك (بسم الله الرّحمن الرّحيم) إنّها المفتاح لدخول آيات الله الكريمة باسمه الكريم.

ولأنّ محمّد رسول الله لم يَعد أميّا، جاءه أمر القراءة لازما مع الضرورة وذلك بتكرار أمر القراءة لمحمّد في قوله تعالى: (اقرأ وربك الأكرم) وفي هذه الآية تأكيد ودليل لعدم القنوط ممّا جعل القراءة بعد ذلك التأكيد متيسرة وممكنة، فقرأ عليه الصّلاة والسّلام ما أمره الله بقراءته ومكرمته حتى أصبح قادرا على قراءة القرآن بكامله وفقا لنزوله وحيا يوحى، ولهذا فالوحي الذي يوحى أصبح مُعلَنا ومعروفا بقبوله للامتداد العلمي والمعرفي في العقول والقلوب التي لا تطمئن إلا به، فآمن من آمن حتى وُصِفَ المسَلِّمَون بأمره بالمؤمنين.

---

46 آل عمران، 103.

47 الفرقان 56.

48 العلق، 1 . 5.

49 تفسير القرطبي، ج 20، ص 118.

والأكرم: هو صاحب الفضل في جعل محمّد الأمي الذي لم يسبق له أن عرف القراءة والكتابة، أصبح قادرا على القراءة لِما يُقرأ عليه من وحي موحى مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}50. في هذه الآية الكريمة قال تعالى: (علمه شديد القوى) وهذا يعني أن محمّدا صلوات الله وسلامه عليه أصبح متعلما بالعلم الذي علمه له الله، ولم يعد أميا كما سبق وإن كان قبل الرسالة التي أوحى بها الله تعالى لرسوله الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

وعلَّم بالقلم: تدلّ على أنّ التعلم الذي تلقاه محمّد لم يكن شفاهة فقط، بل هو المحفوظ في اللوح المحفوظ قراءة وكتابة، وبهذا الدليل أصبح القرآن يُعلَّم قراءة وكتابة وهو بين أيدي العباد الذين يُراد لهم أن يكونوا المستخلفين في الأرض بإعمارها وإصلاحها وعدم سفك الدماء فيها بغير حق مع عدم الإفساد الذي لا يرتضيه الله.

والذي علَّمه الله لرسوله الكريم وتعلَّمه العباد من بعده، هو العلم الذي لم يسبق له، ولا لهم، بأن عرفوه، ممّا جعل الله يصفه ويصفهم بالأميين، ولذا كان الرّسول وقومه أميين لا يعلمون شيئا منه مصداقا لقوله تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم}51. ولذا جاء قوله تعالى: (علَّم الإنسان ما لم يعلم). الإنسان: جاءت مطلقة، ويقول البعض من المفسرين: إنَّ الأمر يتعلق بآدم الإنسان الذي علمه الله تعالى كل الأسرار التي لم يَعلَمُها الملائكة ولا الجن حتى أنبأهم آدم بها، ويقول البعض: الأمر يتعلق بمحمّد عليه الصّلاة والسّلام الذي

50 النجم، 4، 5.

51 الجمعة، 2.

علمه الله ما لم يكن يعلم من قبل52. ولهذا فمحمّد عليه الصّلاة والسّلام قبل الرسالة كان أمِّيا ومن بعدها أصبح قارئا حيث علمه شديد القوى ما لم يعلم. وقال تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاس عَلَى مُكْثٍ}53. وقرآنا فرقناه، تعني قرآنا مفصلا يبين الحقّ من الباطل ولم يترك شاردة ولا واردة إلا وبيَّنها وفصَّلها تفصيلا، وهذا التفصيل والتبيان يتطلب منك يا محمّد أن تقرأه بروية ومهل وتؤدة، حتى يتمكن العباد من معرفته ومعرفة الحقّ من الباطل ليتمكنوا من بعده من التمسك بالحقّ والثبات عليه، والابتعاد عن الباطل والنهي عنه.

وجاء في الآية قوله: (لتقرأه على النّاس) تأكيدا على أن محمّدا رسول الله بعد الوحي أصبح قادرا على القراءة، ولهذا أمره الله أن يقرأه على النّاس بروية دون استعجال، وذلك ليتمكن المسلمين من الفهم والإدراك والتدبر فيما يُقرأ عليهم من آيات الذكر الحكيم.

قال تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}54. تؤكد هذه الآية الكريمة على أن محمّد كان أميا قبل نزول القرآن عليه وحيا موحى، ولهذا جاء قوله تعالى: (وما كنت تتلوا من قبله) وهذه دليل إثبات على أن محمّدا أصبح يتلو القرآن بعد نزوله عليه وحيا موحى، أمَّا من قبله فلم يكن قارئا ولا كاتبا ولو كان كذلك لارتاب المبطلون. ومع أنّ رسول الله محمّد لم يكن قارئا ولا كاتبا إلا أنه بنزول الوحي عليه أصبح عالما بأمور الأنبياء والرّسل الذين سبقوه من آدم إلى عيسى عليهم جميعا الصّلاة

---

[52] تفسير القرطبي، ج 20، ص 118 . 119.

[53] الإسراء، 105.

[54] العنكبوت، 48.

والسّلام، وأصبح أيضا عالما بقصصهم وأممهم وشعوبهم ومعجزاتهم، ولذا فمن يؤمن بمحمّد لا يفرق بين أحدٍ من رسله الذين قالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، وذلك لأنّ محمّدا عليه الصّلاة والسّلام هو خاتم الأنبياء والرّسل وهو للإنس والجن كافة.

وعليه فبعد الرسالة لم يعد محمّد عليه الصّلاة والسّلام أميا، وإلا هل يَقبل العَقل بأن يكون محمّد أميا ويوصف بها، والذين تعلموا منه الوحي ومن بعده يوصفون بالعلماء والفقهاء والمشايخ والمتبحرين في علوم الدين؟ ولذا لم يكن ولن يكون أحد من بعده عالما بأمور الدين أكثر منه بالمطلق. وعليه أتساءل: هل الذي يُعلِّمَهُ الله الكتاب والحكمة أيها المسلمون هو الأعلم بأمور الدين، أم من يُعلِّمه البشر هو الأعلم؟

بالتأكيد لا مجال للمقارنة والحقّ دامغ للباطل وله زاهق. قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}[55]. وعلَّمك ما لم تكن تعلم، هذه آية تُثبت أن محمّدا قد علمه الله ما لم يكن يعلم، أي لقد كان عليه الصّلاة والسّلام أميا، ثم أصبح بعلم الله له عالما بما علمه به تعالى.

وبما أنَّ الأمي هو من يجهل الحقّيقة ولا يعلم بأمرها، إذن فمحمّد عليه الصّلاة والسّلام ليس بأمِّي، وذلك لعلمه بالحقّيقة وأمرها. والحقّيقة هي: أن الله واحد أحد، لا شريك له في الأمر، ولا في الملك، وهو القادر على قول الأمر وتحقيقه، وهو الرّحمن الرّحيم الذي

[55] النساء، 113.

له الأسماء الحسنى، وهو الذي يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير سبحانه لا إله إلا هو الملك المتعالي.

وقد يتساءل البعض: عن العلاقة بين الأمية والهداية على درجات السُلَّم القيمي للفضيلة والأخلاق. فتكون الإجابة: هي علاقة تنافر لا تجاذب، كالعلاقة بين العليين وأسفل السافلين. ولهذا لقد تحققت الرفعة لمحمّد عليه الصّلاة والسّلام بما علمه الله به من وحي (بما أنزله عليه من رسالة)، ولهذا لقد رفع الله تعالى لمحمّد ذكره برفعه من الجاهلية إلى الهداية والنور الذي شرح صدره بالإيمان مصداقا لقوله تعالى: (ورفعنا لك ذكرك). والذي قال فيه حسَّان ابن ثابت:

أغرُّ عليه للنبوّة خاتَمُ من الله مشهودُ يلوح ويُشهَدُ

وضمَّ الإلهُ اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذِّنُ أَشهَدُ[56]

فرفعنا لك ذكرك، جاءت مطلقة، وذلك برفع ذكر محمّد عليه الصّلاة والسّلام في قول الله في اللوح المحفوظ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولقد ارتبط ذكر محمّد مع اسم الله في الشهادة والآذان، وفي التشهد أثناء الصلاة، وكذلك ارتبط ذكره المحقق للرفعة بارتباط طاعته بطاعة الله مصداقا لقوله تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرّسول فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}[57]. وقد ارتبط ذكره بالرّحمة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[58]. وقد ارتبط اسمه بالحقّ مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا

---

[56] تفسير القرطبي، ج 20، ص 106.

[57] النساء، 80.

[58] الأنبياء، 107.

أَرْسَلْنَاكَ بِالحقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}[59]. ولأنّ الله قد رفع له ذكره فقد صلى عليه والملائكة وسلموا تسليما، وأمر الله الذين آمنوا أن يصلوا عليه ويسلموا تسليما مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[60]. وهكذا أصبح اسمه مرتبطا باسمه تعالى بدخول الإسلام في الدار الدنيا ومرتبطا اسمه مع كل من يدخل الجنّة، وسيحاسب ويعاقب من أمته كل عنيد أشرك بالله أو كفر به ولم يشهد لمحمّد صلوات الله وسلامه عليه بأنه رسول الله وخاتم النبيين.

ومن يرد أن يكون خليفة لله تعالى في الأرض فعليه بالإيمان بالله واحدا أحدا لا شريك له، له الملك وله الحمد سبحانه وتعالى عمّا يصفون، وأن يؤمن بمحمّد رسول الله ويصلي عليه ويسلم تسليما، ولا يفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير.

وأن يعلم الحقّ ويتبعه، ويعلم الباطل ويجتنبه ويحرّض الآخرين على اتباع الحقّ وإحقاقه، والابتعاد عن الباطل وإزهاقه.

وأن يُحب الخليفة لأخيه ما يحب لنفسه حتى تسود المحبة بين النّاس على قول الحقّ وإحقاقه، وحتى يتم التعاون على البر والتقوى ولا يتم التعاون على الإثم والعدوان.

قال تعالى: {تِلْكَ الرّسل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}[61]. تتضمّن هذه الآية الكريمة أن الله

---

[59] فاطر، 24.

[60] الأحزاب، 56.

[61] البقرة، 253.

تعالى قد فضَّل الرّسل جميعا صلوات الله وسلامه عليهم، أي أنهم جميعا مرتفعون على درجات التفضيل، ولم يستثن الله منهم أحدا من بلوغ درجات التفضيل. ولذا فكل الرّسل هم مفضلون، ومن بين المفضلين عند الله مفضلون. هذه علاقة واضحة بين الله تعالى ومن اصطفي من الأنبياء والرّسل مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ}62.

المفسرون اجتهدوا في ذلك كثيرا، ونحن نعتقد أننا لم نبلغ ما بلغه الرّسل والأنبياء من مقامات عظام وما أظهرهم الله عليه من أسرار، ولذا فنحن سنكون ملتزمين بقوله تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}63. اليهود والنصارى لا يؤمنون بجميع الأنبياء والرّسل، ولذا فهم يُفرّقون بينهم، وهذا التفريق نهت عنه الآية السابقة بقوله تعالى: (لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير). ولهذا جاءت رسالة الله كافة على يد الرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام لتنهى عن بث روح التفرقة بين الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم بين اتباع الرسالات السماوية، فمنهم من آمن واهتدى، ومنهم من لم يهتدِ بعد.

وما ينبغي قوله هنا: أنّ الله قد بعث بعض الرّسل والأنبياء إلى أقوامهم أو شعوبهم أو سكان قراهم مصداقا لقوله تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم}64. وقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ

---

[62] الإسراء، 55.

[63] البقرة، 285.

[64] إبراهيم، 4.

شُعَيْبًا}65، وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ}66. وهناك من بعثه الله عزّ وجلّ إلى الكافة (أنسا وجنّا) مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ}67. وهناك من كلمه مباشرة وهناك من لم يكلمه مباشرة، وهناك من رفعه الله إليه، وجميع هذه المعطيات أسرار لا يعلمها إلا من فضَّل بعض الرّسل على بعض.

قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}68. الحُجَّة التي أُتيت لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هي الكلام الإعجازي الذي جعل المشركين غير قادرين على محاجَّته، فقد سألوه: من الذي كسَّر آلهتنا؟. قال تعالى: {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}69.

---

65 هود، 84.

66 الأعراف، 94.

67 سبأ، 28.

68 النعام، 83.

69 الأنبياء، 59 . 70.

بهذه المعجزات الحُجَّة سلَّم الله تعالى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من كيد وأفعال المشركين ونصره عليهم جميعا نصرا عزيزا، وبذلك رفعه الله تعالى درجات العلاء بما بث فيه من إيمان راسخ به، ولذا فمن تُرفع درجاته يُرفع، ومن تخفض درجاته يُخفض. وعليه فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان خليفة الله تعالى في الأرض الذي رُفِعَ بِرفعِ درجاته.

قال تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[70].

وفي اللغة متوفيك تعني: قابضك. وما تدلّ عليه هو: إنَّ الله قد رفع عيسى إليه من الأرض إلى السماء من غير موت. ولهذا فإن عيسى عليه الصّلاة والسّلام ما قتلوه يقينا ولكن شُبِّه لهم مصداقا لقوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}[71].

وقوله: (ورافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا) تؤكد هذه الآية بأن المسيح عيسى عليه الصّلاة والسّلام لم يمت بعد، وأن الله تعالى قد رفعه إليه (إلى السماء) المكان اللائق بالأرواح الطاهرة، خاصة وأن الله عزّ وجلّ قال: (ورافعك إليّ). وفي هذا القول الكريم حُجَّتان للرفعة:

[70] آل عمران، 55.

[71] النساء، 57 . 59.

. الحُجَّة الأولى اصطفاء الله إليه: إن الله جعل المسيح عيسى عليه الصّلاة والسّلام من الرّسل الذين اصطفاهم ورفعهم على درجات التفضيل القيمي.

. الحُجَّة الثانية رَفْعُ الله إليه: أنَّ عيسى عليه الصّلاة والسّلام قد رفعه الله إليه هوَّ كما هوَّ، وفي هذه الرفعة طهارة له من مجاورة المشركين والذين كفروا في الدار الدنيا، وأصبح عيسى في السماء مع العليين.

وعليه فإن الله تعالى قد رفع عيسى عليه الصّلاة والسّلام بثلاثة أمور استنادا على قوله تعالى: (ومطهرك من الذين كفروا) والأمور الثلاثة هي:

. الأمر الأوّل توفيته: والتوفية تعني الإتمام أي أن عيسى قد أتم رسالته التي يُراد لها أن تتم هِيَّ كما هِيَّ، فقد آمن من آمن وكفر من كفر، ولا إكراه في الدين. ولهذا فمتوفيك: تعني فيما تعني، أن الله قد خلق عيسى واصطفاه وهو معصوما ولم يكن منقوصا، فقد اصطفاه رسولا وهو أعلم به وبأمره، فلو لم يكن عيسى عليه الصّلاة والسّلام قادرا على حمل الرسالة، ما اختاره الله رسولا لها. ولقد قام بتبليغ الرسالة التي يُراد لها أن تُبلَّغ، وبهذا أوفي عيسى المهمة التي من بعدها جاء السرُّ الذي به رفعه الله إليه.

. الأمر الثاني الرفع إلى الله: وهذا الرفع سر لا يعلمه إلا هو، ولأنه سرٌّ، إذن لابدّ وأن يأتي اليوم الذي سينكشف فيه، وهذا يعني أن عيسى عليه الصّلاة والسّلام لن يموت قبل أن ينكشف السر الذي به ومن أجله رُفع إلى السماء، ممّا يجعل الرفع إلى السماء مؤقتا والعودة به إلى الأرض أمرا ضروريا.

. الأمر الثالث التطهير: بقاء عيسى عليه الصّلاة والسّلام في الأرض بين أوساط الكافرين لا يتساوى بطبيعة الحال مع وجوده مع الملائكة في العليين، وفي هذا الأمر رِفعة به وبدرجاته العلا. فالذين كفروا هم على دنس، فطهَّر الله تعالى عيسى من هذا الدنس برفعه إليه، ولذا في تطهير عيسى تزكية وإشادة وثناء ورفعة له.

وعليه فمن يُريد أن يكون خليفة لله في الأرض فعليه بالآتي:

. أوّلا: أن يُطهِر نفسه بالإيمان التام بالله تعالى ولا يُشرك به شيئا، وأن يؤمن بكل ما أمر الله أن يُؤمن به، وأن ينتهي عن كلّ ما نهى عنه، ويُصلي ويُسلّم على جميع الأنبياء والرّسل ولا يفرق بين أحد منهم.

ثانيا: أن يستمد صفاته من صفات الله الذي يُريده خليفة له في الأرض، وإلا هل يُعقل أن يكون الإنسان خليفة لله وهو لم يستمد صفاته منه؟ وكما أن الصفة تتبع الموصوف فكذلك يتبع الخليفة مستخلفه.

. ثالثا: أن يرتفع عن مواقع الفساد فلا يشرب مسكرا، ولا يسرق ولا يزني ولا يعمل حراما ولا يأكل أموال اليتامى والمساكين بالباطل، ويقول الحقّ ولا يشهد شهادة زورٍ.

. رابعا: أن يؤدّي رسالته في الأرض التي يُراد له أن يكون خليفة فيها بالعمل الصالح، وألّا يسفك الدماء فيها بغير حق، وأن يكون صادقا مع نفسه وربه الذي خلقه في أحسن تقويم.

. خامسا: أن يعمل كل ما من شأنه أن يرفعه إلى مرضاة الله تعالى.

بناء على ما تقدّم فالرّفع أنواع: هناك رفع الأعمال الخيرة مصداقا لقوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}[72]. ورفع الدرجات حتى بلوغ مستوى العليين، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[73]. وهناك رفع عيسى حيا إلى الله تعالى في السماوات العلى، وهناك رفع إدريس إلى الموت في مكانٍ في السماء، ولذا فالرفع أنواع كثيرة ومتنوعة ومتعدد، فمنه رفع القامة ومنه رفع المكانة والشأن وزيادة الهيبة والتقوى، ورفع الطائر بجناحيه من الأرض إلى ما هو فوقها. وهناك رفع السماوات بغير عمدٍ مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}[74]. وكذلك هناك رفع سمك السماء واستوائها مصداقا لقوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا}[75]. وهناك رفع الحُجَّة الرّافعة للدرجات العلا مصداقا لقوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[76]. وهناك رفع الذكرِ مصداقا لقوله تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}[77].

وفي أهل العلم يقول الشاعر:

النّاس من جهة التمثيل أكفاءُ أبوهمُ آدم والأم حواءُ

---

[72] فاطر، 10.

[73] المجادلة، 11.

[74] الرعد، 2.

[75] النازعات،27، 28.

[76] المجادلة، 11.

[77] الانشراح، 4.

فإن يكن لهم في أصلهم شرفُ يتفاخرون به فالطين والماءُ

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمُ على الهدى لِمن استهدى أدلاءُ

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

ففز بعلم تعش حيًّا به أبدا فالنّاس موتى وأهل العلم أحياء78.

وعليه كل الرفع الذي توقفنا عنده أو هو استوقفنا إنما هو رفع خير، ولذا على الخليفة أن يسعى إلى كل ما من شأنه أن يبلغه أو يبلغ به خيرا يرضاه الله تعالى. وبما أن بلوغ السماء خير، فلماذا لا يكون ذلك نصب أعيننا حتى نلتقي بالرّافع الأعظم.

ولهذا فالعلاقة قوية وموجبة بين الرفعة والارتفاع وبين الطموح والأمل، ولذلك لا يوجد في قاموس الخليفة اليأس، بل الأمل كل الأمل هو الذي يملأه بعباراته وجمله وقوانينه وإيمانه. ولذا فالخليفة هو متقدم لغزو الفضاء حتى بلوغ الجنّة التي يجد فيها نفسه بجانب من بثَّ فيه روح الرفعة والارتفاع حتى يصبح بجانبه مع العليين.

وعلى الخليفة أن يُميِّزَ بين الرفعة والارتفاع وبين الترفُّع على العباد، فالرفعة والارتفاع لا يتحققان على درجات الفضائل والسُلَّم القيمي إلا بالأعمال الحسنة، أما الترفُّع فهو تكبُّر في غير محله، وفي ذلك قال ابن المقفَّع: "من تكبَّر على النّاس ذل، ومن أعجب برأيه ضل، وذلك لأن الكبرياء لله وحده"79. قال تعالى: {وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم}80، الكبرياء صفة من صفات الله التي

---

78 محمّد بكر إسماعيل، أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. مرجع سابق، ص 97.

79 المرجع السابق، ص 98.

80 الجاثية، 37.

عندما يقتدي بها الخليفة يجد نفسه متكبرا عن أفعال الرذيلة ومتكبرا عن الإفساد في الأرض وعن سفك الدماء فيها بغير حق، ومتكبرا عن ارتكاب المظالم والمحرمات ومتكبرا عن كل ما نهى الله تعالى عنه. ولذلك جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله قال: "من تواضع لله رفعه"81.

وفي ذلك قال الشاعر:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ على صفحات الماء وهو رفيعُ

ولا تك كالدخان يعلوا بنفسه على طبقات الجو وهو وضيعُ82.

وعليه فالتواضع رحمة، لا يتم نيله إلا برحمة من رحمن رحيم، فمن يريد بلوغه فليرتفع عن كل ما من شأنه ألّا يُرضي الله تعالى ولا يُرضي من استخلفهم في الأرض، وأن يخاف مقام ربه وينهى النفس عن الهوى مصداقا لقوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الجنّة هِيَ الْمَأْوَى}83.

ومن يريد الرفعة وبلوغها فعليه بأسبابها، وأولها أن يرتفع بنفسه عن الطمع وظلم النّاس وأكل أموالهم بالباطل، يرتفع عن الإقدام على الأعمال الدنيئة حتى يرفعه الله إليه مقاما محمودا. وآخر هذه الأسباب أن يستغفر الله ربَّه من كل خطيئة أو ذنب ارتكبه ليتوب عليه ويفوز بالرّحمة التي تُعيده إلى الصعود على درجات الفضائل والقيم الخيّرة.

---

[81] المرجع السابق، ص 98.

[82] المرجع السابق، 98.

[83] المرجع السابق، ص 100.

فالحمد لله مدبر الملك والملكوت، المنفرد بالعزة والجبروت، الرّافع السماء بغير عماد حيث قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ}[84] فالله الذي رفع السماوات وما يجرى فيها النجوم بغير أعمدة تُرى ولا يعلمها إلا الله، وإن كان قد ربط بينها وبين الأرض بروابط لا تنقطع إلا أن يشاء الله، وعلى الرّغم من رفع الشمس والقمر وبعدهما عن الأرض فقد سخرهما وذللهما بسلطانه لمنفعة الخلق، وهما يدوران بانتظام لزمن قدّره الله سبحانه وتعالى، وهو أيضا المقدر لخفض ورفعة العباد، الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ما عداه والاعتماد على مدبر سواه، فلم يعبدوا إلا إياه علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق من العباد لا تُبتغى عندهم الرفعة، وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها ورفعها ووضعها بعزته وقدرته وقوته وجبروته، فقد ارتفع بكل شيء عن كل شيء حيث قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الحقّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}[85] أي أنه ارتفع بذاته وتنزه عن مماّثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله وعن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح والغايات الجليلة، وهو الذي يحق له الملك على الإطلاق إيجادا وإعداما، وبدأ وإعادة، وإحياء وإماتة، وعقابا وإثابة، وكل ما سواه مملوك له مقهور تحت ملكه العظيم سبحانه، والملك لما له من الرفعة والمكانة العالية، فهو الذي يستغني في ذاته وصفاته وأفعاله عن كل

---

[84] الرعد 2

[85] المؤمنون 116

موجود ويحتاج إليه كل موجود، وقد وصف نفسه برب العرش الكريم لأنّه يقسم فيض كرم الحقّ ورحمته ومنه تنقسم آثار رحمة كرمه إلى جميع مخلوقاته، يرفعهم بها كل حسب ما قدر له من الرفعة كونه الرّافع، فإن كان هو الرّافع فقد تنزه عن جميع صفات المخلوقين، استعظاما له تعالى ولشؤونه سبحانه التي يصرف عليها عباده جلّ وعلا من البدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة أي ارتفع سبحانه بذاته وتنزه عن ممّاثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله، وتتضح أعلى درجات الرفعة والعلو والتنزيه للرافع جلّ وعلا بقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[86] فالله وحده مالك التصرف في الأمر كله، يمنح من يشاء ما يشاء من الحكم والسلطان، وينزعه ممن يشاء، ويهب العزة من يريد من عباده بتوفيقه إلى الأخذ بأسبابها فيرفعه بهذه الأسباب، ويضرب الذل والهوان على من يشاء فيضع من كانت الرفعة إلى جانبه، فهو وحده أيضا يملك الخير، ولا يعجزه شيء عن تنفيذ مراده، وما تقتضيه حكمته في نظام خلقه، ولهذا فهو مالك جنس الملك على الإطلاق ملكا حقيقيا بحيث يتصرف فيه كيف يشاء له إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة من غير مشارك ولا ممّانع، وهو الرّافع من كونه تعالى بيده الميزان حيث قال تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحقّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[87] يخفض القسط ويرفعه فيرفع ليؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويغني من يشاء، إنه الخافض لينزع الملك ممن يشاء ويذلّ من يشاء ويفقر من يشاء بيده الخير وهو الميزان

---

[86] آل عمران 26

[87] الأعراف 8

فيوفي الحقّوق من يستحقها، والذي يرفع ويخفض، هو الذي يعز ويذل، فأعز بطاعته وأذل بمخالفته، وفي الدنيا أعز كما آتى من المال من آتاه وبما أعطى من اليقين لأهله وبما أنعم به من الخلافة والولاية وتحكم في الخلق بإمضاء الكلمة، فقهر وأذلّ الجبارين والمتكبرين وأنزلهم عن مكان رفعتهم، وبما أذلّ به في الدنيا بعض المؤمنين بتواضعهم ليرفعهم في الآخرة بحسن أعمالهم وبما كانوا يفعلون من الخيرات والامتثال لأوامر الله تعالى فيما أحل وحرم وفيما أباح ومنع من الموجودات التي أوجدها للخلق اختبارا وامتحانا، فالموجودات كلها كانت بكلمة الله (كن) وإليه يرجع الأمر كله والعمل الصالح يرفعه إلى ما انتهت إليه همة العبد وما تعطيه حقيقة العمل الرّافع له، ورفعة الله لا تدرك ولا تعرف، فلا حد لها، ولذلك يقال يوم القيامة لصاحب القرآن كما قال رسول الله: "يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فإنّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا"88 فدرجات الجنّة على هذا على عدد أي القرآن في الرفعة. وقال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}89، إن تسخير ما في السماوات والأرض رفعة للإنسان الذي فضله الرّافع على جميع مخلوقاته، وجعل علة تسخير بعضها لبعض مع كون العالم مسخرا للخلق، إنها رفعة لبعضنا على بعض بالدرجة التي يحتاج إليها كل إنسان، فالإنسان مسخر لحاجته وأهله وأرضه، ولهذا سخر له الله تعالى ما في السماوات وما في الأرض، وهذا التسخير بطريق الإذلال لكل ما في السماوات وما في الأرض لترفع من شأنه وتصلح من أحوال معيشته، وهناك نوع آخر

---

[88] مسند أحمد 14،46

[89] الجاثية 13

من التسخير وهو تسخير القيام، حيث يسخر من له قدرة على خدمة من ليس له قدرة على القيام بمهام أحواله الخاصة. وهذا معنى الإنسان المستخلف في الأرض الذي رفعه الله تعالى عن بقية ما خلق، فالاسم الإلهي الرّافع يرفع الليل ويضع النهار، وهكذا هو رافع السماوات بغير عمد ورافع الشمس والقمر والنجوم والكواكب وجاعلها سابحة في أفلاكها، فالله تعالى بيده القدرة والقوّة والميزان يخفض ويرفع من يشاء متى ما شاء سبحانه إنه ربّي، ولهذا فالإنسان الذي يعلم معنى أنّه خليفة فهو الذي يرفع مقام نفسه بكل ما يرضي الرّافع، والمرء حيث وضع نفسه، إن أعز نفسه علا أمره، وإن أذلها ذل وهان قدره. والخليفة كونه وارثا للأرض فيجب أن يكون صاحب همة لا محالة، ومعنى الهمة أن يرفع نفسه فإن أنفة القلب من همم النفوس العالية لأنهم يعرفون قدر أنفسهم فيعزونها، ولا يُرفع قدر أحد حتى يكون هو الرّافع لقدر نفسه. وإعزاز المرء نفسه ألّا يختلط بالأراذل ولا يشرع في عمل ما لا يجوز لمثله أن يعمله ولا ما يعاب به والهمة والأنفة للخليفة لأن الله ركب فيه الخصلة الحسنة ليتعلمها منه بقية من خلق، والرّافع سبحانه هو الله يرفع ويخفض، بيده ميزان القسط، وخير ما يرفع قدر الإنسان وقيمته وأجره وثوابه هو العلم الذي هو غذاء العقل وطريق الهدى وسبيل الرشاد، ذلك أن العالم يكون مرفوع الدرجة، والمتعلم كذلك، ومن يستمع للعلم يكون له نصيب من الرفعة، فما تشبه أحد بقوم إلا أوشك أن يكون منهم إن لم يكون قد أصبح، فإن تعلّم علمك لمن يجهل، وتتعلم ممن يعلم ما تجهل هو من باب الرفعة المتبادلة، فمن فعل ذلك فقد علم ما جهل وحفظ ما علم، والأمر بتعلم العلم تعني فيما تعنيه دعوة إلى رفع قيمة الإنسان وقدره وترفعه عن بقية المخلوقات التي لا تختص بأمر الخلافة التي هي حكر على الإنسان الذي فضله الله به، فلذلك كان تعلم العلم لله

خشية، وطلبه عبادة، ودارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الصواب، والمصبِر على السراء والضراء، والمعين عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنّة، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة، يقتدى بهم، أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الابدّان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل أعلى درجات الرفعة، ودارسته تحيي القلوب والعقول، وبه يطاع الله عزّ وجلّ وبه يعبد، وبه يوحد ويمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام.

والسبب الذي من أجله تدرك أشرف العلوم هو الرفعة والتسامي عن الأشباه والنظائر، وأن ذلك يراد به شيآن:

الأوّل: شرف الثمرة.

الثاني: وثاقة الدليل وقوّته.

وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الابدّية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف، وأن أشرف العلوم العلم بالله عزّ وجلّ وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم، وأن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل للقرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء

ومباهاة الأقران ولكن العلم يدعو إلى التواضع الذي هو من صفات العلماء، وهذا التواضع هو الرفعة بعينها، ومن غير باب العلم من الذين يزيدهم الله عزة ورفعة بعفوه عنهم لتواضعهم، فما زاد الله عبده بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله تعالى، وقال: "من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة، حتى يجعله في أعلى عليين ومن يتكبر على الله درجة يضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل السافلين، ولو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس عليه باب ولا كوة، لخرج ما غيبه للناس كائنا ما كان"[90] وهو التواضع للمخلوقين في ذات الله لأن التواضع دليل العزة والمقدرة وهو من باب العلم اليقين بأنه مقتدر، أما الجاهل فإنه يتكبر ويعلو على الآخرين ظنا منه أنه يترفع أو أنه أوتي الرفعة وهذا من فرط جهله بنفسه وبالنّاس، فقد يُؤتى الإنسان من قبل جهله من وجه آخر، حيث يظن أن فعله هذا مبارك مشروع، وصاحبه مأجور مشكور، وليس الأمر على ظنه وحسبانه في الواقع، كمن يظلم فاجرا أو فاسقا، ويتعمد الإساءة إليه بالقول والفعل، وهو يظن أن عمله هذا قربة يرفعه الله بها درجات، ويجهل أن الظلم حرام في حق كل أحد، سواء كان مسلما أو كافرا، برا أو فاجرا، وأن فعله هذا من الصد عن سبيل الله، والظلم لعباد الله، وكلاهما حرام بنصوص كثيرة في الكتاب والسنة والعرف والأخلاق، وبهذا نعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحرمان ذلك إذ تضمنا تفويت مصلحة أكبر أو جلب فتنة ومفسدة أعظم.

لقد اختار الله تعالى الأنبياء والمرسلين من خلقه، وهذا الاختيار الإلهي إنما هو رفعة من الله تعالى رفعهم بدرجاتهم عن بقية خلقه، وهذه الرفعة من جانبين:

---

[90] صحيح ابن حبان 23،382

أولهما: اختيارهم أنبياء ورسلا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثانيهما: أنه أوحى إليهم دون بقية خلقه، فقد قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإسماعيل وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}91 فقد خاطب الرّسول بأنه أوحى إليه القرآن والشريعة، كما أوحى من قبله إلى نوح وإلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وإلى عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم جميعا، وبذلك رفعهم بالرسالات والنبوّة، ومع أنّهم رسل الله وأنبيائه الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، إلا أن لكل رسول رسالة خاصة إلا محمّد عليه الصّلاة والسّلام فكانت رسالته للكافة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}92 وكانت طريقة الوحي إلى موسى أن كلَّمه الله تكليما من وراء حجاب بلا واسطة، وقد ذكر نوح في البداية لأنه أول نبي عذبت أمته لردهم دعوته وقد أهلك الله بدعائه أهل الأرض حيث قال تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}93 ومن رفعة مقامه أن نوحا عليه الصّلاة والسّلام عمر ألف سنة وكان يدعو قومه ليلا ونهارا وسرا وجهارا وكان يُضرب من قومه حتى يغمى عليه فإذا أفاق عاد وبلغ، وإبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط الذين هم أولاد يعقوب عليه

---

[91] النساء 163 164

[92] سبأ 28.

[93] نوح 26

الصلاة السلام، وكذلك عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تشريفا لهم وإظهارا لفضلهم ورفعة لشأنهم، فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أول أولي العزم.

إنّ الكلام الطيب عمل صالح، وإنّما يستقيم ذلك حسب ما نعلم لا لأنّ العمل هو الرّافع للكلم، وأنه يزيد في رفع من تكلم به ويحسن موقعه، إذا تعاضد الكلم الطيب والعمل الصالح من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يعمل بما يقول من النصيحة فإنّ ذلك يرفع صاحبه وفاعله أعلى الدرجات، والرفع يعود على الله عزّ وجلّ، أي أن العمل الصالح يرفعه الله على الكلم الطيب، لأن العمل تحقيق الكلم، والعامل أكثر تعبا من القائل، وهذا هو حقيقة الكلام، لأن الله هو الرّافع الخافض، فيرفع الكلم الطيب لأنّه صادر عن الطيبين والطيبات حيث قال الله تعالى: {الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}94، وكذلك الطيبات من النساء يكن للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال يكونون للطيبات من النساء، وهؤلاء الطيبون مبرّؤون من التهم التي يصفهم بها الخبيثون، وطيب الكلام يرفعهم إلى الدرجات العلا والمكانة السامية والمنزلة الرفيعة التي رفعهم الله تعالى إليها. قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}95 فمن كان يريد الشرف والرفعة فليطلبها بطاعة الله، فإن له القوّة والرفعة كلها، وإليه يعلو الكلم الطيب، ويرفع الله العمل الصالح فيقبله قبول رضا؛ لأن له عزة الدنيا وعزة الآخرة، ولا يملك غيره شيئا منها، فمن أرادها فليطلبها من عنده تعالى بطاعته وتقواه لا من عند غيره، قال

[94] النور 26

[95] فاطر 10

تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}96 فما لله تعالى من العزة هي بالذات وما للرسول من العزة هي بواسطة الرسالة والاصطفاء الذي قربه من الله تعالى، وما للمؤمنين من العزة بواسطة اتباعهم وتسليمهم بما آتاهم به الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، فالله الرّافع رفع نبيه بعزّته، والنبي رفع المؤمنين بما أعزه الله به. فالعمل الصالح له الحياة الطيبة وهي تعجيل البشرى في الحياة الدنيا كما قال تعالى: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}97، فالبشرى لا تكون إلا بالخير، والخير لا يكون إلا عزة ورفعة بما وعدَهم اللهُ من نصرٍ وعز في الحياة الدنيا، وفي الآخرة بتحقيق وعده بعظيم الجزاء من الرفعة، ولذا فإن وعد الله حق وكلامه صدق لا تبديل فيه، قال تعالى: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}98 وإن كان لعمل العبد تبديل، فيبدل الله سيئاته حسنات، وكذلك للعمل الصالح شكر من الرّافع الذي يرفع الدرجات، لأنه الغفور الشكور فسعي العبد مقبول وكلامه مسموع ولو لم يكن في العمل الصالح إلا إلحاق عامله بالصالحين وإطلاق هذا الاسم عليه لكان كافيا، وقد زكاهم الله تعالى بالصلاح حيث قال في حق إبراهيم: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}99، وكذلك في جميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام حيث قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ}100 والصلاح من أعظم النعم التي أسبغها الله على

---

[96] المنافقون 8

[97] يونس 64

[98] ق 29

[99] البقرة 130

[100] الأنعام 85

أنبيائه عليهم الصّلاة والسّلام، فهي رفعة وعظمة، وذلك أن الصلاح مطلب الأنبياء عليهم الصلاة السلام ومبتغاهم، وهم أرفع الخلق من عباد الله، والصلاح أرفع صفة لهم فإن الله أخبرنا عنهم: أنهم مع كونهم رسلا وأنبياء، سألوا الله أن يدخلهم برحمته في عباده الصالحين، وذكر في أولي العزم من رسله أنهم من الصالحين في معرض الثناء عليهم، فالصلاح يكون أخص وصف للرسل والأنبياء عليهم الصلاة السلام، وهم بلا خلاف أرفع النّاس منزلة وإن فضّل بعضهم على بعض درجات، ومن نال الصلاح من عباد الله فقد نال ما دونه من خير بالضرورة، فقد قال: "إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم قال هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف النّاس ولا يحزنون إذا حزن النّاس"[101]. ولذا قال رسول الله: "لما قضى صلاته أقبل إلى النّاس بوجهه فقال يا أيّها النّاس اسمعوا واعقلوا واعلموا أنّ لله عزّ وجلّ عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله فجاء رجل من الأعراب من قاصية النّاس وألوى بيده إلى نبي الله فقال: يا نبي الله ناس من النّاس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله انعتهم لنا يعني صفهم لنا فسر وجه رسول الله لسؤال الأعرابي فقال رسول الله هم ناس من إفناء النّاس ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا يضع الله لهم يوم القيامة منابرا من نور فيجلسهم عليها فيجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا يفزع النّاس يوم القيامة ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لا

[101] سنن أبي داود 9،404

خوف عليهم ولا هم يحزنون"[102]. فهؤلاء الذين هم على رفعة من الله تعالى بطيب كلامهم وصالح أعمالهم لا يحزنهم الفزع الأكبر، ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيون، ولذا فمن شرط الصلاح استصحاب العصمة في الحال والقول والعمل ولا يكون هذا إلا لأهل الصلاح والذين كتبهم الله من الصالحين ورفع درجاتهم مع الأنبياء والصديقين والشهداء، فيحكّمون نفوسهم ويمشون بها مشي ربهم من حيث هو على صراط مستقيم حيث قال تعالى: {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[103] فمن حياتهم الطيبة في الدنيا أنهم وإن دعوا الخلق إلى الله، فإنهم يدعونهم بلسان غيرهم ويشهدون من سمع دعوتهم من المدعوين وإن ترد دعوتهم فلا يألمون لذلك الرد بل يتنعمون بالقبول نعيمهم بالرد، لا يختلف عليهم الحال وسبب ذلك أنهم مترفعون عن الذنوب والخطايا وهم في حياة طيبة، وهذا أكبر نعيم أهل الله، ولا تكون هذه الحياة الطيبة إلا أن تكون مصحوبة بالعمل الصالح، وما ينالها إلا الصالحون من عباد الله وإن ظهر منهم ما توجبه الأمور المؤلمة في العادة وظهر عليهم آثار الآلام فالنفوس منهم في الحياة طيبة، وآلامهم حسيّة لا نفسيّة، فالذي يراهم يحملهم في ذلك على حاله الذي يجده من نفسه لو قام به ذلك البلاء وهو في نفسه غير ذلك فالصورة صورة البلاء والمعنى معنى العافية والإنعام، وما يعقلها إلا العالمون فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ}[104] أي لهم العافية في الدنيا وحسن مآب في الآخرة، فهم جمعوا بين الإيمان بالقلب والعمل الصالح بالجوارح، وهذا جزاء العمل الصالح ومكانته عند الرّافع الذي

---

[102] مسند أحمد 46، 382

[103] هود 56

[104] الرعد 29

جعل كل إنسان في المنزلة التي يستحقها بعمله ونيته، فالله تعالى رفع بعضهم فوق بعض درجات، ونحن نعلم رفعة الدرجات في الأسماء بعضها فوق بعض كانت ما كانت ليتخذ بعضهم بعضا بحسب مرتبته، وما يقتضيه الرفع والميزان الذي به يخفض الله ويرفع الأعمال، قال: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فإن الكلمة إذا خرجت تجسدت في صورة ما هي عليه من طيب وخبيث، فالخبيث يبقى فيما تجسد فيه ما له من صعود، والطيب من الكلم إذا ظهرت صورته وتشكلت فإن كانت الكلمة الطيبة تقتضي عملا، وعمل صاحبها ذلك العمل، قدَّر الله لهذه الكلمة رفعة ومنزلة عالية، فيصعد به هذا العمل إلى الله صعود رفعة يتميز بها، والكلم الطيب يرجع إلى العلم من جانب معنوي مثل الكلمة الطيبة التي تكون بمثابة الصدقة، فهذا الكلم هو الذي يصعد ويقع موقع الرفعة والمنزلة العالية، والعمل إنما هو مثل الوعاء للكلم الطيب يحمله ويرفعه. فرسول الله بعد أن ذكر النّار فتعوذ منها وأشاح بوجهه ثلاث مرات ثم قال: "اتقوا النّار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة"105.

إنّ كل شيء بالنسبة للإنسان الخليفة من حيث ارتفاع الدرجة والرقي منوط بالعمل، وكل ما له علاقة بالتسامي منوط بالأخلاق، لذلك وجب على الإنسان الخليفة أن يسمو إلى الدرجة التي أرادها الله له فلا يغفل، وأن يرتفع إليها بالقدرات والإمكانيات التي تؤهله لأن يكون خليفة وفق المشيئة الإلهية كما أرادها الله، فالله سبحانه وتعالى هو العاطي والرّافع والخافض وهو على كل شيء قدير، فقد أعطى الخليفة الأسباب، وبين له الطرق والسبل الواجبة الاتباع وكذلك المنهي عنها والمطلوب تجنبها، ووضح له الخير والشر، وجعل

[105] صحيح مسلم، ج 5، ص 197

الميزان بيده يخفض ويرفع بما كسبه كل إنسان، وبهذا يمتاز الخليفة عن غيره باتباعه سبل الرشاد فترتفع به الدرجات حيث قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[106] فهو الذي جعلكم خلفاء للأمم السابقة في عمارة الكون، ورفع بعضكم فوق بعض درجات في الكمال المادي والمعنوي لأخذكم في أسبابه، ليختبركم فيما أعطاكم من النعم كيف تشكرونه عليها، وفيما آتاكم من الشرائع كيف تعملون بها حتى تهتدون، إن ربك سريع العقاب للمخالفين، لأن عقابه آت لا ريب فيه، وكل آت قريب، وإنه لعظيم المغفرة لمخالفات التائبين المحسنين، واسع الرّحمة بهم.

وأما كون ابن آدم خليفة فإنه "جعل كل واحد من بني آدم، آدم وقته وخليفة ربه في الأرض، وسر الخلافة أنه صوره على صورة صفات نفسه حيا قيوما سميعا بصيرا عالما قادرا متكلما مريدا"[107].

وأما من جانب آخر فإنه يفهم من سياق الآية أن الله تعالى هو الذي جعلكم خلائف في الأرض، فإن الله أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم، ثم رفع بعضكم على بعض في أنه تعالى خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوّة والفضل، فجعل منهم الحسن والقبيح، والغني والفقير، والشريف والوضيع، والعالم والجاهل، والقوي والضعيف، وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل فإن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفاته النقص وإنما هو لأجل الابتلاء

[106] الأنعام 165

[107] تفسير حقي، ج 4، ص 96

والامتحان، لكي يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر وهو أعلم بأحوال عباده، ليبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته، ولهذا لا ملجأ منه إلا إليه سبحانه، وهكذا غيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منهم ما يكون عليه الثواب والعقاب، لأن العبد إما أن يكون مقصرا فيما كلف به وإما أن يكون موفيا ما أمره به. وهذا التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل، فإنه تعالى متعال عن هذه، فالله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم.

ومن الرفع أيضا، ما كان بفعل المخلوقين بأمر الخالق، فيوسف عليه الصّلاة والسّلام الذي كان أبوه يؤثره على إخوته محبة ورفعة وحنانا، إنما كان ذلك بأمر الله تعالى وإيذانا من الله منذ أن كان طفلا حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}[108] فإن كان المراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره، أو المراد به حقيقة السجود، وأيا كان يعني هذا السجود، فإنما هو رفعة ليوسف عليه الصّلاة والسّلام على غيره، وخاصة أن رؤيا الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام هي رؤيا صادقة، فقد رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدين له فكان ذلك أباه وأمه وإخوته، فوقع حقا ما كان إدراكه رؤيا في صورة كوكبية، فلما دخلوا عليه خرّوا له سجدا فقال يوسف عليه الصّلاة والسّلام لأبيه هذا تأويل رؤياي من قبل جعلها ربي حقيقة واقعة في الحس، وقد كانت حقيقة في الخيال في موطن الرؤيا حيث قال تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي

---

[108] يوسف 4

لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}109 فعندما جاء يعقوب عليه الصّلاة والسّلام إلى مصر وبلغوا دار يوسف عليه الصّلاة والسّلام فدخلوها وصدَّر يوسف أبويه، فأجلسهما على سرير، وغمر يعقوب وأهله شعور بجليل ما هيأ اللّه لهم على يدي يوسف من رفعة المنزلة وعلو المكانة، إذ جمع به شمل الأسرة بعد الشتات ونقلها إلى مكان عظيم من العزة والتكريم، فحيَّوه تحية مألوفة تعارف النّاس عليها في القديم للرؤساء والحاكمين، وأظهروا الخضوع لحكمه، فأثار ذلك في نفس يوسف ذكرى حلمه وهو صغير، فقال لأبيه: هذا تفسير ما قصصت عليك من قبل من رؤيا، حين رأيت في المنام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر لي ساجدين، قد حققه ربى، فقد أكرمه الله تعالى وأحسن إليه فقد رفعه بأن جعله نبيا ومن أصحاب الملك والسلطان، وأظهر براءته برفع التهمة عنه ممّا اتهم به، ورفعه من السجن إلى قصر الملك وكرسي الحكم فقد قال تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}110 وذلك لأنّه علم في الرؤيا التي رآها الملك أن النّاس يصيبهم القحط فخاف عليهم القحط والتلف فأحب أن تكون يداه على الخزائن ليعينهم وقت الحاجة شفقة على عباد الله وهذا من أخلاق الخليفة الذي رفعه الله في المكانة والعلم والجاه، وبالتالي فإنه لعلمه أنه خليفة الله في أرضه فقد قام بما يجب أن يقوم به من حق الخلافة، في نشر العدل والحفاظ على أرواح النّاس وحياتهم والخوف عليهم من الشدائد والنوازل التي تصيب الخلق، ففي هذه المواقف

[109] يوسف 100

[110] يوسف 55، 56

يتجلى دور الخليفة بأبهى صوره بالقيام بما أمر الله تعالى به من إسعاد العباد وإعمار البلاد.

وعليه فالنبي إدريس نبي كريم أنعم الله عليه بكثيرٍ من الفضائل والمكارم العظام، ولأنّ المنعِم على إدريس هو الله فلا قدرة لنا لأن نحصي أو نعُد نعم الله على إدريس، ولأنّه في عِلِّيِّينَ الآكارم، فهو من أوّلئك الذين أنعم الله عليهم بواسع نعمه مصداقا لقوله تعالى: {أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آَدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}[111].

ولأنّ إدريس مجتبى اجتباء من ربّه العزيز الكريم فلابدّ وان تكون له رسالة وإن لم تكن بين أيدينا، وإلا لماذا اجتباه؟

ومن أجل ماذا؟

ولمن كان مجتبيا؟

هذه التساؤلات ليس لنا إجابة يقينية عليها، ومع ذلك بما إنّه مُجتبى فلابدّ وأن تكون له رسالة، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آَدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا}[112].

ومع ذلك نقول: وفقا لقاعدة النّاسخ والمنسوخ أنّ ما دعا إليه إدريس لا يخرج عن التوحيد والطاعة للحق والأمر بإتباعه والنهي عن

---

[111] - مريم 58.

[112] - مريم 56 . 58.

المنكر والأمر بالمعروف وهذه وغيرها من الآيات العظيمة جاءت محتوية ومضمونة في رسالة محمّد الرسالة الخاتمة للناس كافة، ولهذا؛ فمن آمن بمحمّد لابدّ وأن يكون مؤمنا بإدريس وغيره من الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم الذين لا نفرّق بين أحدٍ منهم، {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[113].

ولأنّ إدريس نبي مجتبى كان ساجدا لله تعالى فهو المتعبّد والطائع وفقا لِما شاءه الله من عباده الصالحين الذين إذا ما ذُكر الله وجلت قلوبهم، ولهذا كان إدريس من بين الأنبياء العظام الذين خروا لربّهم سجّدا وبكيًّا، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آَدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}[114].

وعليه: لقد كان سجود إدريس عن وعي ويقين مع فائق التدبُّر والتمعُّن في آيات الخالق، وإلا لماذا هو بكيّ عند سجوده طاعة لله ربّ العالمين؟

بدون شك كان مهتديا للحق بالحقّ، ولذا فهو على التبيُّن لكلّ حق ولكلّ باطل هو مُدركه ممّا جعله مُقدِما على الحقّ بأفعال الحقّ، ومتجنبا للباطل إحقاقا للحق، وهكذا كان إدريس صابرا على الحقّ وإحقاقه حتى وصفه الله عزّ وجلّ بأنّه من الصابرين لشدَّة وعظمة

[113] - البقرة 285.

[114] - مريم 56 . 58.

صبره مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}115.

ولأنّ إدريس نبي من الصالحين والصابرين فهو على التفضيل الرّباني كغيره من الرّسل المفضّلين عند الله الذي اصطفاهم واجتباهم أنبياء ورسل كرام صلّى الله عليهم وسلّم، قال تعالى: {تِلْكَ الرّسل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كلّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}116.

لقد كان إدريس مهديا من الله تعالى إلى ما شاء الله أن يكون إدريس مهديا عليه، ولذا فهو من الأنبياء الذين كانوا على أتم الهداية التي جعلته طائعا وراسخا في الطاعة واليقين والصبر من أجل هداية الآخرين إلى ما يُفيدهم في حياتهم الدنيا والآخرة التي هي خير وأبقى.

وبما أنّ إدريس موصوف بالصبر وهو نبي مُجتبى؛ فكيف لا يكون رسولا من رُسُله الكرام صلّى الله عليم وسلّم؟

ولذا؛ فالصبر صفة الأنبياء والرّسل الذين بُعثوا لأقوامهم وشعوبهم وقراهم وأممهم وللكافة كما هو حال نبينا الخاتم سيدنا محمّد، ولهذا؛ فالصبر يكون على ما يُلحِقَهُ القوم المستهدفين بالرسالة برسولهم المرسل إليهم، وهكذا كان جميع الرّسل هم على الصبر ثابتين من أجل رسالاتهم وطاعة لأمر الله فيما يشاءه تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}117، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّا

---

115 – الأنبياء 85، 86.

116– البقرة 253.

117 – يونس 109.

يَمْكُرُونَ}118، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}119.

ولأنّ إدريس كان من الصابرين العظام الذين كرَّمهم الله بالنبأ العظيم والاجتباء الخالص كان في رحمة الله الواسعة حتى اتصف بها في حياته نبيا كريما (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) فقوله تعالى: (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا) أي أنّ إدريس مُدخل في الرّحمة المطلقة وكأنه جزءً من الرّحمة ذاتها، ولهذا فمن تَعُمَّه الرّحمة لا يخرج عن الرّحمة التي بها أنعم الله على عبده إدريس.

---

[118] - النحل 127.

[119] - المزمل 10.

من

صفات النبي إدريس

1 . صدِّيق:

الصدِّيق هو من صَدَقَ قلبه قبل لسانه، وفعله وعمله قبل قوله، ونفسه قبل بدنه، ثم يُسلِم كلّه تاما لله تعالى.

ولذا؛ فالصدِّيق هو من مُكِّنَ من الاطلاع على آيات الله تعالى فأسلم وجهه له وهو قارٌّ بما رأى، ومعترف بضعفه أمّام القوّة والقدرة المطلقة التي أظهرته على الآيات الكريمة؛ فصدَّق بما رأى وسلّم تسليما، وأعلن طاعته وتوبته إليه واحدا أحدا.

والصدِّيق هو من يُصدِّق بما يرى من آيات وهو الذي يُسلِّم طاعة وهداية لكلّ أمرٍ ونهي من ربّه، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}[120]، فقوله (صِدِّيقًا) تدل على أنه لا تكذيب ولا ظن ولا شك فيما يرى وفيما يُؤمر به من قِبل العزيز جلّ وعلا الذي جعله صدِّيقا، ثم اجتباه نبيا (صِدِّيقًا نَبِيًّا).

وكون إدريس صدِّيقا؛ فهو الذي لازمه الصدق في كلّ قولٍ وكلّ فعلٍ وعملٍ وسلوكٍ، ولذا جاء التصديق لمن هو على الصدق عظيم.

ولقد وُصِف إدريس بأنه صدِّيق لأنه آمن بالله تعالى تسليما يقينيا، وهكذا كلّ من يؤمن بالله يقينا مطلقا ويفعل ما يُؤمر به وينتهي عن كلّ ما نهى الله عنه فهو من الصدِّيقين العظام الذين خشعت قلوبهم

---

[120] - مريم 56.

بذكر الله وما أنزله على رُسُله من حق مبين، قال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحقّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوّلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}121.

2. نبي:

النبي هو من يصطفيه أو يجتبيه أو يجعله أو يهبه الله بالنبوّة فيكون على النبأ نبيا أو نبيا رسولا.

والنبأ هو الحجّة التي بها يُدحض الباطل ويُزهق ويُدمغ ويحق الحقّ، ولذا فالنبأ لا يكون إلا لمحق الحقّ من نبيا ورسول.

إذا النبأ العظيم هو الذي يُنبئ به إنباء وليس الذي يتم التنبؤ به تنبؤا، ولهذا فالنبأ يُجتبى له اجتباء، أو يصطفي له اصطفاء، أو يُجعل عليه جعلا وهو الذي يُبشَّر به ممّا يجعل الأنبياء والرّسل بشرى خير لأقوامهم وشعوبهم وقراهم وأممهم وللكافة، وعلى هذه القاعدة كان إدريس نبيا لله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}122

وعليه فإنّ النبوّة على أوجه منها:

---

[121]- الحديد 16. 19.

[122] مريم 56.

أ . الاصطفاء: وهو من عند الله الذي يصطفي من يشاء من رسولٍ بنبأ عظيم أو رسولٍ برسالة خالدة، ممّا يجعل الاصطفاء ذرية بعضها من بعض مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}123.

واصطِفاء الأنبياء والرّسل لا يقتصر على النوع البشري بل يتعداه إلى اصطفاء نوع على الأنواع كلّها وهو اصطفاء خَلقي (كن) فكان آدم على التفضيل مصطفيا مفضلا على الملائكة والجن، مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كلّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}124.

هذا الاصطفاء كان في السماء حيث الملائكة والجن وآدم قبل الهبوط على الأرض، ولذلك كان اصطفاء آدم على الملائكة والجن في الجنّة وليس في الأرض، ولكن على الأرض بعد أن أخبر الله الملائكة بأنه جاعل على الأرض خليفة وهو من اصطفاه عليهم في السماء أصبح آدم مجعولا نبيا على الأرض جعلا مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كلّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

[123] - آل عمران 33، 34.

[124]- ص 71. 74.

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}125.

ومع أنّ الله قد اصطفي آدم على النوعين المخاطبين (الملائكة والجن) في الآيات الكريمة السابقة إلا أن اصطفاء الرّسل كان داخل الملائكة كما هو داخل البشر أي لكلّ منهما رُسُله المكرّمين مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النّاس إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}126.

ب ـ الجعل: وهو أن يكون المجعول مجعولا على ما جُعِل عليه من نبوة أو رسالة من عند الله تعالى الذي جعل المجعول على ما هو مجعول عليه فيكون مُعدا لأداء مهمة عظيمة بنبأ عظيم أو رسالة خالدة عظيمة، قال تعالى: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا}127، وقوله تعالى: {وَكلّا جَعَلْنَا نَبِيًّا}128.

ج ـ الكينونة: وهو أن يكون النبي نبيا والرّسول رسولا من عند الله بالهيئة التي كان عليها في خلقه من حيث قدراته واستعداداته وحُجَّته التي بها يُحق الحقّ ويُزهق الباطل بنبأ عظيما أو رسالة خالدة عظيمة، ولذا فالإدريس كينونة كان عليها نبيا مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}129، وكذلك من قبل إدريس كان إبراهيم على كينونة النبوّة نبيا، {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ

125- البقرة 30 ـ 34.

126- الحج 75.

127 - مريم 30، 31.

128- مريم 49.

129 - مريم 56.

كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}130، وكان إسماعيل أيضا نبيا، {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}131، وهكذا كان من أنبياء الكينونة موسى رسولا نبيا، {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}132.

د ـ الوهب: الوهب عطاء دون انتظار مقابل لِما يُعطي، وهو عطاء بدون مِنَّة، والوهب بالمطلق لا يكون إلا من عند الله، ولهذا فالأنبياء يوهبون وهبا من الذي يملك أمرهم ويملك كلّ أمر بالمطلق، ولأن أمر الأنبياء لا يملكه إلا الله تعالى فهو وحده الذي يصطفيهم ويجتبيهم ويجعلهم مجعولين للمهمة التي يشاءها الله تعالى أن تكون وهو الذي بكينونته يكون الأنبياء أنبياء والرّسل رُسُلا، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا}133، وقال تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا}134.

وعليه: فالوهب خير من الكريم الذي بيده كلّ الخير، فهبة الله هارون لأخيه موسى نبيا هو استجابة لسؤال موسى ربّه بأن يجعل له من أهله هارون وزيرا، وهذه الاستجابة وإن كانت لسؤال موسى إلا أنها في علمه تعالى هي مُقرَّة مسبقا، ولكن أن تكون تزامنا مع دعاء موسى وطلبه ربّه أن يكون له أخيه هارون وزيرا فهذه تيسيرا من الله

130- مريم 41.

131- مريم 54.

132 - مريم 51.

133- مريم 51 . 53.

134 - مريم 52، 53.

وفضل على نبيه ورسوله موسى، قال تعالى: {قَالَ ربّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}[135].

هـ ـ البشرى: ولأنّ كلّ نبأ من عند هو خير، والأنبياء مجعولين على الخير لذا فإنّ التبشير بهم هو تبشير بخير قادم على أيديهم، ولذا فهم بُشرى قال تعالى: {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}[136]، وقال تعالى: {وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}[137].

و ـ الاجتباء: الاجتباء نعمة من نعم الله على عباده من الأنبياء والمرسلين والاجتباء تفضيل للأنبياء بما جعلهم الله عليه وما أعدَّهم عليه من مقدرة وقوّة وإمكانات عقلية وروحية تستوعب المهمة والرسالة وتدركها إدراكا تاما لتتولى مهمة الأداء على الحقّ بالحقّ، ولذا لقد انعم الله على سيدنا إدريس باجتبائه نبيا؛ مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا}[138].

---

[135]- طه 25 . 36.

[136]- الصافات 109 . 112.

[137] - يوسف 19.

[138]- مريم 56 . 58.

فقوله تعالى: (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) تدل على أنّ اجتباء إدريس هو اجتباء أنبياء لأداء مهمة تستوجب أن تؤدّي بمن تتوفر فيهم اشتراطات وجوب أدائها.

ومع أنّ صفات الأنبياء والرّسل تتعدد إلا أنّها قد تُجمع في نبي من أنبيائه الكرام فهم جميعهم بُشرى خير، وهم من المصطفين الأخيار ولذلك لقد اجتبى الله تعالى إدريس وجعله على كينونة النبوّة نبيا.

3.إدريس من ذرية الاصطفاء:

قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}139.

إنّ إدريس بالنص القرآني كان صدِّيقا نبيا.

فأين اصطفاء إدريس من الذرية التي بعضها من بعض؟

. إنّ النصوص القرآنية لم تنص على أنه قبل نوح عليهما الصّلاة والسّلام.

. ليس هناك نص يدلّ على أنّه بعد نوح عليهما الصّلاة والسّلام.

. ليس هناك دليل يدلّ على أنّه قبل نوح عليهما الصّلاة والسّلام.

. هناك أكثر من دليل يدلّ على أنّه بعد نوح عليهما الصّلاة والسّلام.

. إدريس ثبتت نبوته بالنصّ القرآني.

. طالما أنّه نبي وجب أن يكون من الذرية التي بعضها من بعض في الاصطفاء.

[139] - مريم 56.

. لم يذكر أنّه اصطفي مفردا كما ذكر آدم ونوح عليهم الصّلاة والسّلام أجمعين.

. إذا لم يذكر في الاصطفاء مفردا، لابدّ أن يكون مصطفي ضمن الآل.

. هو للآل إبراهيم أقربّ منه للآل عمران.

. ذكر مرتين يتقدمه فيهما إسماعيل.

. مرة جاء مع إسماعيل كلّ منهما مفردا في آية.

. مرة جاء بعد إسماعيل وقبل ذي الكفل في الآية نفسها.

. ذكر الأنبياء في القرآن الكريم متسلسل في الزمن أمّا تصاعديا وأمّا تنازليا.

. في الآية التي ذكر فيها مع إسماعيل وذو الكفل، جاء ذكره بينهما.

. إن كان الذكر تصاعديا فهو بعد ذي الكفل وقبل إسماعيل.

. إن كان الذكر تنازليا فإسماعيل قبله.

. معلوم أنّ ذا الكفل من أنبياء بني إسرائيل وإن اختلف في اسمه.

وعلى ما تقدم: فإن إدريس عليه الصّلاة والسّلام على احتمالين:

أمّا أن يكون قبل نوح وأمّا أن يكون بعده، فإن كان قبل نوح عليهما الصّلاة والسّلام، وجب ذكره تنصيصا في الاصطفاء كما نص الاصطفاء على آدم ونوح أي أن يقال: إن الله اصطفي آدم وإدريس ونوحا، وهنا يكون القول الفصل وتنتهي القضية.

ولما لم يذكر إدريس نصا في الاصطفاء، فقد دخل الآل المصطفين كونه نبي، ولما كانت الآية على ما هي عليه (إن الله اصطفي آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) دخل اصطفاؤه في جملة الآل وهذا يعني أنه بعد نوح عليهم الصّلاة والسّلام.

ففي سورة مريم عند ذكر الأنبياء التي وردت، يبدأ الذكر برأس الآل بقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}[140]، وبعد ذلك في الآيات التالية يذكر الله تعالى الوهب الذي وهبه لإبراهيم وهو: إسحاق ثم تلاه يعقوب فموسى فهارون وهذا الفرع الأوّل من الذرية التي بعضها من بعض التي يدخل بها آل عمران ومريم وعيسى عليهم الصّلاة والسّلام.

فيتوقف عن ذكر ذرية هذه السلسلة عند هارون، ثم ينتقل إلى إسماعيل بقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}[141].

ومعلوم أنّ إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام هو الفرع الموازي للآل عمران من إسحاق، وهو الابن الأكبر لإبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام أجمعين، وبعد أن يورد الله تعالى بعض صفات إسماعيل، يأتي على ذكر إدريس بقوله تعالى: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) وهذا الذكر في السلسلة الثانية هو الآل المنحدر من إبراهيم إلى إسماعيل إلى محمّد عليهم الصّلاة والسّلام أجمعين.

وهنا أكثر من تساؤل مثل:

. ذكر إدريس بعد إسماعيل كما ذُكر يعقوب بعد إسحاق.

---

[140] - مريم 41.

[141] - مريم 54.

. ذكر إدريس مع إسماعيل يجب أن يكون له ما يبرره.

وعليه: يمكن أن نقول بداية مع التحفظ ريثما نسوق الأدلة، أن إسماعيل أسبق من إدريس، كما أن إسحاق أسبق من يعقوب.

ففي سورة الأنبياء أيضا نجد أنّ إسماعيل مقدما على إدريس يليه ذو الكفل بقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ}142، وهذا له أهميته من حيث ذكر الأنبياء في القرآن الكريم على التسلسل الزماني الذي نقف عليه من خلال الآيات تصاعديا أم تنازليا عندما يجتمع اسمين أو أكثر للأنبياء في آية واحدة أو آيات متواليات، ففي خطاب الله تعالى لنبيه محمّد: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}143.

لقد بدأ بآخر من أوحى إليه محمّد عليه الصّلاة والسّلام، ثم أردفه بأوّل من أوحى إليه وهو نوح عليه الصّلاة والسّلام، ثم النبيين من بعده:

. تنازليا: إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط.

. تصاعديا: وعيسى أيوب ويونس.

. تنازليا: هارون وسليمان وداوود.

ثُم إن موسى بالآية التالية معلوم بدلالة هارون.

142- الأنبياء 85.

143 - النساء 163، 164.

ثُم في هذه الآية عند قوله تعالى: (إنا أوحينا إليك كما أو حينا إلى نوح والنبيين من بعده) ومعلوم أن أوّل الموحى إليهم هو نوح وآخرهم محمّد عليهم صلاة والله وسلامه أجمعين، وجب أن يكون إدريس موحى إليه من بعد نوح، والله تعالى لم يوحي إلى آدم، لأن الله علّمه تعليما.

هذه الأدلة ترجح أن إدريس ليس بعد نوح فحسب، وإنّما بعد إبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام أجمعين.

ثُمّ أنّه من الأدلة على تسلسل الزماني وفق ما بيناه، إذا ذُكر المتقدم متأخرا، والمتأخر متقدما، يشير القرآن إلى ذلك دفعا للغموض ومنعا للبس كما في قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ}144.

نخلص ممّا تقدم أن إدريس عليه الصّلاة والسّلام، إن لم ينص القرآن على اصطفائه مفردا فهو ليس نبي، وهذا محال لثبوت نبوته.

وطالما أنه ثبتت نبوته بالنص فهو من المصطفين

ولما كان نبيا ولم يُذكر اصطفاؤه لا بعد آدم ولا قبل نوح، فإنه لا يخرج عن أحد الآلين:

. آل إسماعيل.

. آل إسحاق.

144 -الأنعام 84.

ولما اقترن ذكره مع إسماعيل في الموضعين وإسماعيل من آل إبراهيم، عليه يكون إدريس من آل إبراهيم سواء اقتربّ من إبراهيم أم تراخى عنه والله أعلم.

وهناك مسألة مهمة يغفل عنها الكثيرون في قضية القبل أو البَعد، والقُربّ أو البُعد بالنسبة للأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وهو جانب نفسي نتأثر به كثيرا.

إذا نظرنا نظرة عقلية إلى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام فإننا نجده موغل في القدم، غير أن علاقة الأديان السماوية بإبراهيم عامة والمسلمين خاصة تجعل له حضور دائم يختصر كلّ هذه المسافات الزمنية، ولذا من الجانب النفسي دون تفكر يتهيأ للبعض أن سليمان وداوود أقدم من إبراهيم لعدم التواصل معهما كما هو الحال مع إبراهيم.

ومن جانب آخر على هذا المقياس تبدو المسافة الزمنية في آل إسحاق أطول منها في آل إسماعيل وذلك بسبب كثرة أنبياء بني إسرائيل بسبب كثرة عصيانهم حيث نجد من السلسلة:

إبراهيم

أسحاق

يعقوب

يوسف

موسى

هارون

داوود

سليمان

أيوب

يونس

زكريا

يحيا

عيسى

بينما لا نجد مثل هذه السلسلة في آل إسماعيل وإن دخل فيها إدريس وهود وصالح ومحمّد وعليهم أجمعين.

إلا أنّ المسافة الزمنية من محمّد إلى إسماعيل هي أطول منها، من آخر نبي من آل إسحاق إلى إسحاق، بحوالي ستمائة سنة على الأقل ما بين عيسى ومحمّد عليهم الصّلاة والسّلام.

ولهذا، التواصل اليومي بيننا وبين أبينا إبراهيم جعل المسافات تتلاشى الأمر الذي قربّ إلينا إبراهيم زمنا وأبعد إدريس للسبب نفسه والله أعلم.

ثُم إنّ القول الفصل الذي يقطع قول كلّ خطيب في أنّ إدريس عليه الصّلاة والسّلام هو من ذرية إبراهيم آيتين في كتاب الله تعالى إحداهما جمعت بين نوح وإبراهيم قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا

وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوّة وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}145.

والثانية أفردت إبراهيم بقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوّة وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}146.

4. عليُّ المكانة:

المكانة هي التي يصل من يصل إليها وعندما تكون المكانة على الطاعة والهداية والرّحمة مرضاة لله تعالى يكون صاحبها في علوٍ، أي على المراتب العليا التي يأملها الصالحون المصلحون.

ولأنّه لا عليَّ إلا من آمن بالعليِّ المطلق، لذا، كان إدريس مؤمنا بالعلي المطلق حتى استمد صفات العلو منه؛ فكان من العلّيّين الكرام، ولأنه كذلك زاده العلي تعالى علوا وذلك برفعه إلى المكانة العليا التي ارتضاه الله أن تكون لإدريس الذي اجتباه نبيا صدّيقا قال تعالى: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}147.

ولأنّه لا عليِّ بالمطلق إلا الله عزّ وجلّ لذا علينا أن نعود إلى اللغة وما فيها من دلائل على الاسم العليّ لنعرفها ثم لنتعرَّف على ما يترتب عليها من أفعال وأعمال حِسان ومن هذه الدلائل:

ـ الدليل الأوّل:

الله بوصفه العلي في الأصل وما دونه العلي بالإضافة.

---

[145] – الحديد 26

[146] – العنكبوت 27

[147] – مريم 57.

. الدليل الثاني:

ما يخص الخليفة وهو العلي بالإضافة وفي هذه المرتبة يندرج الأنبياء ومن سار على نهجهم الذين تواضعوا لله فرفعهم الله وألبسهم ثوب العلو والرفعة.

. الدليل الثالث:

تخص الأشقياء المتكبرون الذين أرادوا أن يتصفوا بهذا الوصف بالتجبُّر والبغي والقهر والظلم فقسمهم الله ولعنهم وطردهم من رحمته.

الْعَلِيُّ لغَةً:

من أسمائه تعالى العليُّ، فالعليّ الذي ليس فوقه شيء وعلا الخلق فقهرهم بقدرته، ويكون بمعنى العالي الذي لا يعلوه أحدا سبحانه فوق كلّ شيء.

فالعلي من حيث المعنى يتضمن الأعلى والعالي فهو يفوقهما لأنّه ليس هناك من صفة تدل على الرفعة والعلو المتناهي إلا العلي.

والله عزّ وجلّ هو العَليّ تَعالى عَمَّا يقول الظالمون عُلُوّا كبيرا، والعلي هو الذي يُدرَك عقلا ومعرفة ولا يُرى بالأبصار وذلك لتناهيه في العلو والرفعة، ومع أنّه لا مثيل له في شيء، إلا أنّ صفات علوه تستمد ويستخلف بها في الأرض، ويُورَّث بها في الجنّة، ولذا فمن يستمد صفاته منه لا يدخل النّار أبدا.

ولأنّ العلي مصدر لكلّ علو، فهو ما يدلّ على الرفعة في القول والفعل والعمل، وهو على كلّ شيء قدير، ولذا فهو الفعَّال لما يُريد. فالعليّ الذي ليس فوقه شيء وعلا الخلق فقهرهم بقدرته، وهو الأعلى الذي هو أعلى من كلّ عال.

ولأنّه العلي المطلق فهو القادر على أن يعلو بمن يشاء علوا كما شاء العلو بسيدنا إدريس (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا).

وعليه: فمن يكون مرفوعا بأمر العلي المطلق يكون فائزا برحمة من رحمة الله الواسعة.

والعلي بالإضافة: هو المستخلف بعلوه في الأرض عن كلّ نقيصة قولية أو فعلية، وذلك بإتباع ما أمر به العلي المطلق والانتهاء عما نهى عنه إيمانا تاما وقصدا واضحا لا يصاحبه تردد ولا شك. وهو المصلح في الأرض، الممتنع عن الفساد وسفك الدماء فيها بغير حق، ويجاهد بنفسه في سبيل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل. ولذلك فمن يعلو في الأرض بغير ذلك طغى وتكبر، مصداقا لقوله تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا}148.

والعُلُوُّ العَظَمة والتَّجَبُّر، قال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}149. تلك الدار إشارة للجنة وفخامتها وعظمتها التي سيرثها بالحقّ الخلفاء في الأرض، وهم الذين يريدون العلو في الجنّة ولا يردون علوا في الأرض، وذلك لأنّ العلو في الجنّة لا يتحقق إلا بطاعة تامة وتواضع في الأرض، ولهذا فمن تواضع لله رفعه، ومن افسد فيها لا ينال جزاءا ولا شكورا قال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ

148 - الإسراء 4.

149 - القصص، 83، 84.

فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}150. ولهذا؛ فالعاقبة للمتقين الذين آمنوا ولم يشركوا وانتهوا فتابوا وهم الذين استثناهم الله تعالى من العقاب والعذاب فغفر لهم ورحمهم بواسع فضله، ورفعهم إليه كما هو حال سيدنا عيسى أو رفعهم إلى أيّ مكان من أمّاكنه العليا كما هو حال إدريس، وفي مقابل ذلك لا ينال عهد الله الظالمين {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ أمّامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}151.

يُفهم من هذه الآية الكريمة إن الظلم هو الاستثناء والعدل هو القاعدة والحمد لله ربّ العالمين، ولذا {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}152.

ولأنّ العلي العظيم هو الذي رفع إدريس مكانا عليا (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) فهو الذي كان حافظا له في ذلك المكان مع فائق العظمة والعلو والرفعة التي هي أعظم من أن نتصورها خاصة وأنها في رعاية من لا تأخذه سنة ولا نوم مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

[150] – المائدة 32 . 34.

[151] – البقرة 124.

[152] – القصص 84.

الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}153. جاءت خاتمة هذه الآية الكريمة بقوله عزّ وجلّ: (وهو العلي العظيم) وكأن هذه إجابة على تساؤل ضمني مفاده من هو الله؟

. هو العلي العظيم.

. من هو الذي لا إله إلا هو؟

هو العلي العظيم.

. من هو الحي القيوم؟

هو العلي العظيم.

. من الذي لا تأخذه سنة ولا نوم؟

هو العلي العظيم.

. من الذي له ما في السماوات وما في الأرض؟

العلي العظيم.

. من ذا الذي لا يُشفِع عنده إلا بإذنه؟

العلي العظيم.

من ذا الذي يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ؟

العلي العظيم.

---

[153]– البقرة 255.

ـ من ذا الذيَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ؟

العلي العظيم.

ـ من ذا الذي وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟

العلي العظيم.

ـ من ذا الذيَ لَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا؟

العلي العظيم.

ـ ومن هو العلي العظيم؟

هو (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وهو العلي العظيم). ولذا هو هو، لا إله إلا هو.

وعليه نقول:

إنَّ نبي الله إدريس هو في رعاية آية الكرسي رفعة وقدرا ومكانة فهو في رعاية وعناية من لا تأخذه سنة ولا نوم (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال، ولهذا فإن إدريس في علوه الذي رفعه الله إليه دائما في رعاية الحي الدائم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

ثمّ نجد أنّ هناك فريقين من النّاس:

الأوّل: الذي سار في طاعة الله وهم الأنبياء والرّسل والصالحون والأوّلياء الذين تولوا الله ورسله وهؤلاء تتحقق فيهم وبهم الخلافة التي أنزل الله آدم وذريته الأرض بسببها وهذا الفريق يتواضع للعلي العظيم في الدنيا فيرفع الله قدرهم في الدنيا والآخرة.

الثاني: الذي سار في طريق المعصية والعلو على الأمر الإلهي والتكبُّر على الخلق البسطاء بقهرهم وبسط النفوذ الكاذب عليهم وإرهابهم لمنازعة الله في صفة لا تحق له وهي العلو والكبر.

لذلك فإَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ"154.

فالفريق الأوّل؛ فريق الحقّ أي فريق الخلافة الذي يتواضع لله وفي الله ولله ويعلو بالله ولله كما فعل إدريس من أفعال الخير الحسان حتى رفعه الله رفع المكرَّمين المفضلين.

والخليفة المتحقق بنور العلي يقهر المتغطرسين المتكبرين ويقهر كذلك أذيالهم الداعين بدعوتهم المبشرين بفسادهم وكسادهم الذين يستعلون بالمال أو السلطة أو الجاه ولا يعرفون أن العلي هو الذي على كلّ شيء قدير وهو الذي يرفع من يشاء درجات عليا.

والعلي ذو المكانة التي لا تطال والقدرة التي لا تغفل ولا تبطل، بيده القوّة التي بها يملك كلّ شيء ويقهر وسيطر على كلّ شيء سبحانه لا إله إلا هو، وله ملك لا ينازعه فيه أحد من خلقه.

154- مسند أحمد، ج 23، ص 344.

ولأنّ الله هو العلي رفع إدريس إلى المكانة العليا تمييزا وتفضيلا له عن غيره من الذين لم يفعلوا ما فعل إدريس من طاعة وتصديق وصبر، وفي هذا درس عظيم أمّام الخلق فمن أراد أن يكون مع العليين فبإمكانه وإن كان يريد أن يكون في أسفل السافلين فبإمكانه ولكلّ ثوابه وعقابه.

وعليه: فالعلو رفعة لا يصلها إلا الصالحون والصدِّيقون والأنبياء والرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم، وهكذا كذلك دائما العلو في حالة تحقق معهم كما تحقق لسيدنا إدريس عليه الصّلاة والسّلام بأن رفعه الله (مكانا عليا). وعن سيدنا إسماعيل وهبه الله (لسان صدق عليا)؛ وورد مع المفسدين بصيغ مشتقة منه مثلما ورد في قصة إبليس الذي استعلى بجنسه واستكبر على الأمر الإلهي فكان من المطرودين الملعونين. ومع أعوانه مثل قارون الذي استكبر بالمال الذي وهبه الله له فقال في كبر: إن هذا المال قد حصل عليه من علم عنده ناسيا أو متناسيا أن الله وهبه العقل الذي يتحصل به على هذا العلم وإن شاء حرمه منه، وكان جزاؤه أن خسف الله به وبداره الأرض، وهنا تمنى الذين رغبوا في العلو الوهمي المبني على العلم الفاسد والمال الزائل يا ليت لنا مثل هذا العلو، أمّا الذين آمنوا فأنذروا هؤلاء المتكبرين أنّ الويل لمن سار على مثل منهج قارون في العلو والغلو وأعلموهم بأنّ ثواب الآخرة للمتواضعين وهو خير الثواب لمن أراد الفوز بالمقام الأسمى الأعلى المفاض من العلي الأعلى للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، وأن العاقبة الحسنة والنهاية المفرحة للمتقين المتواضعين وهذا جزاء الحسنة التي قدموها بعدم علوهم في الأرض، وهذا ما صوره القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ

هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قوّة وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُط الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}155.

أمّا فرعون الذي علا بملكه وجحد نعمة الملك التي وهبها الله له فحاربّ النبي موسى واتهمه بالسحر وجمع له السحرة ليستعلي بهم على النّاس وعلى نبي الله وعلى الله بادعاء إنه إله؛ فكانت عاقبة أمره خيبة وخسارة فقسمه الله قال الله تعالى: {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النّاس ضُحًى فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى}156.

155 – القصص 78 . 84.

156– طه 57 . 64.

إذا فالعليُّ الله وحده لا شريك له، ومن سار وفق إرادته هم الأنبياء والصالحون الذين ارتضاهم الله خلفاء في الأرض ورفعهم درجات عظيمة كما هو حال سيدنا إدريس، أمّا من تجبّر وعصى كان من المفسدين الذين ساروا على نهج إبليس في الاستعلاء بالجنس، أو نهج قارون الذي استعلى بالمال والعلم الذي لم يؤتى منه إلا قليلا، أو نهج فرعون بالاستعلاء بالملك فهؤلاء ومن شابههم في المعصية والاستكبار والعتو لابدّ أن تحل عليهم لعنة الله.

ولأنّ الاستعلاء على غير حق منهي عنه فقد أرسل الله الرّسل ليحذروا وينذروا من هذا الذنب والجرم الخطير لأن الملك والعلو لله العلي في الملك والملكوت، قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمن وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}157.

والخليفة من عباد الله المخلصين الذين لا يستكبرون بانتماء قبلي أو بلون أو جنس ولا بمنصب زائل أو بمال يميل ولا يثبت في اليد ولا بعلم يُتَكَبَّرُ به على الخلق، وإنما يمتلك كلّ هذه الوسائل ليعلو بها للحق ويبطل بها الباطل ويجعل أهل الباطل من الصاغرين الأذلاء لأنهم استعلوا بما ليس لهم وأرادوا أن يلبسوا ثوبا ليس لهم بل هو لله العليّ الأعلى المتعالي ذو العلاء والكبر والعظمة.

---

157 - الأنبياء 25 . 29.

والخليفة المتحقق بالاسم العلي يرفض نهج أوّلئك الفاسدين الذين علوا فسادا بما ليس لهم فالمال مال الله والملك ملك الله، والله أعلم بأي صنف من الخلق أفضل، فالخليفة إن كان عنده المال والملك والعلم فهو يعلو بهذه النعم لله ولا يعلو بهذه الأدوات التي منحها الله له على الخلق، وإنما يوظفها جميعا لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض.

قال الله تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرّحمن أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}158.

إذا فالاسم العليُّ لله عزّ وجلّ لا ينازعه فيه أحد من خلقه ومن نازعه هذا الاسم قسمه الله، ومن أطاع الله وسار على منهجه وكان مطيعا له تحققت له الرفعة عند العلي الأعظم ويُرفع إلى الدرجات العظيمة التي فيها الفوز في الدارين كما فاز إدريس برفع الله له مكانا عليا، وهكذا فمن اتبع هدى الله وكان طائعا وعاملا للخير ومكثرا له يكون من المستخلفين فيها ومن الوارثين كما كان إدريس وارثا برحمة الله التي رفعه إليها، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}159.

إدريس عليه الصّلاة والسّلام هو الذي رفعه العلي المطلق مكانا عليا، والمكان العلي: شرف النبوّة والزلفي عند الله، إنه مكان المكارم الشرفية التي تبوءها إدريس بالتصديق لله تعالى، إذن مكان العلو هو مكان المقامات العظام، والمكان العلي لا يمكن أن يكون في دنيا بل لابدّ أن يكون في علوٍ وأينما يكون العلو والرفعة بمرضاة الله فهو

158- الإسراء 110.

159- مريم، 56، 57.

اللائق بإدريس سواء أكان في السماء أم أكان في أي مستوى من مستويات السماوات العلى أم أكان في الجنّة.

ولذا؛ فإدريس خليفة كونه نبي يعلو عن الركون إلى الأمّاكن الدنيا الواطية ويبتعد عن الأقوال المفسدة التي تفرّق بين الزوج وزوجه، ويبتعد عن الأعمال التي تُفسد في الأرض أو تُسفك الدماء فيها بغير حق، ولذا فالخليفة دائما في حالة اجتناب لكلّ ما هو منهي عنه، وهو دائما لا يغفل فإن أخطأ استغفر وكفّر عن سيئاته وتاب إلى الله ربّه العلي الذي يتعالى عن النقيصة والولد والصاحبة والظلم. والخليفة بنيته يتوكلّ على الحقّ حتى يحقه ويقدم إلى الظلم حتى ينهيه ويُخلّص العباد منه وهكذا يُحق الحقّ ويُزهق الباطل وحده لا شريك له جل وعلى.

وعليه: عندما يرفع الله إليه رسولٍ من رُسُله كما رفع إدريس لم يكن في حاجة له بل لأجل تكريمه على ما قَدِم عليه من أفعال حِسان ولهذا فالله هو المتعالي عن كلّ حاجة وهو الذي بيده أسباب إشباع الحاجات مهما تعددت وتنوعت واختلفت إنه المتعالي الكريم الذي بيده الأمر والنّهي.

وعليه الله عليٌّ فيغفر ويرحم ويكفّر عن السيئات ويجازي بالجنّة، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما ربّك بظلام للعبيد فهو العادل في ملكه سبحانه، ولذا فالذين لا يريدون علوا في الأرض هم الخلفاء فيها بالصفات الآتية:

الإيمان: قال تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}160، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ

160– النساء، 57.

الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأوّلِئكَ يَدْخُلُونَ الجنّة وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}161 وقال تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأوّلئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}162.

الإصلاح: قال تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أوّلئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}163، وقال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النّاس وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا وَمَنْ يُشَاقِقِ الرّسول مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}164.

العدل: قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}165، وقال تعالى: {وَإِنْ تَعْدِلْ كلّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أوّلئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}166. وقال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}167.

---

161 – النساء 124.

162 – الإسراء 19.

163– البقرة، 82.

164– النساء، 114 . 116.

165 – البقرة 48.

166 – الأنعام 70.

167 – النساء 58.

الأمر بالمعروف: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}168، وقال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}169

النهي عن المنكر. قال تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ}170، وقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}171 وقال تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}172.

إحقاق الحقّ: قال تعالى: {وَلَا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}173، وقال تعالى: {قُلْ جَاءَ الحقّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}174. وقال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الحقّ

---

[168] - البقرة 178.

[169] - آل عمران 104.

[170] - الأعراف 165.

[171] - آل عمران 110.

[172] - الحج 41.

[173] - البقرة 4.

[174] - سبأ 49.

بِكَلِّمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الحق وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}175.

وعليه: فإنَّ الحقّ واحد لا يتعدد176، ولهذا فالمستخلفين فيها هم الذين يهدون إلى الحقّ، ويرشدون إلى الصراط المستقيم177.

وعلى الخليفة أن يتقي الحقّ في قوله وعمله وأن يبين الحقّيقة، ويميز الحقّ من الباطل، فينهى عن دعاء غير الله، وينفي عن الخلق القدرة على النفع والضر المطلق، ويوضح أن من دعا غير الله، ورجا منه النفع المطلق، ودفع الضر فقد أشرك178

الحقّ: "هو المستحق لأنّ يعبد ويطاع ويعظم، لا إله غيره ولا ربّ سواه"179.

إذا الحقّ هو قول الحقّ. ولهذا فالله هو الحقّ وقوله هو الحقّ قال تعالى: {قَالُوا مَاذَا قَالَ ربّكُمْ قَالُوا الحقّ}180.

وعلى مستوى المستخلفين في الأرض، قال الشاعر:

يا نفسُ فازَ الصالحون بالتُّقى... وأبصرُوا الحقّ وقلبي قد عُمي

يا حسنهُم والليل قد جنَّهم... ونورهم يفوقُ نورَ الأنجُمِ

175- الأنفال 7، 8.

176 قصيدة ابن الأشعث، ج 1، ص 62.

177 الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة، ج 1، ص 27.

178 رسالة التوحيد، ج 1، ص 104.

179 بيان التوحيد الذي بعث الله به الرّسل جميعا وبعث به خاتمهم محمّدا عليه السلام، ج 1، ص 11.

180 سبأ 23.

ترنّموا بالذكر في ليلهم... فعيشهم قد طاب بالترنُّمِ

قلوبهم للذكر قد تفرّغت.. . دموعهم كلّؤلؤٍ مُنظَّمِ

أسحارهم بهم لهم قد أشرقت... وخِلعُ الغفران خيرُ القِسَمِ[181]

وعليه فالحقّ يستوجب القول فهو شهادة لا تكتم. قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آَثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[182]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ}[183]

ولأنّه صفة تنزيه قال تعالى: {وَآَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أوّل كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[184]. (وامنوا بما أنزلت مصدقا) الذي أنزله هو الحقّ، وهنا يعد الحقّ فعل وصفة لموصوف بالفعل المسمى به. ثم جاء الأمر في قوله: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، هذه الآيات الكريمة السابقة جاءت دالة على الحقّوق الآتية:

. الصلاة حقّ.

---

[181] اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، ج 1، ص 14.

[182] البقرة 283.

[183] البقرة 159.

[184] البقرة 41 . 44.

. إيتاء الزكاة حقّ.

. الركوع للحق حقّ.

. إتباع البر حقّ.

. تلاوة الكتاب حقّ.

. العمل بما جاء في الكتاب حق، مصداقا لقوله: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أي أفلا تدركون الحقّ وهو بيّن بين أيديكم كما نزل، ومن يدرك الحقّ ليس له بدّ إلا أن يعمل به، أي أنّ تبيانه لأجل الأخذ به قول وفعل وسلوك وتشريع.

ولأنّ الكتاب جاء به الرّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه تنزيل من الحقّ العزيز، فإن ما جاء به الرّسول هو الحقّ الواجب أخذه، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}185.

نعم الحقّ هو الله وهو أيضا أمر النبي وما جاء به من الحقّ وهو القرآن الكريم، أمّا أهل الباطل فقد كذبوا بالقرآن وهو كلّام الله الحقّ وكذبوا النبي وهو الحقّ، ويمثل أهل الباطل في عهد النبي اليهود ومن شاكلّهم ويمثلهم الأن من سار على نهجهم في رفض الحقّ بطرا وحقدا من عند أنفسهم فيقول الحقّ تعالى في كتابه الحقّ: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا

[185] الحشر 7.

بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}186.

وأهل الباطل من أهل الكتاب رفضوا أمر النبي لأجل المال والسلطة الدنيوية وقد قال الله عزّ وجلّ في كتابه لهم: {وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوّل كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}187، ولكن هذا الموقف الرافض للحق لم يكن له مبرر منطقي يبرره إلا الحقّد والحسد اللذين هما منطق الضعيف الذي لا حجّة له، مع تمنيهم أن يعود أصحاب الحقّ وأهله عن حقهم ويرتدوا إلى الجهل والباطل الذي يتمثل في الشرك بالله وعبادة أحجار وأصنام وخلقٍ من خلق الله لا ينفعون أنفسهم ولا يضرون غيرهم، قال تعالى: {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَاما عَلَى إِبْرَاهِيمَ}188. وهكذا فهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ وَإِذَا تُتْلَى

---

[186] البقرة 39 ـ 46.

[187] البقرة 41، 42.

[188] الأنبياء 59 ـ 69.

عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوّلِينَ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحقّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}189 نعم هو الحسد ولا غيره كما قال الله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحقّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}190.

وفي معركة الإيمان ضد الكفر معركة الحقّ ضد الباطل يقذف الله بالحقّ على الباطل فيزهقه ويبطله، وأساس هذه المعركة ومن أوّل أسبابها أن قال أهل الباطل زورا وبهتانا إنّ لله زوجة أو ولدا أو أنّ له شريكا في الملك والإلهية وكلّ ذلك باطل يرده الله بقوله الحقّ فيقول تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ ممّا تَصِفُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ ربّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الحقّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ}191.

---

[189] الأنفال 30 ـ 33.

[190] البقرة 109

[191] الأنبياء 16- 24.

الحقّ لا يحقه إلا الحقّ، والباطل لا يسنده إلا باطل، ولذا فالفرق كبير بين من يتصف بالحقّ حتى يسمى به ويتصف وبين من يرتكب الباطل حتى يتصف به، وإذا أوضحنا ذلك فإن (الحقّ لا يحقه إلا الحقّ) يعني:

ـ الحقّ الأوّلى في الجملة السابقة: يدلّ على التصاق الفعل بفاعله.

ـ والحقّ التالية في الجملة السابقة، يدلّ على المصدر الذي يُستمد الحقّ منه.

ـ وكلّمة التوسط بين الحقّين (لا يحقه) تدل على أنّ الحقّ لا يستطيع إحقاقه هو كما هو إلا الحقّ الذي استمد منه.

وفي المقابل لما ذكرنا جاءت الجملة التالية: (الباطل لا يسنده إلا الباطل)، وهذه الجملة هي الأخرى حق، ولكنها ليست الحقّ الذي جاء بالحقّ، فالباطل الأوّلى في جملة ما بين القوسين السابقين، هي الباطل هو كما هو في ذاته. والباطل التالي للباطل في ذات الجملة، هو: الفاعل للفعل الباطل، وهو الذي لا تسنده حجّة حقّ.

وقوله عزّ وجلّ: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) معناه ما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو، وسويناهما لفوائد منها التفكر في خلقهما وما فيهما من العجائب والمنافع التي لا تعد ولا تحصى (لو أردنا أن نتخذ لهوا) اللهو ضياع الوقت في غير ما يجب، (لاتخذناه من لدنا) من عندنا باعتبار كلّ شيء بيده فهو يستطيع أن يفعل ما يشاء كما يشاء، ولكنه فعل كلّ شيء لغاية ولهذا لم يكن لا عبا بالشيء المخلوق من عنده، وهناك من فسر هذا الأمر في اتجاهات أخرى كما هو حال ابن عباس، ونحن لا نفسره بذلك، وهناك من فسره بما في

معناه لو كان ذلك جائزا في حقنا لم نتخذه بحيث يظهر لكم بل نستر، ذلك حتى لا تتطلعوا عليه، وذلك أن النصارى لما قالوا، في المسيح وأمه ما قالوا رد الله عليهم بقوله لاتخذناه من لدنا لأنكم لا تعلمون أنّ ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره (إن كنا فاعلين) يعني ما كنا فاعلين، وقيل ما كنا ممن يفعل ذلك لأنه لا يليق بالرّبوبية بل يعني دع ذلك الذين قالوا فإنه كذب وباطل، (نقذف) يعني نرمي ونسلط (بالحقّ) يعني بالإيمان الذي لا يُبطل دليلا وحجّة (على الباطل) يعني على الكفر بالحقّ، وقيل الحقّ قول الله أنه لا ولد له والباطل قولهم اتخذ الله ولدا (فيدمغه) فيهلكه والدمغ هنا ليس مادي حتى يسيل الدم منه، ولكن تشبيه بليغ بين قوّة الحجّة وفعل صاحبها في دحض الباطل الذي لا يقدر الصمود في مواجهة الحقّ، ولذا فالمتصف بالحقّ متصف بالقوّة القاهرة للباطل فلا يخاف، والحقّ لابدّ أن يحقّ.

(فإذا هو زاهق) الزهق إبطال والزاهق هو المتولي، والفار من الاستمرار في المواجهة، واللعنات تلاحقه من كلّ جانب، والمعنى أن الله يبطل كذبهم بما يبين من الحقّ حتى يذهب ويضمحل ولا يبقى في ميادين المقارعة إلا الحقّ ثابت لا تهزه الرياح ولو أتت من كلّ جانب ومهما عتت فإن الحقّ باق.

ثم أوعدهم على كذبهم فقال تعالى (ولكم الويل) يا معشر الكفار والمشركين (ممّا تصفون) الله بما لا يليق من عدم القدرة أو الصحابة والولد (وله من في السماوات والأرض) يعني عبيدا وملكا وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم (ومن عنده) يعني الملائكة وإنما خص الملائكة وإن كانوا داخلين في جملة من في السماوات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم وهم الذين بإيمانهم به وأحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن

له شريك في الملك (لا يستكبرون عن عبادته) يعني لا يتكبرون ولا يتعظمون عنها (ولا يستحسرون) يعني لا يراودهم الندم في أنفسهم من طاعة الحقّ وعبادته فهم لا يعيون ولا يتبعون، وقيل لا ينقطعون عن العبادة ثم وصفهم الله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) لا يضعفون ولا يسأمون ولا ينقصون شيء في عبادتهم له وتسبيحهم بأسمائه وصفاته الحسان، وذلك أن تسبيحهم متصل دائم لا يفتر في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو شغل أخر قال كعب الأحبار التسبيح لهم كالنفس لبني آدم {أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ}[192] يعني الأصنام من الحجارة والخشب وغيرهم ممّا يتخذون شركاؤهم يعتقدونها تقربّهم إليه زلفي قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوّلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ قُلْ إِنَّ ربِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أوّلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِبّكُمْ عِنْدَنَا زُلْفي إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأوّلئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أوّلئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ قُلْ إِنَّ ربِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}[193] وقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أوّلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِبّونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفي إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فيما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى ممّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الواحد الْقَهَّارُ خَلَقَ

---

[192] الأنبياء 21.

[193] سبأ 34. 39.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كلّ يَجْرِي لِأجل مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}194.

وقوله: (هم ينشرون) يعني يحيون الأموات إذ لا يستحق الإلهية إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد بأبلغ وجوه النعم، وهو الله عزّ وجلّ (لو كان فيهما) في السماء والأرض (آلهة إلا الله لفسدتا) بالتأكيد لو كان هناك شريك أو شركاء لكان لكلّ شريك حصة، وله في كلّ حصة رأي، ممّا يظهر الخلاف، ويؤدّي إلى الخصام والنزاع وهذه الصفات صفات بشرية لا علاقة لها بالصفات الرّبانية، والحقّ دائما وأحد أحد لا يمكن أن يكون أكثر من ذلك، فإن زاد عن الواحد ظهر الخصام، والواحد الأحد لم يكن طرفا في مواجهة آخرين بل هو الواحد الذي خلقهم جميعا والحمد لله إنه الواحد الأحد الذي لم يكن له شريك في الملك، ولم تكن له الصاحبة والولد.

كلّ أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام المطلق، والحقّ في قوله مطلق وفي فعله مطلق وفي واحديته مطلق، وفي هذا الأمر قال الأمّام فخر الدين الرازي: "القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال، فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالا، وإنما قلنا إنه يفضي إلى المحال لأنا لو فرضنا وجود إلهين، فلابدّ وأن يكون كلّ وأحد منهما قادرا على كلّ المقدورات، وهذا محال"195.

وإبطال الحقّ يكون بكلّمة صغيرة لا قيمة لها يتلقفها أهل الباطل فيغرسونها في أرض الزور والبهتان والكذب وهذه لا يمكن أن تنبت

---

194 الزمر 2. 4.

195 تفسير الخازن، ج 4، ص 392.

شجرة مثمرة، ومن ينتظر ثمارها فليس له من المجاعة والفاقة فك، ولا من الموت مفر، وهذا الأمر الذي يفضي إلى نشر الباطل ومحاربّة الحقّ قد نبّه الله عليه في كتابه الكريم بقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}196.

نعم فقد كبرت كلّمة الباطل وتعاظم إفكها وزورها وكذبها، لذلك قد وضّح النبي خطورة قول الكذب والزور وجعله من أكبر الكبائر: فعَنْ عَبْدِ الرّحمن بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ "أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ"197.

عَنْ عَبْدِ الرّحمن بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لَا يَسْكُتُ"198.

فأكبر الزور نما من كلّمة صغيرة من أفواه أهل الباطل بأن ادعوا للرحمن ولدا، وصاحبة، وغير ذلك من الإفك والكذب، ومن الزور

---

196 الكهف 1– 5.

197 صحيح البخاري – ج 9، ص 136.

198 صحيح البخاري، ج 18، ص 372.

كتمان الحقّ، وقلنا أن الله الحقّ هو الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

والله أرسل الرّسل لتصحيح الزور ونقض الباطل الذي أعلاه الكفر والشرك وجاءت رسالة الإسلام لتعيد البشرية إلى الفطرة السليمة بإعلان أن الله وأحد أحد وهذا يظهر من أوّل ما يبدأ به الإنسان بالدخول في الإسلام فإنه يقول: (أشهد ألّا إله إلا الله وأشهد أن محمّد رسول الله) وهذا قول الحقّ وذروته، ثم يتأتى الاعتراف والإقرار بباقي الحقّوق التي منها أن الأنبياء حق والموت حق والساعة حق والملائكة حق، ولكن من أكبر الزور والافتراء الكذب على الله والكذب على الأنبياء، قال الحقّ تبارك وتعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}[199].

قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كلّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ

[199] الأنعام 20، 21.

الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}200.

وعليه فإنّ أشد النّاس عنادا وأخطئهم فعلا وأعظمهم كفرا من اختلق على الله كذبا فزعم أنّ له شريكا من خلقه وإلها يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الأصنام، أو ادعى أن له صاحبة وولدا كما قالت النصارى أو كذب بآياته، التي تعد حجّة حق على أمر واقع، كما كذبت اليهود بمعجزات الأنبياء وقيل معناه أو كذب بآيات القرآن الذي أنزله على محمّد (إنّه لا يفلح الظالمون) أنّه لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون على الله الباطل201.

وفي ذات السياق يقول الحقّ جلّ وعلا: {يَا بَنِي آَدَمَ أَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآَيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}202.

ومدلول "حقّ" لها معان عدّة ومن ذلك ما ورد في الكتاب الكريم، في قوله تعالى: (قال الذي حَقَّ عليهم القولُ) أي ثبت، وقوله تعالى (ولكن حقَّت كلّمة العذاب على الكافرين) أي وجبت وثبتت وكذلك (لقد حقَّ القول على أكثرهم) وحَقَّ الأَمرَ يَحُقُّه حقّا وأحقَّه

---

200 الأنعام 20 . 26.

201 تفسير الخازن – ج 2، ص 378.

202 الأعراف 35- 37.

كان منه على يقين تقول حَقَقْتَ الأَمر وأحْقَقْته إذا كنت على يقين منه203.

والحقّ في معناه ما يعاكس معنى الباطل دلالة وإرشادا، وفي التنزيل: {ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقّ} وقوله تعالى: {ولو اتبع الحقّ أهواءَهم}، الحقّ لا يعرف إلا بأنه الحقّ، سواء أسم أو صفة أو فعل، ولهذا فللحق دائما الصفات الحسان، والحقّ أيضا يتوحد مع الذات ويتوحد مع القول ويتوحد مع العمل ويتوحد مع السلوك ويتوحد مع الفعل، وعندما يتم التوحد به يأخذ المتوحد به صفة الحقّ الذي لا يتبدل (هو كما هو) ولذا فإن الله الحقّ مطلق، وقوله مطلق وفعله مطلق، وقوله تعالى (وجاءت سَكْرة الموتِ بالحقّ) معناه جاءَت السكرةُ التي تدل الإنسان أنه ميت بالحقّ بالموت الذي خُلق له، وروي عن أبي بكر رضي الله عنه وجاءت سكرة الحقّ أي بالموت والمعنى واحد وقيل الحقّ هنا الله تعالى وقولٌ حقٌّ وُصِف به كما تقول قولٌ باطل، وقوله تعالى: (ذلك عيسى بنُ مريم قول الحقّ) إنّما هو على إضافة الشيء إلى نفسه، وفي الحديث أنه أعطى كلّ ذي حَقّ حقّه ولا وصيّة لوارث أي حظَّه ونَصِيبَه الذي فُرِضَ.

وكلّ ما كان في القرآن من نَكِرات الحقّ أو معرفته أو ما كان في معناه مصدرا فوجه الكلاّم فيه النصب كقول الله تعالى وَعْدَ الحقّ ووعدَ الصِّدْقِ.

والحقّيقَةُ ما يصير إليها حَقُّ الأمر ووجُوبُها وبلغ حقيقةَ الأمر أي بلغ اليَقِينَ في الحقّيقة204.

---

203 لسان العرب، ج 10، ص 49.

204 المصدر السابق.

والحقّيقة تعني ظهور الحقّ بشكلّ جلي ولذلك لا يبلغ المرء الحقّيقة إلا بحب الحقّ وقول الحقّ وعمل الحقّ والإيمان بالحقّ.

والحقّيقة هي كما هي كاملة قد لا يكون بلوغها بالكمال ولكن بلوغها وفقا لدائرة النسبية، وفي الحديث: "لا يبلُغ المؤمن حقيقةَ الإيمان حتى لا يَعِيب مسلما بِعَيْب هو فيه" وهذا يدلّ على خالِصَ الإيمان ومَحْضَه وكُنْهَه وعن حقيقة الإيمان ممّا ورد عن رسول الله الكثير لأن الإيمان الحقّ يصل بالمرء إلى معرفة الحقّ ومن قول النبي في ذلك: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيّ قَالَ: "لِكلّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ"205.

عن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله: "من قال حين يمسي: رضيت بالله ربّا وبالإسلام دينا وبمحمّد رسولا، فقد أصاب حقيقة الإيمان"206.

وعن ميمون أبي عمر، قال: "لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء، وإن كان محقا"207.

وعن عمرو بن الحمق قال: قال رسول الله: "لا يحق العبد حقيقة الإيمان حتى يغضب لله، ويرضى لله، فإذا فعل ذلك فقد استحق حقيقة الإيمان، وإنّ أحبائي وأوّليائي الذين يذكرون بذكري، وأذكر بذكرهم"208

205 مسند أحمد – ج 56، ص 26.

206 مصنف ابن أبي شيبة – ج 7، ص 42.

207 الإبانة الكبرى لابن بطة – ج 2، ص 157.

208 المعجم الأوسط للطبراني – ج 2، ص 161.

قال الحسن: "ابن آدم كيف تكون مؤمنا ولا يأمنك جارك؟ ابن آدم كيف تكون مسلما ولا يسلم النّاس منك؟ ابن آدم لن تصيب حقيقة الإيمان في قلبك حتى لا تعيب النّاس بعيب هو فيك، حتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيبا إلا وجدت آخر، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة بدنك، وخير عباد الله من كان كذلك"[209].

وقال رسول الله: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وألّا يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النّار"[210].

وعن أنس بن مالك أنّ رسول الله قال: "ثلاث من كن فيه فقد ذاق طعم الإيمان من كلّ شيء أحب إليه من الله ورسوله ومن كان أن يحرق في النّار أحب إليه من أن يرتد عن دينه ومن كان يحب لله ويبغض لله"[211].

حَدَّثنا سَعِيد بْنُ سِنَانٍ، عَن أَبِي الزَّاهِرِيَّةِ (عَنْ كثير بن مرة)، عَن ابن عمر بن الخطاب، عَن النَّبِيِّ قَالَ: خَمْسٌ مِنَ الإِيمَانِ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُ فَلا إِيمَانَ لَهُ (التَّسْلِيمُ لأَمْرِ الله، والرضا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَالتَّفْوِيضُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ وَالصَّبْرُ عِنْدَ (الصَّدْمَةِ الأُولَى وَلَمْ يَطْعَمِ) امْرُؤٌ حَقِيقَةَ الإِسْلامِ حَتَّى يَأْمَنَهُ النّاس عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسولَ اللهِ (أَيُّ الإِسْلامِ) أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَنْ سَلِمَ المسلمون من

---

[209] شعب الإيمان للبيهقي – ج 14، ص 280.

[210] صحيح مسلم ج 1، ص 48.

[211] المعجم الأوسط للطبراني، ج 11، ص 133.

لسانه ويده علامات كمنذر الطَّرِيقِ شَهَادَةُ (ألّا إِلَهَ إلا اللَّهُ) حْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَالْحُكْمُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَطَاعَةُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ والتسليم على بني آدم إذا لقيتموهم. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله: "ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان خلق يعيش به في النّاس، وورع يحجزه عن محارم الله، وحلم يرده عن جهل الجاهل"212

وحقيقةُ الرّجل ما يلزمه حِفظه ومَنْعُه ويَحِقُّ عليه الدِّفاعُ عنه من أهل بيته، والعربّ تقول فلأن يَسُوق الوَسِيقة ويَنْسِلُ الوَدِيقةَ ويَحْمي الحقّيقة فالوَسيقةُ الطريدةُ من الإبل سميت وسيقة لأن طاردها يَسِقُها إذا ساقَها أي يَقْبِضها والوَديقةُ شدّة الحر والحقّيقةُ ما يَحِقّ عليه أن يَحْمِيه وجمعها الحقّائقُ.

والحقّيقةُ في اللغة ما أُقِرّ في الاستعمال على أصل وضْعِه والمِجازُ ما كان بضد ذلك وإنما يقع المجاز ويُعدَل إليه عن الحقّيقة لمعانٍ ثلاثة وهي:

1 . الإتّساع.

2 . والتوكيد.

3 . والتشبيه فإن عُدِم هذه الأوصافُ كانت الحقّيقة البتَّةَ

ومن اللغة ودلالتها يمكن أن نقول "الحقّ اسم من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته وتجلٍّ من تجلياته على كلّ شيء يريد أن يؤكد- سبحانه وتعالى -أنه حق، فالقرآن الكريم حق وهو كلّام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يأتيه الباطل لأنّه قول الله

212 مسند البزار، البحر الزخار، 12، ص 15.

الحقّ المنزل على الرّسول الحقّ المتعبد به تعبد الحقّ، وهو منهج الأمة التي لا تبغي إلا الحقّ وتؤمن بالحقّ في دار الاختبار ودار الاعتبار.

وعليه فإنّ الحقّ المطلق مختص بالله، والحقّ بالإضافة نسبي وصاحبه هو الخليفة الذي يؤمن بالحقّ ربّا أعلى، ومن خلال الإيمان بالحقّ ربّا يتأتى الإيمان بالنبي- - رسولا حقا من لدن الحقّ العلي، ثم يتأتى الإيمان بالحقّ كتابا ومنهجا، ثم الإيمان بالحقّ غيبا نعيما وجحيما، جنا وملائكة، وبالعموم غيبا وشهادة.

– الله سبحانه هو الحقّ المطلق في الدنيا وفي الآخرة وَسَتُرَدُّ إليه الأعمال وأصحابها فيحكم بينهم بالحقّ لأنه أسرع الحاسبين ولا يظلم من لديه مثقال ذرة أو أصغر لأنه الحقّ يقول الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أجل مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أحدكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الحقّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}213، فعندما تقبض أرواح الخارجين عن المنهج الحقّ ويعرضون على الله الملك الحقّ المبين الذي ليس في ظهور استحقاقه لملكه منازع يحكم بين الجميع بالحقّ ليحق الحقّ بكلّماته {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ أحدى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الحقّ بِكلّمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}214. وعد الله هو الحقّ، وذلك لثبوت حدوثه، في الزمان والمكان المحددين له، فعندما يأتي حقه يحقه ولو كرها ذلك الحقّ المجرمون،

[213]– الأنعام 60– 62.

[214] الأنفال 7– 8.

ومن الآيات السابقة يتبين أن خليفة الاسم الحقّ يؤمن بالآتي:

1- الحقّ إرادة الله سبحانه وتعالى.

2- الله يمكّن ويهيئ لأصحاب الحقّ الوصول إلى مبتغاهم.

3- إرادة الله سبحانه وتعالى متحققة لا محالة لأنّه؛ {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}215.

ولا راد لإرادته ومشيئته فهو سبحانه قد خلق الخلق من دون معين ولا شريك إبداعا لا على مثال سابق، وأنزل الإنسان على الأرض لحكمة وهي تعميرها بالحقّ لا بالباطل وهذه إرادته ولا يعجزه فيه أحد لأنّه القائل الحقّ: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، الذي بيده الأمر والملك بطبيعة الحال إذا أراد شيئا أن يكون حركة وزمانا يكون في الحال مع فعل الأمر (كن) الذي لا يحدث إلا بمشيئة الخالق محق الحقّ، ولأن إرادته متحققة فهو سبحانه وتعالى يسعد فريق الحقّ ويشقي فريق الباطل بما قدمت أيديهم وهنا لا ينفعهم باطلهم من فكرة باطلة ومن آلهة باطلة التي كانوا يتخذونها من دون الله وفي هذا إنذار لمن يبتعد عن منهج الحقّ ويحيد عنه، وفي ذلك القول الحقّ دليل دامغ يؤكد أن المؤمن بالحقّ سيلقى جزاء عمله سعادة مقيمة في يوم يجمع الله فيه الفريقين ويكون الشقي بعمله الإفسادي والسعيد برحمة الله والعمل الصالح، وهذا اليوم الحقّ الذي يبرز فيه الحقّ ويختفي فيه الباطل، وهذه إرادة الله وهي نافذة لا راد لها، ويبين ذلك بشكلّ جلي قول الله تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آَلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا

[215]- البقرة 117.

أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآَخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاس وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأجل مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكلّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأمّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النّار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ ربّكَ إِنَّ ربّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأمّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجنّة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ ربّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}[216] ويقول تعالى: {إِنَّ بَطْشَ ربّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}[217].

4- يريد فريق الباطل أن يفسدوا في الأرض وهؤلاء هم الكافرون المجرمون الذين قال الله فيهم: (لِيُحِقَّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ).

5- الهدف الذي يسعى إليه المتحقق والمتخلق بمنهج الحقّ يتمثل في:

أ. إحقاق الحقّ في كافة صوره.

ب. القضاء على الكافرين المجرمين بالحقّ.

والحقّ الذي يريد الله أن يحقه هو الإسلام بمعنى التسليم لله والانقياد له بطاعة أوامره واجتناب نواهيه وإتباع سنن أنبيائه المشمولة في سنة المصطفي منهجا قرآنيا وتنفيذا محمّديا وإتباعا صادقا، وبهذا يتحقق الحقّ في كافة صوره لأن الإسلام ما ترك قضية إلا ووضع لها حلا، وبهذا يقوم الحقّ وتكون الخيرية في الخلافة المتمثلة في خير أمة أخرجت

[216] -هود 101- 108.

[217]- البروج 12- 16.

للناس التي يشهد عليها قول الله تعالى:{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ منهم المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ}218.

فقوله الحقّ يتعدد في هذه الآيات الكريمة:

1 . (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) إنّه الحقّ.

2 . (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) إنّه الحقّ.

3 . (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) إنه الحقّ.

4 . (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) إنّه الحقّ.

5 . (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) إنّه الحقّ.

6 . (منهم المؤمنون) إنّه الحقّ.

7 . (وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) إنّه الحقّ.

8 . (وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ) إنّه الحقّ.

ولأنّ الحقّ بيّن والباطل بيّن، جاء قوله لا إكراه لأيّ إنسان في أن يتبع أو يُتبع بالإكراه، والحقّ في أساسه ليس في حاجة لمدافعين عنه، الحقّ هو خير من يدافع عن حاله، ولكن الحقّ في حاجة لمن يظهره ويبشر به وينذر ويحرض، ولكلّ من هذه القيم والفضائل الإنسانية أسباب ودواعي تستوجب مراعاة الزمان والمكان المناسبين للقول

[218] آل عمران 109-111.

والفعل والسلوك، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[219]. بعد أن بيّن الله قوله في رسالته الخاتمة وأظهره على العالمين به فسيظل في اللوح المحفوظ الذي لا يدخله الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، ولذا فقد نهى الحقّ عن الإكراه في الدين الحقّ، الذي لم يعد خافيا على أحد من العالمين، ولهذا فالمستمسكين بالحقّ هم على حق، والمستمسكين بالباطل هم على باطل، ولكلّ ثوابه، أو عقابه. ولا تزروا وَازِرَةٌ وزر أخرى قال تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي ربّا وَهُوَ ربّ كلّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كلّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى ربّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتَاكُمْ إِنَّ ربّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[220].

فأمة الحقّ يطمئنها ربّها بالحقّ الذي لا يقبل جدالا ولا نزاعا بأن السماوات والأرض له وحده دون شريك، والأمر كلّه يرجع له عزّ وجلّ ويلخص الأمر في الآتي:

1- لله أمر السماوات والأرض بالحقّ وإليه يرجع أمر الخلق جميعا ثوابا على طاعتهم وإتباعهم المنهج الصحيح وتعميرهم الأرض ومحاربتّهم الباطل في كلّ أشكاله، وعقابا لأهل الباطل الذين حاربّوا الحقّ وأهله.

[219] البقرة 256.

[220] الأنعام 164، 165.

2 – الأمّة التي تتبع الحقّ هي خير أمة، مصداقا لقوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النّاس وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}221، وهذه الخيرية التي هي لخير أمة لها تستوجب من المستخلفين في الأرض ألّا يغفلوا عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن أعظم الأمر بالمعروف: الإيمان بالله وأحدا أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، وهذا هو حق الله على العباد، كما أن لهم على الله حق إن هم أدوا حق الله وهذا ما وضحه سيد الخلق صلّى الله عليه وآله وسلّم فعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النّاس قَالَ لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلّوا"222.

ولبُّ الحقّ عبادة الله وحده دون سواه والانصراف قلبا وقالبا عما سواه فلا يعتقد الإنسان في حجر ولا شجر ولا يتوجه بالعبادة والدعاء إلا لله وحده لأنه لا نافع بحق إلا الله ولا ضار بحق إلا الله ولا حكيم بحق إلا الله وهكذا فهو الحقّ في أسمائه وصفاته وأفعاله.

---

221 آل عمران 110 . 112.

222 صحيح البخاري – ج 9، ص 459.

ولكن فريق الباطل لم يدرك حق الله على العباد ولم يؤده فعبدوا من دون الله أربّابا باطلة لا تملك من أمر نفسها شيء فكيف تملك من أمر غيرها؟! وهذا الصنف الذي قال الله فيه من خلال خطابه النّاس جميعا: {يَا أَيُّهَا النّاس ضُربَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النّاس إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا ربّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرّسول شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}223.

فالباطل الذي هو نقيض الحقّ له أتباع يحاولون أن يقلبوا الموازين ليبطلوا الحقّ ويحقوا الباطل ولأنّ ما يعبدون من دون الله باطل فالله سبحانه وتعالى يتحداهم بأن يخلقوا خلقا من أضعف خلق الله- سبحانه في قدرته- وهذا المخلوق على ضعفه إلا إنّه لا يستطيع أهل الباطل أن يخلقوا مثله لأنهم على ضلال، ولأنّهم على ضلال فالله يتحداهم بأن يخلقوا ذبابة، والله يعلم أنهم عاجزون لأنّهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا فكيف يملكون من أمر غيرهم؟ أمّا المستخلفون فيها بالحقّ فهم يؤمنون بأنّ الخلق من عند الحقّ تبارك وتعالى، وبالتالي لا يراودهم شك في ذلك.

---

[223]- الحج 73 -78.

ويبلغ التحدي الإلهي مبلغا آخر وهذا التحدي يثبت العجز التام للباطل فيقول الله لهم: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}224.

والإيمان بالله واحدا أحدا من أهم ما يؤكده خليفة الحقّ وإثبات أن الله وأحد في ملكه وأن دعوته وولايته حق وأنه كما قال في كتابه الحقّ: {لَهُ دَعْوَةُ الحقّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ قُلْ مَنْ ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوّلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحد الْقَهَّارُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّار ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحقّ وَالْبَاطِلَ فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمّا مَا يَنْفَعُ النّاس فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أَوّلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}225.

ومن هنا فالولاية الحقّيقية المطلقة لله الواحد الحقّ لأن الذي يدعوه ربّا يدعو بالحقّ ويعلم أن دعوته غير مردودة، لأن الله عزّ وجلّ هو

224 الحج 73.

225 - الرعد، 14 - 18.

الذي دعاه لذلك بدعوة الحقّ، ومن هنا فخليفة الحقّ يعمل جاهدا لإحقاق الآتي:

1 . الله سبحانه وتعالى هو الحقّ المبين وهو جلّ وعلا سيوفّي الجميع بما عمل ثوابا وعقابا: وكلّمة المبين تعني الواضح الذي لا لبس فيه {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحقّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الحقّ الْمُبِينُ}226.

2- دحض فريق الباطل الذي يحاربّ الحقّ ويدعو من دون سلطان أو حجّة دامغة. قال تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آَمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كلّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}227، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ}228.

3- تأكيد أن الحكم الحقّ والقضاء الجد الذي لا هزل فيه من خصوصية الحقّ، لذا فإنّ الله الحقّ يدعو نبيه الحقّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، ومن أراد أن يتخلق بالحقّ ويحقق خلافة الحقّ بقوله: {إِنَّ ربّكَ

226 –النور 23 . 25.

227 غافر 35.

228 غافر 56 . 58.

يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ فَتَوَكَلّ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الحقّ الْمُبِينِ}229.

أمّا فريق الباطل فقد نعته الله بالموت يعني الموت المعنوي فهم إن كانوا أحياءًا جسدا فهم أموات لأنهم لم يستطيعوا التمييز بين الحقّ والباطل، كما نعتهم بالعمى لأنهم بإتباعهم الباطل أرادوا أن يثبتوا الباطل ويدحضوا الحقّ وهذا يؤكده قول الله جل في علاه: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ}230.

وفريق الباطل قالوا للحق لما جاءهم: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفي بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرّحِيم قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرّسل وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى أمّامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا ربّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أوّلئِكَ أَصْحَابُ الجنّة خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا

---

[229] النمل 79.

[230] النمل، 78-81.

كَانُوا يَعْمَلُونَ}231 فمن سار ضد الحقّ فهو فاقد للدراية وبهذا وكأنه ميت وذلك بأسباب غفلة العقل والقلب والسمع والبصر والبصيرة، وهذا الصنف من البشر لا فائدة ترجى منه لأنه أعمى البصيرة في الدنيا وأعمى البصر والبصيرة في الآخرة، وذلك بإعراضه عن الحقّ في الدنيا، والحقّ في الدنيا متمثل في:

1 ـ التوحيد الخالص لله عزّ وجلّ: قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أحد اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أحد}232، وقوله تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوّل وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}233.

2 ـ اليقين بالقلب بهذه الوحدانية: قال تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ ربّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}234، وقال تعالى: {كلّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كلّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كلّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}235.

3 ـ متابعة اليقين القلبي بالقول الثابت أي بالنطق بكلّمة الحقّ ألا وهي "لا إله إلا الله محمّد رسول الله". قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ

[231] الأحقاف 7 ـ 14.

[232] الإخلاص 1 ـ 4.

[233] الحديد 2، 3.

[234] الحجر، 98 ـ 99.

[235] التكاثر، 3 ـ 8.

دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّار}236.

4 . الحقّ ثابت عال مثل الشيء النافع الذي يثبت في الأرض ويثبت الله لينفع النّاس مصداقا لقوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّار ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحقّ وَالْبَاطِلَ فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمّا مَا يَنْفَعُ النّاس فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أَوّلئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}237.

5 . لا فائدة من الباطل وإن أخذ صورة نافعة فهو هاو لا أساس له ويذهب وينتهي سريعا دون فائدة، قال تعالى: (فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً).

6- أهل الحقّ لهم الثواب العظيم والبشرى بالمغفرة والجنّة وهذا ثابت بقول الله تعالى: (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى).

7- فريق الباطل جزاؤه من جنس عمله لأنهم لم يؤمنوا بالحقّ وكذبوه وأرادوا أن يدحضوه بعدم استجابتهم للحق ودعوته وهؤلاء لا ينفعهم يوم القيامة أموالهم ولا أبناؤهم ليفتدوا بهم من عذاب الجحيم، فهم لهم سوء الحساب وسيكون مصيرهم جهنم (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أوّلئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ).

[236] إبراهيم، 27 . 30.

[237] الرعد 17، 18.

والخليفة يعلم أن الله هو الحقّ وأن دينه الحقّ فهو يستشعر الحقّ ويعمل على ظهوره وبزوغه وإذ كان إحقاق الحقّ من الله الحقّ بكلّماته التي جعل فيها قدرته وإرادته لأنه سبحانه إذا قال للشيء كن فيكون فهو، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}238.

والله هو الحقّ ودعوته الحقّ يقول الله تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الحقّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}239.

ولسان حال الخليفة الذي يسير على منهج الحقّ يقول كما ورد في كتاب الحقّ:

{وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النّار تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النّار فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}240.

فالباطل ليس له أساس في الدنيا ولا في الآخرة، أمّا الحقّ فله الدعوة الصادقة لأنه كما سبق أن بينا فإن الحقّ راسخ في القلب يقينا ثابتا بالقول والفعل وذلك لأن الله خلق السماوات والأرض بالحقّ، والحقّ أن يعبد وحده دون شريك من صنم أو حجر أو عقل ضال قاصر أو إتباع شيطان من شياطين الأنس والجن، والله سبحانه وتعالى لما خلق

[238] -البقرة 117.

[239] الرعد 14.

[240] غافر 41 –44.

السماوات والأرض بالحقّ وجعل الإنسان في الأرض ليخلفه فيها ليعمرها بالحقّ فتفرق الإنسان إلى فريقين:

أ . فريق الحقّ يتبع الحقّ قلبا، ولسانا، وعملا. قال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} 241.

ب . فريق الباطل الذي وجد في نفسه ضعفا واتبع الشيطان أو اتبع أهل الباطل فلم ينفعه ذلك إلا بالخزي في الدنيا والعذاب والخسارة في الآخرة ومثل الحقّ والباطل في هذا الموقف مثل الكلّمة الطيبة التي هي كلّمة الحقّ والتوحيد والصدق ومثل كلّمة الباطل التي هي نقيض الحقّ وهذه الصورة يلخصها الله في قوله تعالى مخاطبا النوع الإنساني من خلال خطابه للنبي: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِّمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ

[241] الحجرات، 14 . 15.

طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكلّهَا كلّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْربّ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كلّمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّار قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وعلانية مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَار}242.

الكلّمة الطيبة هي كلّمة الحقّ، وطيبة لأنها تاركة للأثر الذي به تطمئن الأنفس، والكلّمة الطيبة لا تمت ستظل مع الحقّ عبر العصور، وكلّ شيء يتغير إلا هي ثابتة صامدة في مواجهة الكلّمة الظالمة التي دائما اللعنات تلاحق قائليها أو المستشهدين بها أو المحتكمين بها. قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرّسول حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أوّلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنّاس أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

[242]- إبراهيم، 19 - 33.

وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ}243.

إذن الكلّمة الطيبة كالشجرة الطيبة تؤتي أكلّها كلّ حين، متى ما يستشهد بها أو يحتكم بها تكون حجّة حاقة للحق وزاهقة للباطل، والشجرة التي تؤتي أكلّها كلّ حين، ذات منافع كثيرة، ففي دائرة الممكن من منافعها الآتي:

1 ـ عندما تكون شجرة طيبة وتؤتي أكلّها كلّ حين يستظل بظلها، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}244، وعندما تكون الكلّمة طيبة يحاجج بها حتى تدخل الطمأنينة في القلوب. قال تعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا}245. أمّا عندما تكون الشجرة خبيثة فإن الأمر يختلف، فهي لا تؤتي أكلّها وإن أتت فيكون ذا ضرر مثلها مثل الكلّمة الخبيثة التي تفرق بين المرء وزوجه وتفسد في الأرض وقد تؤدّي إلى سفك الدماء فيها بغير حقّ.

---

[243] آل عمران،

[244] إبراهيم 24 ـ 27.

[245] النساء 85، 86.

2 . الشجرة الطيبة النافعة يؤكلّ من ثمارها، وهي في شبه كبير بالكلّمة الطيبة النافعة التي بها يتم تقصي الحقّائق وتتبع مكامنها في ميادين البحث العلمي والازدياد المعرفي فتضيف الجديد النافع. والشجرة الخبيثة ثمارها كالحنظل وهي المحرمة على المستخلفين فيها قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكلّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْربَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ ربّهِ كلّمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}246، وعليه فالشجرة الطيبة قول الله لآدم: (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكلّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْربَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)، وقوله تعالى: (فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ ربّهِ كلّمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم)، والكلّمة الخبيثة ما قالوه إبليس لأبونا آدم وأمنا حواء (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمّا كَانَا فِيهِ)، وقوله تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ للإنسان اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ربّ الْعَالَمِينَ}247.

3 . يغرس منها في أمّاكن أخرى، وهي في التشبيه كالسنبلة التي تتضاعف من حبة وأحدة مصداقا لقوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كلّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ ربّهِمْ وَلَا

[246] البقرة 34 . 37.

[247] الحشر، 16.

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النّاس وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}248. ولذا فالكلّمة الطيبة هي كلّمة الحكمة مصداقا لقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أوّلو الْأَلْبَابِ}249، أمّا الكلّمة الخبيثة فهي التي تبطل الصدقات قال تعالى: (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النّاس وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ).

ولأنّ الكلّمة الطيبة كلّمة حق، فهي باقية مثل كلّمة التوحيد، واحد أحد، الأوّل والآخر، الملك الحقّ، لا إله إلا هو، محمّد رسول الله، كلّمات تامة غير منقوصة، كما حال كلّمات الكفر والشرك بالله، ومثل كلّمات النفاق والكذب والبهتان.

وكلّمة الحقّ ثابتة كالشجرة الثابتة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، ولهذا في المقارنات كلّام الله الذي أنزله على عباده الصالحين وأرسل به الرّسل مبشرين ومنذرين هو كلّام باقي يسمع في الأرض ويسمع في السماء، ولهذا مهما بلغ حجم الشجرة المباركة المشبه بها فإن الكلّمة المباركة ذات ظل أكبر وأعظم وإنها ذات امتداد عظيم، ولهذا فإن كلّمة الحقّ تنصف المظلوم لتعيد إليه حقه وهذا أكبر ظل

---

[248] البقرة 261 ـ 264.

[249] البقرة 269.

يمكن له أن يستظل به، الحكم العدل والوزن بالقسطاس قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}250. وفي مقابل ذلك الكلّمة الخبيثة التي قال عنها تعالى: (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا). أي كلّ ما يخالف ما جاء في الآيات الكريمة السابقة هو في محل الشجرة الخبيثة وهي التي عند الله مكروهة.

والخليفة من يدعو لظهور الحقّ عاليا بالدعوة الصادقة لله ليعينه على ذلك امتثالا لقوله تعالى للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النّاس وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

[250] الأحقاف، 31. 38.

الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}251.

فالثواب والعقاب بيد الله وهذا هو الوعد الحقّ لمن سار على المنهج الحقّ أو خالفه والمنهج الذي يسير عليه خليفة الحقّ فيه الآتي:

1- إقامة الصلة: الصلة علاقة ورابطة عندما تكون بين الخليفة وربّه تكون بالحقّ على الحقّ وطاعة للحق، ومن أهم العلاقات صلة بين الخليفة وربّه، هي الصلة بالصلاة ركوعا وسجودا لله وتسليما خالصا بالرّسول صلوات الله وسلامه عليه مع إتاء الزكاة وحجّ البيت والصوم في الشهر الكريم الذي انزل فيه الحقّ القرآن الكريم تكريما له وتكريما للصائمين، ولذا فإن هذه العبادات تربّط الصلة بين الخالق والمخلوق الذي هو على الطريق المستقيم. قال تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أوّلئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأوّلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}252، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}253.

2- تدبر الكتاب: الذي يحوي المنهجَ الصحيحَ والفكرَ المستنيرَ. قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرّسول وَإِلَى أوّلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ

---

[251] يونس 1 . 4.

[252] البقرة 3 . 5.

[253] البقرة 277.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}254، وقال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}255.

3- تحري الصدق: الكذب هو القول الفاقد للمصداقية، أي أنه خالٍ من الحقّيقة، وهو تعمد لتجنبها، وقد يترتب على القول الكذب فتنة أو اقتتال قال تعالى: {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}256، قال تعالى {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}257، وقال تعالى: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ}258.

---

254 النساء 82، 83.

255 محمّد 20 . 24.

256 يونس 69، 70.

257 النساء 111 . 113.

258 النحل 105.

وعليه فإن الخليفة هو متحري الصدق في كلّ الأحوال لأنه لا حق دون صدق وجزاء الصدق القبول عند الله تصديقا لقوله تعالى: {أوّلئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الجنّة وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}259.

4- التوكلّ على الحقّ: ومن يتوكلّ على الله فهو حسبه {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكلّ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}260، وباليقين يكون الحقّ غالب والباطل زاهق مدحور لا محالة تصديقا لقوله تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكلّ الْمُؤْمِنُونَ}261.

5 . الحكم بالعدل: العدل أسم الله، وصفته الحسنة، وفعله الحقّ، والعدل من عمل به عمل بكلّمات الله التامة، ومن لم يعمل به فقد ضل، والحكم العدل هو الذي لا مظالم فيه ولهذا لا يقوم به إلا خليفة قال الله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَأوّلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرّسول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}262.

6 . إيفاء الكيل والميزان: الإيفاء بالكيل والميزان اعتراف بإحقاق الحقّ ومخافة من باطل، ولهذا من يتبع ذلك يجد نفسه في طاعة ما أمر

259 الأحقاف 16.

260 الأنفال 49.

261 آل عمران 160.

262 النساء 58، 59.

به الحقّ تعالى: {وَلَا تَقْربّوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكلّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}263.

7 . ألّا يزنى: الزّنا عمل من أعمال الشيطان به تختلط الدّماء فتختلط المحرمات مع الحلائل وفي هذا إثم كبير، وفيه من الأمراض ما يسبب العلة والموت وفيه فتنة بين من يكتشف أمرهم مع المحرمات، قال تعالى: {وَلَا تَقْربّوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}264، وقال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَربّائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}265. ولذلك فمن يستعصم يفوز فوزا كبيرا قال تعالى: {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ ربّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ ربّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}266.

---

263 الأنعام 152، 153.

264 الإسراء 32.

265 النساء 23.

266 يوسف 32 . 34.

8 ـ ألّا يسرق: الخليفة هو الذي يستمد صفاته من صفات مستخلفه في الأرض ولذا من يسرق لا صفة له من صفات مستخلفه في الأرض، ولهذا نهى الحقّ تبارك وتعالى عنه وأوجب حكما مصداقا لقوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}267

9 ـ ألّا يوقد نار الفتنة: الفتنة اشد من القتل فهي تؤدّي إلى الفرقة والعداء بين الأقاربّ، وكذلك بينهم وبين الأباعد، ولهذا فالخليفة هو من يصلح ويفلح ولا يوقد نار الفتنة في الأرض التي استخلفه الله فيها، فمن يوقدها لا يكون من المستخلفين فيها، وذلك لأن نار الفتنة تفسد ولا تصلح وتؤدّي إلى سفك الدماء، قال تعالى: {لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الحقّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}268، وقال تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}269.

10 ـ ألّا يشربّ مسكرا: الخليفة دائما على الحقّ، وهو للظلم من الكارهين، ولهذا لا يشربّ مسكرا حتى لا يفقد صوابه الذي به اهتدى إلى الحقّ والطريق المستقيم، إنه الذي يتجنب كلّ ما من شأنه أن يؤدّي به إلى فقدان عقله أو ذاكرته التي بها يميز بين الخبيث

---

[267] المائدة 38، 39.

[268] التوبة 48، 49.

[269] التوبة 46، 47.

والطيب والحلال والحرام قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}[270]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}[271].

11 . أن يعمل على إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل: الحقّ هو دائما في مرضاة الله، ومرضاة النفس المطمئنة، ولهذا فالخليفة بإقدامه على القول الحقّ والفعل الحقّ يرضي ربّه عزّ وجلّ ويرضي نفسه وضميره، فإحقاق الحقّ لا يترتب عليه ندم، أمّا أفعال الباطل فيترتب عليها الندم الشديد، وقد تضيع فرصة الندم فلا يتمكن الإنسان من الاستغفار في الوقت المناسب له، قال تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[272]. ولذا عندما يفوت وقت الاستغفار يظل الحكم بالعقاب أمرا لا مفر منه والحمد لله ربّ العالمين الذي يمهل ولا يهمل. ولهذا فالمستخلفين فيها هم الذين يعملون على إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل بكلّ ما يكسبون ويستطيعون. قال تعالى: {لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الحقّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي

---

[270] البقرة 219.

[271] المائدة 90، 91.

[272] التوبة 80.

وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}273، وقال تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الحقّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}274، وقال تعالى: {نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}275.

ومن يخالف ذلك المنهج هو من فقد الصواب وعميت بصيرته وموقفه في الآخرة يوضحه الله في قوله تعالى الذي يقص علينا قصة الحقّ وصراعه ضد الباطل منذ البداية فلنرى ماذا يقول ربّنا جل في علاه فيقول تعالى لفريق الباطل الذي اعتمد على الشيطان لينصره، والشيطان قد يكون إبليس نفسه أو فكرة خاطئة أو اعتماد على مال أو جاه أو غير ذلك من دون الله عزّ وجلّ ولكن الشر الأكبر متمثل في الملعون الذي يُزيّن الباطل، فيقول الله تعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}276.

والله أعلى – من كيد الشيطان وفريق الباطل –علوا كبيرا لأنه الملك الحقّ، ويقص الله علينا قصة الصراع الذي لا ينتهي إلا بنهاية الكون

[273] التوبة 48، 49.

[274] الإسراء 81.

[275] الأنبياء 18.

[276] الأنفال، 48-51.

قصة الحقّ والباطل فيقول تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الحقّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ ربّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنّة فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة وَعَصَى آَدَمُ ربّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ ربّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ ربّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آَيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآَيَاتِ ربّهِ وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}[277].

هي القصة بعينها... الحقّ والباطل في صور متعددة، وأصلها أن الله أراد أن يستخلف خليفة لتعمير الأرض، فاعترض الشيطان على الخليفة وعصى أمر الله سبحانه وتعالى، فتشعب الأمر إلى شعبتين حقّ وباطل... هدي وضلال... صدق وكذب... نور وظلام...جنّة ونار.

والحقّ والهدي والصدق والنور في المنهج الذي يحض على الصلة بالله عزّ وجلّ للوصول إلى الحقّ والله هو القائل لنبيه صلّى الله عليه سلم: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآَنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآَنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ

[277] طه، 114 -127.

يَبْعَثَكَ ربّكَ مَقَاما مَحْمُودًا وَقُلْ ربّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا وَقُلْ جَاءَ الحقّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}278 فكان صلّى الله عليه وآله وسلّم يقوم الليل بهذه الكلّمات فإنّها مأثورة عن رسول الله في قيامه للتهجد "اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السماوات والأرض ولك الحمد أنت ربّ السماوات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ومن عليهن اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلّت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم أهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المفتقر الذليل فلا تجعلني بدعائك ربّ شقيا وكن بي رءوفا رحيما يا خير المسئولين وأكرم المعطين.

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها "كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون أهدني لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم "279.

[278] الإسراء 78 -81.

[279]- السنن الكبرى للنسائي، ج 1، ص 417.

والحقّ كما ورد على لسان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتمثل في: الله الحقّ ومنك الحقّ ولقاؤك حق والجنّة حق والنّار حق والنشور حق والنبيون حق ومحمّد حقّ.

ونعود للغة التي تؤكد معاني الحقّ التي تكلّمنا فيها فقد جاء معنى الحقّ على النحو الآتي:

الحقّ: نَقِيْضُ الباطِلِ280.

– والله حق وما دونه الباطل فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: أصدق كلّمة قالتها العربّ:

ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطل... وكلّ نعيمٍ لا محالة زائل!

وكلّ أناسٍ سوف تدخل بينهم... دويهيةٌ تصفر منه الأنامل!

وكلّ امرئٍ يوما سيعلم سعيه... إذا كشفت عند الإله الحصائل281.

والحديث كما في الصحيح نصه" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ:" أَصْدَقُ كلّمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كلّمَةُ لَبِيدٍ أَلَا كلّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ"282.

ومن معاني "الحقّ اللغوية" بَلَغَتُ حَقِيْقَةَ الأمْرِ: أي يَقِيْنَ شَأْنِه"283 وهذا اليقين في بلوغ الحقّيقة ما وجدناه في القرآن الكريم معبرا عنه بقوله تعالى: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ

280 –المحيط في اللغة – ج 1، ص 151.

281– ديوان المعاني – ج 1، ص 46.

282 صحيح البخاري – ج 12، ص 212.

283 المحيط في اللغة، ج 1، ص 346.

إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}284.

(إنَّا كفيناك المستهزئين) بقمعهم وإهلاكهم. قيل كانوا خمسة من أشراف قريش: الوليد بن المغيرة، والعاص ابن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، يبالغون في إيذاء النبي والاستهزاء به فقال جبريل عليه السلام لرسول الله: أمرت أن أكفيكهم، فأومأ إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لأخذه، فأصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص فدخلت فيه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى أنف عدي بن قيس فامتخط قيحا فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضربّ وجهه بالشوك حتى مات، وإلى عيني الأسود ابن المطلب فعمي والحمد لله ربّ العالمين.

وقوله (الذين يَجْعَلُونَ مَعَ الله إلها آخر فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) عاقبة أمرهم في الدارين.

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) فافزع إلى الله تعالى فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك ويكشف الغم عنك، أو فنزهه عما يقولون حامدا له على أن هداك للحقّ (وَكُنْ مِّنَ الساجدين) من المصلين الخاشعين لله وحده، وعنه عليه الصّلاة والسّلام "أنه كان إذا حَزبه أمر فزع إلى الصلاة" (واعبد ربّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين) أي

---

284 الحجر، 95 – 99.

الحقّيقة التي تبحث عنها وتريد معرفتها فالله عليم كريم وحكيم فلا تستغربّ أن أظهرك على شيء من الحقّيقة أو أظهرك عليها فاحمده واشكره كثيرا. ولذلك فاعبده ما دمت حيا ولا تخلّ بالعبادة لحظة (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) الذي لا شك ولا ظن من ورائه فهو الحقّ الذي لا يتبدل ولا يتغير ولو كره الفاسقون والكفرة والمجرمون.

ونرى أنّ عين اليقين هو اليقين الذي لا لبس فيه، واليقين لا يظهر إلا بالحقّ ومن هنا فالحقّ يكشف ما كان غائبا حتى ينكشف الغطاء وتبرز الحقّيقة ويتحول البصر إلى آلة حادة في الإبصار فيري الإنسان ما لم يكن قادرا على رؤيته من قبل، وحتى نبسط الأمر أكثر من ذلك نعود إلى قول الله الحقّ في كتابه الحقّ الذي يقول فيه: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالحقّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كلّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}285.

قال تعالى: (لقد كنت في غفلة من هذا) الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور وسهو يعتريه من قلة التحفظ والتيقظ، والمعنى يقال له يوم القيامة أو وقت النشور أو وقت العرض: لقد كنت أيها الشخص في الدنيا في غفلة من هذا اليوم وغوائله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الغفلة من عاقبة الكفر ومن السائق والشهيد. وخطاب الكلّ بذلك لأنه ما من أحد إلا وله غفلة، وقيل الخطاب للكافر وقرئ كنت بكسر التاء على اعتبار تأنيث النفس وكذا الخطابات الآتية (فكشفنا) أي أزلنا ورفعنا (عنك غطاءك) الذي كان على بصرك ولغطاء الحجاب المغطى لأمور المعاد وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والألفة بها وقصر النظر عليها والغطاء ما

[285]- ق 19 -22.

يجعل فوق الشيء من لباس ونحوه كما إن الغشاء كذلك وقد استعير للجهالة قال تعالى فكشفنا الآية. (فبصرك اليوم حديد) أي نافذ ثاقب لا ستار يحول بينه وبين ما تود النظر إليه. تبصر ما كنت تنكره وتستبعده في الدنيا لزوال المانع للإبصار ولكن لا ينفعك وهذا كقوله أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا يقال حددت السكين رققت حدها ثم يقال لكلّ حاذق في نفسه من حيث الخلقة من حيث المعنى كالبصر والبصيرة حديد فيقال هو حديد النظر وحديد الفهم ويقال لسان حديد نحو لسان صارم وماض وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد وفي الآية إشارة إلى أنّ الإنسان وإن خلق من عالمي الغيب والشهادة فالغالب عليه في البداية الشهادة وهى العالم الحسي فيرى بالحواس الظاهرة العالم المحسوس مع اختلاف أجناسه وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب فمن النّاس من يكشف الله غطائه عن بصر بصيرته فيجعل بصره حديدا يبصر رشده ويحذر شره وهم المؤمنون من أهل السعادة ومنهم من يكشف الله عن بصر بصيرته يوم القيامة يوم لا ينفع نفسا إيمانها وهم الكفار من أهل الشقاوة.

ومن كلّمات أمير المؤمنين على رضي الله عنه: (لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا)، يعنى إن عين اليقين الحاصل لأهل الحجاب في الآخرة حاصل لأهل الكشف في الدنيا فإنهم ترقوا من علم اليقين إلى عين اليقين في هذه الدار فطابوا وقتا فكائنهم في الجنان في الحال وكلّ يوم لهم يوم المزيد[286].

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنّة يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ

---

[286] -تفسير حقي ج 14، ص 130.

والإنجيل وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفِي بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}287.

الحقّ وأحد لا يتغير ولا يبلى ولا يزول ولا يتعدد وهكذا الحقّيقة وأحدة لا تتجزأ فإن قبلت للتجزئ فلا علاقة لها بالحقّيقة، ولذا ففريق الحقّ يصدق بالحق ولهم حسن الثواب، يقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}288.

يقول الله سبحانه وتعالى في فريق الحقّ:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أحد مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}289.

ويقول في فريق الباطل: {وَلَا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو ربِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}290.

ووجهة الحقّ واحدة لذا نقول في القول الشائع أن الحقّيقة لها وجه واحد، ولما أراد الله أن يجمع الخلق على جهة الحقّ اعترض أهل الباطل بالزور والسفاهة وضيق الأفق، وهم ما زالوا إلى الأن يشككون

---

287 التوبة 111.

288 النساء 150 –151.

289 النساء 152.

290 البقرة 42 . 46.

في وجهة الحقّ فقد طلعت علينا إحدى الفضائيات التي تهاجم رسول الحقّ ودعوة الحقّ لتشكك في قبلة الحقّ وتقول هل الله في جهة وأحدة أو أنه غير قادر على رؤية من يصلي له في الجهات الأخرى؟ وكأنهم لا يعلمون من الأمور أبسطها أن الله أراد أن يجمع الإنسانية على جهة وأحدة هي جهة الحقّ وعلى رسول وأحد هو رسول الحقّ، الذي بالصّلاة والسّلام عليه تصلي على جميع الأنبياء والرّسل، أي أن الصلاة علة والسلام على محمّد صلاة وسلام على جميع الرّسل مصداقا لقوله تعالى: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحد مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}291 ولهذا الدين الواحد له ربّ وأحد وجهة وأحدة ورسول وأحد، والله قد وصف هؤلاء ورد على أسلافهم بقوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النّاس مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْربّ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس وَيَكُونَ الرّسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرّسول مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنّاس لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحق مِنْ ربّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكلّ آَيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ

[291] البقرة 285.

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ}292.

ويرد الله على أهل الكتب الخارجين عن الحقّ الذين يعرفون أن النبي حق وينكرون تلك الحقّيقة بقوله تعالى:

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحقّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الحقّ مِنْ ربّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلِكلّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ ربّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حجّة إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}293.

والحقّ هو الحقّ له سبيل وأحد كما قال الله على لسان النبي في الكتاب الحقّ: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}294.

---

292 البقرة 142 -145.

293 البقرة 146. 153.

294 يوسف 108.

الدعوة (على بصيرة) يعني على يقين ومعرفة والبصيرة هي المعرفة التي بها يتم التمييز بين الحقّ والباطل (أنا ومن اتبعني) من آمن بي وصدَّق بما جئت به أيضا يدعو إلى الله، ويذكِّر بالقرآن وقيل تم الكلّام عند قوله أدعو إلى الله ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعني بعدي أنا على بصيرة ومن اتبعني أيضا على بصيرة قال ابن عباس إن محمّد وأصحابه كانوا على أحسن طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرّحمن.

ولقد صدق من قال:

الطرق شتى وطرق الحقّ مفردة.... والسالكون طريق الحقّ أفراد

لا يعرفون ولا تدري مقاصدهم..... فهم على مهل يمشون قصاد

والنّاس في غفلة عما يراد بهم... فجلهم عن سبيل الحقّ رقاد[295]

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم فإن الحقّ مر والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر ولاسيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة فإن ذلك نزع للروح على الدوام، وصاحبه ينزل منزلة الشاربّ للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه فهو يقاسي الشدائد ليكون فطره عند الموت[296].

وصراع الحقّ ضد الباطل من صوره مسألة كلّمة الباطل التي قال بها من أشرك بالله من أهل الكتاب واختلفوا في حقيقة سيدنا عيسى عليه السلام روح الله وكلّمته التي أرسلها إلى السيدة العذراء عليها

---

[295] إحياء علوم الدين – ج 1، ص 83.

[296] إحياء علوم الدين – ج 1، ص 84.

السلام: لا يوضح الحقّ ويظهره في هذه القضية إلا كتاب الله وسنختار منه آيات على سبيل المثال لا الحصر فيقول وهو أصدق القائلين:

{ربّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرّسول فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأمّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأمّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآَيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الحقّ مِنْ ربّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الحقّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كلّمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ والإنجيل إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أوّلى النّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ

وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}297

ويقول الله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تبعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أحد مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ ربّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أوّلئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}298.

أمّا موقف الذين آمنوا منهم فلسان حالهم يقول كما أخبرنا الله عزّ وجلّ: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرّسول تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ممّا عَرَفُوا مِنَ الحقّ يَقُولُونَ ربّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحقّ وَنَطْمع أنّ يُدْخِلَنَا ربّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أوّلئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}299.

---

297 -آل عمران 53-70.

298 آل عمران 71- 77.

299 المائدة 83-86.

إزهاق الباطل. قال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}300، وقال تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الحقّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}301.

الإقدام على ما يجب في مرضات الله: قال تعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا}302، وقال تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى}303.

الانتهاء عما يجب الانتهاء عنه طاعة لله. قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}304، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}305.

الإيفاء بعهد الله: قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ}306 وقال تعالى: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبّكَ الحقّ كَمَنْ هُوَ

300- الأنبياء 18.

301- الإسراء 81.

302- النساء 85.

303- الليل 17 . 21.

304 - المائدة 91، 92.

305- النحل 90.

306- النحل، 91.

أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ}307.

الاتقاء: قال تعالى: {وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ}308، وقال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}309.

الاهتداء: قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}310، وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس قَدْ جَاءَكُمُ الحقّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}311، وقال تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}312.

307- الرعد 19 . 2.

308- النحل 30، 31.

309- الرعد 28.

310- الأنعام 82، 83.

311- الرعد 108.

312- الإسراء 15.

الإحسان: قال تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أوّلئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}313، وقال تعالى: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا}314.

وفي مقابل ذلك المتعالون والمفسدون في الأرض هم:

الكفرة الفجرة: قال تعالى: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أوّلئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}315، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أوّلئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}316

سافكو الدماء فيها بغير حقّ: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النّاس فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أوّلئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}317، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

313- يونس 26.

314- الإسراء 2324.

315- عبس، 40 . 42.

316 - الإسراء 150، 151.

317- آل عمران 21، 22.

الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[318].

المفسدون في الأرض: قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}[319]

العتاة المتكبّرون: قال تعالى: {وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[320]، وقال تعالى: {فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}[321].

---

[318]- البقرة 30.

[319]- البقرة 8 . 16.

[320] - الأعراف 165، 166.

[321]- النحل 29.

الظلمة: قال تعالى: {قَالَ أَمّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى ربّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا}322، وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}323.

المسيئون: قال تعالى: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأوّلئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}324 وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أوّلئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}325، وقال تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}326.

العصاة: قال تعالى: {وَضُرِبّتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيّينَ بِغَيْرِ الحقّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}327، وقال تعالى: {ضُرِبّتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النّاس وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبّتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}328.

---

[322]- الكهف 87.

[323]- الطلاق 1.

[324]- البقرة 81.

[325]- يونس 27.

[326] -الأنعام 31

[327]- البقرة 61.

[328] - آل عمران 112.

المغرورون: قال تعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ}329، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}330، وقال تعالى: {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النار هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}331.

العاجلون: قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا}332، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}333.

المتفرقون والمختلفون من بعد البينات: قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}334، وقال تعالى: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}335، وقال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ

---

[329]- الأنعام 70.

[330]- فاطر 5.

[331]- الحديد، 14، 15.

[332]- الإسراء 8.

[333]- مريم، 83، 84.

[334]- آل عمران 105.

[335]- الشورى 14.

يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}336.

ناقضوا العهد: قال تعالى: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}337، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}338.

ناقضوا الإيمان بعد توكيدها: قال تعالى: {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}339، وقال تعالى: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}340.

المنافقون: قال تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ

---

[336]- البقرة 113، 114.

[337]- البقرة 27.

[338]- الرعد 25.

[339]- النحل 91.

[340]- آل عمران 167.

الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}341، وقال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النّاس وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}342.

إذا فعلى من أراد أن يكون خليفة في الأرض أن يكون متعالٍ عن النواقص والشهوات التي تقود إلى المفاسد والمهالك وغضب الله تعالى، وأن يستمد صفاته من صفات خالقه الحسنى فيتعالى عن ارتكاب المظالم ويتعالى عن التلفظ بما لا يليق بمكارم الأخلاق وأن يعمل مخلصا في عمله الذي يُكلّف به ولا يكون مع السافلين في أقوالهم وأعمالهم وأفعالهم وسلوكياتهم ليكون كتابه ومقامه مع العليين لينطبق عليه قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ}343.

5 . مُنعم عليه:

بما أنّنا اعترفنا بمن هو منعم عليه إذا ضمنا نحن معترفون بالمنعم الذي لابدّ وأن يكون أعظم من المنعم عليه، ولذا لا تكون هناك معطيات للمقارنة؛ فهو المنعم المطلق الذي لم يكن له كفؤا أحد.

وبما أنّ هناك منعم عليه إذا لابدّ من وجود نعمة ومنعم يمتلك إيجاد النعمة وأمر التصرف فيها بالمطلق، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ}344.

---

[341]- النساء 138، 139.

[342]- النساء 142، 143.

[343]- المطففين 18.

[344]- مريم 56، 57.

إذا المنعم عليه هو إدريس وغيره من الرّسل الكرام (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ).

والمنعم هو الله تعالى المنعم العظم (أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) أي أن النعمة لا تتحقق إلا بمنعمٍ يمتلك النعمة.

والنعمة مُطلقة غير محددة حيث أنَّ كلّ ما من شأنه أن يُشبع حاجة مادية أو عقلية أو روحية أو نفسية أو ذوقية أو عاطفية فهو نعمة، أي كلّ ما يحقق الشفاء من المرض والحفظ من الضلال والانحراف عن الجادة ويُنقذ غارقا أو مضطرا بغاية الإصلاح والإعمار والبناء والفلاح والمستقبل الذي فيه الأمل الرفيع فهو نعمة، ولهذا النعم لا تُحصى والحاجات التي تستوجب الإشباع لا تحصى ومع ذلك فإن المنعم هو القادر بالمطلق على تحقيق كلّ ذلك وفقا لما نحتسبه ووفقا لِما لا نحتسبه فهو الذي يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء ويرزق من يشاء بغير حِساب، قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[345].

ومن نعم المنعم على خلقه أنّه المؤلف للقلوب والمنقذ من المكائد والكروب مصداقا لقوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ

---

[345] - آل عمران 26، 27.

بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النّار فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}346.

ولأنّه المنعم فقد انعم على إدريس بنعم لا تُحصى ولا تُعد، وإن تساءل سائل:

كيف عرفت أنّ النّعم التي أنعم بها الله على إدريس لا تُعد؟

نقول:

بما أنّه لم يُحدد في الآيات المتعلقة بأمر إدريس نعمة بعينها إذا فكيف لنا أو لغيرنا أن يحددها؟ فهو القائل في كتابه الحكيم: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أُوَلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ).

أي بما أنّه قد رفع إدريس إلى مكانا عليا فهل يحق لنا أن نحصي ما في ذلك المكان العلي من نعم؟

وإذا لم نكن قادرين على عد وإحصاء ما في الأرض وهي الدنيا (البسيطة القليلة) إذا ما قورنت بالعليا العظيمة فكيف لنا بقدرة تمكننا من عدّ أو إحصاء ما في العلاء ونحن لا نعلم بأمره شيئا؟

نِعَم المنعم عزّ وجلّ على خلقه لا تحصى ولا تعد، مصداقا لقوله تعالى، {وَآتَاكُمْ مِنْ كلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}347، ولهذا لِما لا تُذكر نعم المنعم بالشكر والحمد له تعالى على ما أنعمه علينا من نعم وما فضّلنا به من فضائل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

[346]- آل عمران 103.

[347]- إبراهيم 34.

هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}348.

ولذا ينبغي على الأقوام والأمم والشعوب التي أنعم المنعم عليها بالأنبياء والرّسل أن يكونوا خير شاكر لأنعمه تعالى ولهذا كان موسى منبّها لقومه لأن يذكروا الله شكرا وثناء وحمدا على ما بعث فيهم من رُسُل وجعلهم ملوكا مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}349، وهكذا موسى يقول لقومه أذكروا نعمة الله عليكم بنجاتكم من آل فرعون الذين يسومونكم سوء العذاب فيذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}350.

النعمة من المنعم عزّ وجلّ لا تستوجب إلا عبدا شكورا قال تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}351.

ومن نعمه تعالى جعل إدريس عليه الصّلاة والسّلام على الرفعة مكانا عليا (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا).

---

[348]- المائدة 11.

[349]- المائدة 20.

[350]- إبراهيم 6، 7.

[351]- النحل 53، 54.

ولذا فكلّ الأنبياء والرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم منعم عليهم بالطاعة والهداية والتسليم باليقين الذي به تمكنوا من معرفة الحقّ فخرُّوا سُجدا وبكيا.

ولأنّ نعم المنعم لا تحصى ولا تعد فهي على الكثرة المعروفة وغير المعروفة فنعمه في السماوات والأرض منها الظاهر كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر ولرياح والأنهار والبحار والمحيطات وغيرها كثير ومنها الباطن الذي لا نعرفه وهو على الكثرة المطلقة، مصداقا لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النّاس مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ}352.

ولأنّه المنعم بالمطلق فنعمه لا تحصى في الظاهر ولا في الباطن فلله جنود السماوات والأرض (جنود تُرى وجنود لا تُرى) قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}353.

وعليه نقول إنّ أكبر النعم التي يجب أن يُسلِّم بها المخلوق هي:

أن يؤمن بالمنعم تعالى واحدا أحدا وهو الرزاق الكريم في السماوات والأرض، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}354.

---

[352]- لقمان 20.

[353]- الأحزاب 9.

[354]- فاطر 3.

ولأنّه المنعم خلق لنا الأرض مهدا وجعل لنا فيها سُبُلا لنهتدي بها حركة وسكونا، ولأنه المنعم انزل لنا من السماء ماء، ولأنّه المنعم خلقنا أزواجا، ولأنّه المنعم جعل لنا الفلك والأنعام لنركبها وفيها منافع كثيرة، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ}[355].

ولأنّه المنعم فهو الذي أرسل على الكافرين من قوم لوط عليه الصّلاة والسّلام حاصبا شديدا، ولأنه المنعم فهو الذي أنجى آل لوط الذين آمنوا به وشكروه كثيرا على ما انعم عليهم من نعم فالحمد له عزّ وجلّ، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ}[356].

ولأنّه المنعم العظيم فقد انعم على نبيه يونس عليه الصّلاة والسّلام وهو مكظوم في بطن الحوت مصداقا لقوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}[357].

---

[355]- الزخرف 9 . 14.

[356]- القمر 34، 35.

[357]- القلم 48 . 50.

وهكذا، كان فضلة بالنعمة على إدريس الذي رفعه مكانا عليا فجعله مع العليين الكرام من الصدِّيقين والأنبياء والصالحين والمكرمين العظام.

وعلى الخليفة أن يستمد صفاته من صفات المنعم فيكون من الذين من نعمه يتصدقون ويتزكون ويصلحون ولا يفسدون في الأرض وأن يعملوا على استثمار النعم التي انعم بها المنعم عليهم لتزداد حلالا وتوجَّه في سبل الحقّ، ولذا فالخليفة هو من يؤمن أن ما لديه من النعم هي من المنعم تعالى فهو المتقي الله فيها فلا يستغل ولا يستعبد أحدا بها بل كلّ ما زادة عليه نعمة من نعمه شكر المنعم وحمده على فضله وأزداد إيمانا وطاعة وهداية.

المنعم من بيده أمر النعمة وهو المتفضل على ما خلق بالخيرات والنعم التي لا تُحصى في الدارين، ولأنه مالك النعمة فهو المجازي بها عباده الصالحين الذين منهم أنبيائه الكرام صلّى الله عليهم وسلّم، ولأنه المنعم جزاءً لمن يعمل صالحا جاز نبيه إدريس بنعمة كريمة بها رُفع إلى المقامات العظام نبيا مكرما.

المنعم هو مالك النعم والمتصرف فيها بالمطلق الكلّي والجزئي والمتجزئ منه وهو الذي بيده الخير الذي كلّما أتي نعمة منه تضاعفت نعمه سبحانه العلي القدير المغني.

ولأنّه المنعم فهو المتمكن من إيتاء النعمة لمن هو في حاجة إليها سواء أكان مقدِّرا لها ولمنعمها أم كان غير مقدر لذلك فهو المنعم، ولذا، قال تعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ ربّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}358.

358– إبراهيم 7.

والنعم هي كلّ ما فيه خير للمخلوقات سواء أكانت نعم روحية (معنوية) أم مادية (تشغل حيزا ماديا)، ولذلك فالمنعم هو الله الذي أنعم على كلّ ما خلق بما هم في حاجة إليه كي لا يكون فيهم ألما.

ولأنّ باب النعم لا يُقفل فمن يؤمن بالله ورُسُله الكرام ولا يُفرّق بين أحدٍ من رُسُله يجد النعمة بين يديه رحمة واسعة، فليتقي الله ربّه فيما ينعم به عليه ويتوكلّ على الله لأجل فعل الخيرات الحسان ولا يغفل عن ذكر ربّه الكريم الذي انعم عيه بنعم لا تُحصى، قال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرّسول فَأَوّلئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أَوّلئِكَ رَفِيقًا}359.

يفهم من الآية الكريمة السابقة أن من أعظم النعم طاعة الله والرّسول فهي تجعل المطيع لهما في مراتب العليين مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين كما جعل الله إدريس على الرفعة والعلو نعمة وفضل كريم (أَوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ).

المنعم هو مالك النعم والمتصرف فيها بالمطلق الكلّي والجزئي والمتجزئ منه وهو الذي بيده الخير الذي كلّما أتي نعمة منه تضاعفت نعمه.

المنعم هو المتمكن من إيتاء النعمة لمن هو في حاجة إليها سواء أكان مقدّرا لها ولمنعمها أم كان غير مقدر لذلك فهو المنعم، ولذا قال تعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ ربّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}360.

[359] – النساء 69.

[360] إبراهيم 7.

والنعم هي كلّ ما فيه خير للمخلوقات هو نعمة سواء أكانت روحية (معنوية) أم مادية (تشغل حيزا ماديا)، ولذلك فالمنعم هو الله الذي أنعم على كلّ ما خلق بما هم في حاجة إليه كي لا يكون فيهم ألما.

المنعم من أسماء الله الحسنى المستمدة من صفته الإنعامية على ما خلق كما جاء في آيات الذكر الحكيم الآتية:

قال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرّسول فَأُوّلئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوّلئِكَ رَفِيقًا}[361].

يفهم من الآية الكريمة السابقة أن من أعظم النعم طاعة الله والرّسول فهي تجعل المطيع لهما في مراتب العليين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

وعليه نتساءل:

من الذي يستطيع الإنعام؟

إنه المنعم الذي يمتلك النعمة وأمر التصرف فيها أنه ذو الفضل الذي هو على كلّ شيء قدير.

وفي مقابل ذلك من الذين لم ينعم الله عليهم؟

نقول:

هم الذين لم يؤمنوا بالله والرّسول.

---

[361] النساء 69.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا}[362].

من نعم المنعم على عباده أنّه نبّههم على أهمية أخذ الحذر (أخذ الحيطة) من الأعداء الذين يكيدون للمسلمين المكائد ويمكرون بهم مكرا كلّما تهيئة لهم الظروف لذلك، وحثه لهم لأنّ ينفروا فرقا متعددة ومتجمعة وفقا للظرف وما تدعيه الضرورة والحاجة، ولذا فأمر الحروب والاستنفار لها يتطلب تخطيطا عاليا فالأمر ليس هينا فكلّ يتخذ حذره من الآخر، أمّا قوله: (وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا) فهي نعمة التنبيه على الذين يدّعون الإيمان والإسلام ويظهرون الحماس لملاقاة العدو وهم في حقيقة أمرهم غير صادقين فيما يقولون، فيتأخرون ويتباطؤون عن ملاقاة الأعداء، وهؤلاء هم المنافقين والمتشمتين إذا لم يتحقق النصر للمسلمين فيقولون بما يظنون انه محققا للرضا قد انعم الله علينا بعدم المشاركة في القتال الذي كُتب على المؤمنين المسلمين.

ومن نعم المنعم نعمة بعث الأنبياء مبشرين ومنذرين وفاعلين للخيرات ومحرضين على الحقّ واتباعه قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ

---

[362] النساء 71، 72.

فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}363. لقد جاء قول موسى عليه الصّلاة والسّلام لقومه مُظهِرا للاعتراف بنعم المنعم عليهم ببعث الأنبياء فيهم وجعلهم ملوكا وإيتائهم من النعم ما لم يؤت لأحدٍ من قبلهم من العالمين، ومن هذه النعم دخولهم للأرض المقدسة وعدم التردد في دخولها حتى لا تنقلب عليهم النعم نقما، ومع ذلك فلم يأخذوا بما قاله لهم موسى وهو القول الحقّ فخسروا كلّ موجبات الأخذ بالنعم.

ولأنّه المنعم فقد أظهر نعمه على أنبيائه ورُسُله صلوات الله وسلامه عليهم، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ ربّهِ مَرْضِيًّا وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}364.

فمن نعمه جعل إسماعيل صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربّه مرضيا، كلّ هذه نعم من المنعم عزّ وجلّ تعود على إسماعيل والذين آمنوا به فاتخذوا ما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه.

ومن نعمه تعالى جعل إدريس عليه الصّلاة والسّلام على الرفعة مكانا عليا (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا).

---

363 المائدة 20 . 23.

364 مريم 54 . 58.

ولذا فكلّ الأنبياء والرّسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم منعم عليهم بالطاعة والهداية والتسليم باليقين الذي به تمكنوا من معرفة الحقّ فخروا سُجدا وبكيا.

قال تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النّاس وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}365. الخطاب في هذه الآية الكريمة موجه إلى رسول الله محمّد عليه الصّلاة والسّلام بعدما قال لزيد بن الحارثة عندما جاءه ليستأذنه بأن يطلق زوجته فنصحه الرّسول الكريم بألّا يطلق زوجته ويتقي الله فيها، ولكن لرغبة زيد في الطلاق لأسباب هو يعلمها طلقها وبعدما قضت العدة تزوجها رسول الله فكان زواجه بسبب إرادة الله حيث زيد كان متبنيا من قبل رسول الله، وحتى لا يجتهد من بعده مجتهدا بتحريم الزواج ممن كانت زوجات للمتبنين فيسَّر الله ذلك سنة باقية بين المسلمين حلالا طيبا (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا).

وفي الآية الكريمة السابقة كانت المشيئة لإظهار النعمة من المنعم إلى المنعم إليه والمنعم به وفقا للآتي:

1 ـ المنعم: الله تعالى.

2 ـ المنعم عليه: النبي محمّد رسول الله.

3 ـ المنعم به: الزوجة المطلقة، (التي كانت زوجة زيد بن الحارثة).

---

365 الأحزاب 37.

4 . النعمة: التحليل بالخروج من دائرة المحرمات.

وعليه فقد انعم الله على عباده بنعمة التحليل ليميز بين الأبناء من الأصلاب والأبناء بالتبني وما يتعلق بكلّ منهم من أمر، ولهذا فلا ينبغي أن يبدل أحدا نعمة أنعمها الله عليه، ومن يبدلها فقد يلاقي آثام، قال تعالى: {وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}366.

قال تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}367.

نِعم الله واسعة فلا تُحصى ولهذا النعمة غير محددة بنوعية معينة في هذه الآية (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) فكلّ شيء فيه خير هو نعمة من نعمه التي لا تحصى مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}368، ومن هذه النعم:

أوّلا . نعمة الحياة وما فيها، ومنها:

1 . نعمة الخلق في أحسن تقويم.

2 . نعمة العقل والقدرة على التوازن.

3 . نعمة الحواس:

أ . السمع.

---

[366] البقرة 211.

[367] البقرة 231.

[368] إبراهيم 34.

ب . البصر.

ج . اللسان.

د . الشم.

هـ اللمس.

4 . نعمة النفس وما تحس به تجاه الآخرين من مشاعر اجتماعية وإنسانية من تعاون وإحسان وعمل وفعل وردة فعل وإقدام وإحجام وجهاد وتمتع وظاهر وباطن وتقبل وتفهُّم وتفاهم ورفض وتوافق وتكيف ورضا وعدم رضا تجاه الأنا والآخرين الذين تكمن فيهم أو تتوجه إليهم مجموعة من المشاعر منها:

أ . مشاعر الأبوة.

ب . مشاعر البنوة.

ت . مشاعر الأخوة.

ث . مشاعر الزوجية.

ج . مشاعر العمومة والأخوال.

ح . مشاعر الجيران وبني الوطن والأمة.

خ . مشاعر المؤيد.

د . مشاعر المعارض.

ذ . مشاعر المخاصم.

5 . نعمة الرزق: الذي يؤخذ كلّ نصيب منه وفقا للحاجة ومشبعاتها.

6 . نعمة اصطفاء الأنبياء والرّسل مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخيرات الحسان وداعين إليها.

7 . نعمة الحكمة التي تؤتي لمن يشاء.

8 . نعمة العلم الذي يؤتي لمن يشاء وكذلك العلم الذي يتم تعلمه مكسبا وفائدة لمن يود أن يكتسب ويستفيد وينتفع وتتحسن أحواله وأقواله وأعماله وأفعاله وسلوكياته ومعارفه وأساليبه.

9 . نعمة الملك الذي هو الآخر يؤتى إيتاء ويتم التمكن منه بإرادة حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي.

10 . نعمة السلطان الذي يُجعل لمن يشاء قال تعالى: {وَقُلْ ربِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا}[369].

11 . نعمة الاستخلاف في الأرض لمن يستمد صفاته وأفعاله من صفات وأفعال خالقه ليصلح فيها ولا يفسد ولا يسفك الدماء فيها بغير حقّ.

12 . نعمة العدل بين النّاس.

13 . نعمة الماء سحابا ومطرا وينبوعا وبحرا ونهرا ومحيطا وبحيرة وسيلا نافعا.

14 . نعمة خلق الأنواع ليكون التنوع رحمة بين المخلوقات من الإنس والملائكة والجن، والطير والدواب والزواحف والنباتات والأسماك وغيرها ممّا لم نذكر من الأنواع.

---

[369] الإسراء 80.

15 . نعمة الإيمان والإسلام طاعة لله المنعم ربّ العالمين واحدا أحدا له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير.

16 . نعمة الرّحمة التي لا تستمد إلا من الرّحمن الرّحيم، ولذا فكما أنّ الرّحمة تستمدّ من الرّحمن الرّحيم كذلك النعمة لا تستمد إلا من المنعم العظيم.

17 . نعمة السماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وما فيها ممّا نعلم وممّا لا نعلم.

ثانيا . نعمة الممّات راحة من كلّ عناء وألم فهي النهاية في الدار الدنيا لكلّ من خلق، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحمن مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كلّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}370.

[370] الملك 1 . 14.

ثالثا ـ نعمة البعث: قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاما فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}371.

رابعا ـ نعمة الفوز بالجنّة: قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أوّلئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}372.

وعليه فإن وراء كلّ النعم التي ذُكرت والتي لم تُذكر منعم يمد المنعمين بها ليتنعموا بخيراتها في حياتهم ومماتهم وبعثهم وهو على كلّ شيء قدير سبحانه لا إله إلا هو.

ومن نعم المنعم على خلقه أنه المؤلف للقلوب والمنقذ من المكائد والكروب مصداقا لقوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النّار فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}373.

---

[371] المؤمنون 12 ـ 16.

[372] آل عمران 133 ـ 136.

[373] آل عمران 103.

ولأنّه المنعم فنعه على خلقه لا تحصى ولا تعد، قال تعالى، {وَآَتَاكُمْ مِنْ كلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}374، ولهذا لِما لا تُذكر نعم المنعم بالشكر والحمد له تعالى على ما أنعمه علينا من نعم وما فضلنا به من فضائل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكلّ الْمُؤْمِنُونَ}375.

ولذا ينبغي على الأقوام والأمم والشعوب التي أنعم المنعم عليها بالأنبياء والرّسل أن يكونوا خير شاكرا لأنعمه تعالى ولهذا كان موسى منبه لقومه لأنّ يذكروا الله شكرا وثناء وحمدا على ما بعث فيهم من رُسُل وجعلهم ملوكا مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}376، وهكذا موسى يقول لقومه أذكروا نعمة الله عليكم بنجاتكم من آل فرعون الذين يسومونكم سوء العذاب فيذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ ربّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ تَأَذَّنَ ربّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}377.

---

[374] إبراهيم 34.

[375] المائدة 11.

[376] المائدة 20.

[377] إبراهيم 6، 7.

النعمة من المنعم عزّ وجلّ لا تستوجب إلا عبدا شكورا قال تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}[378].

ولأنّ نعم المنعم لا تحصى ولا تعد فهي على الكثرة المعروفة وغير المعروفة فنعمه في السماوات والأرض منها الظاهر كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر ولرياح والأنهار والبحار والمحيطات وغيرها كثير ومنها الباطن الذي لا نعرفه وهو على الكثرة المطلقة، مصداقا لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النّاس مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ}[379].

ولأنه المنعم بالمطلق فنعمه لا تحصى في الظاهر ولا في الباطن فلله جنود السماوات والأرض (جنود تُرى وجنود لا تُرى) قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}[380].

وعليه نقول أنّ أكبر النعم التي يجب أن يُسلِّم بها المخلوق هي:

أن يؤمن بالمنعم تعالى واحدا أحدا وهو الرزاق الكريم في السماوات والأرض، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}[381].

---

[378] النحل 53، 54.

[379] لقمان 20.

[380] الأحزاب 9.

[381] فاطر 3.

ولأنّه المنعم خلق لنا الأرض مهدا وجعل لنا فيها سُبُلا لنهتدي بها حركة وسكونا، ولأنه المنعم انزل لنا من السماء ماء، ولأنه المنعم خلقنا أزواجا، ولأنه المنعم جعل لنا الفلك والأنعام لنركبها وفيها منافع كثيرة، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ}382.

ولأنّه المنعم فهو الذي أرسل على الكافرين من قوم لوط عليه الصّلاة والسّلام حاصبا شديدا، ولأنّه المنعم فهو الذي أنجى آل لوط الذين آمنوا به وشكروه كثيرا على ما انعم عليهم من نعم فالحمد له عزّ وجلّ، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آَلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ}383.

ولأنّه المنعم العظيم فقد انعم على نبيه يونس عليه الصّلاة والسّلام وهو مكظوم في بطن الحوت مصداقا لقوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}384.

---

[382] الزخرف 9. 14.

[383] القمر 34، 35.

[384] القلم 48. 50.

وعلى الخليفة أن يستمد صفاته من صفات المنعم فيكون من الذين من نعمه يتصدقون ويتزكون ويصلحون ولا يفسدون في الأرض وأن يعملوا على استثمار النعم التي انعم بها المنعم عليهم لتزداد حلالا وتوجّه في سبل الحقّ، ولذا فالخليفة هو من يؤمن أن ما لديه من النعم هي من المنعم تعالى فهو المتقي الله فيها فلا يستغل ولا يستعبد أحدا بها بل كلّ ما زادة عليه نعمة من نعمه شكر المنعم وحمده على فضله وأزداد إيمانا وطاعة وهداية.

6 . مُجتبى:

الاجتباء لا يكون إلا من الله تعالى لأنبيائه ورُسُله الكرام صلّى الله عليهم وسلّم، إنه اجتباء مهمة نبأ عظيم أو رسالة خالدة ليكون الأنبياء بما أنبئوا أو أرسُلوا به مبشّرين وداعين وهادين ومنذرين بالحقّ من أجل إحقاقه وإزهاق الباطل.

وعلى هذه القواعد الكريمة تم اجتباء إدريس نبيا؛ فأنعم الله عزّ وجلّ عليه بالاجتباء نعم كثيرة مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا}385.

فقوله تعالى: (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) تدل على أن اجتباء إدريس هو اجتباء أنبياء لأجل مهام يراه الله خير من يقوم بها إدريس في الأرض التي أجتبي إليها إدريس نبيا.

[385] – مريم 56 . 58.

ولأنّ الاجتباء من الله فهو اجتباء تعظيم لمهمات وأدوار ومسؤوليات جِسام ونبأ عظيم لا يقدر عليها إلا من يُجتبى إليها اجتباءً.

والاجتباء للأنبياء والرّسل هو اجتباء عن غير اخذ رأي من المجتبيين الأكارم، فهم الذين تتوفر فيهم معطيات الفضائل الخيِّرة في مرضاة الله عزّ وجلّ.

7. مهدي:

هو من وُجِّها هداية بالحقّ من اجل الحقّ، وهو الذي من ورائه الهادي الأعظم الذي جعله مهديا على هدايته.

وبما أنّ المهدي لا يكون إلا بهادٍ أعظم إذا لابدّ وان تكون هناك هداية تُفعل بالقوّة والقدرة، وإلا بماذا سهدي الهادي من يُهدى؟

الهادي يهدي بالهداية التي تُفعل بالقوّة والقدرة لتكون كما يشاء لها أن تكون عليه.

الهادي: "مُبيِّن الرُشد من الغي"[386]. وهو "الله سبحانه وتعالى الهادي إلى الصواب"[387]

ولذا؛ فالهادي مالك الحقّ، والمرشد إليه، ومالك القوّة والمرشد بها، ومالك القدرة والمسيِّر بها؛ ولأنه الهادي فلا يهدي إلا للتي هي أحسن وأنفع وأفيد وأجود وأقوم وأعظم.

---

[386]- التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي، ج 1، ص 679.

[387]- فتح الباري ابن حج ر، ج 13، ص 344.

ولأنّه الهادي فهو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية حق بالفعل الحقّ قوّة وقدرة.

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا}388.

يُفهم من الآيات الكريمة السابقة أن إدريس من الذين هداهم الهادي المطلق بواسع هدايته وفضله، (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا) أي من الذين تم توجيههم بالحقّ إلى الحقّ فهم على الرشاد الذي به يُميزون بين المفضل والأكثر تفضيلا وبين الخير والأكثر خيرا وبين الموجب والأكثر وجوبا وهم الفاعلون للخيرات الحسان وهم المؤمنون حقا الذين على الدرجات العلا وهم الوارثين في الدارين فأوّلئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وعلينا أن نميّز بين المهدي وبين المهتدي:

المهدي هو من كان على الهداية من الهادي المطلق، أي وكأنه مخلوق على الهداية خلقا بأسباب مشيئة شاءها الله لعبد من عباده ليكون على الهداية قولا وفعلا وسلوكا وعملا.

أمّا المهتدي فهو من عرف وتبيّن حتى أدرك الحقّ من الباطل فتخلى عن الباطل وتمسَّك بالحقّ واسترشد به سبيله فكانت له الهداية بالحقّ

[388] - مريم 56 . 58.

من أجل الحقّ وإحقاقه، قال تعالى: {فَمَنْ تَبعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}389.

ولذا؛ فالفرق كبير بين من كان على الهداية أصلا، وبين من اهتدى بعد ضلال أو انحراف أو غفلة أو جهل أو كفر وشركٍ.

ولهذا؛ فإدريس كان على الهداية أصلا فهو لم يكفر ولم يُشرك ولم يضل السبيل الحقّ، بل كان على الهداية التي جنَّبته كلّ ذلك حتى وصفه الله بأنّه على الهداية بقوله تعالى: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا).

وعليه فالهادي هو مغير الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كلّ شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ}390 وهو منزّل نصوص وحِكم وكلّم الهداية إليهم حتى لا يضلون وإن ضل بعضهم فإنّ الهداية من ورائه تلاحقه بالفعل وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

والهداية تكون على معنيين:

. أحدهما بمعنى الإيضاح والإرشاد يقال: أهديت فلانا الطريق أي أرشدته إليه.

---

[389]- البقرة 38.

[390] - الإسراء 97.

. والآخر بمعنى التوفيق قال الله عزّ وجلّ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[391] أي أنك لا تستطيع أن توفق للهداية من أحببت، ولكن الله يوفق من يشاء ولا يجوز أن يريد به هاهنا الإرشاد والإيضاح؛ لأنّه لا خلاف بين المسلمين أنّ النبي أرشد وبين وأوضح وبلَّغ من يحب ومن لا يحب، فبيَّن بذلك هدي الرسالات السماوية التي قبله، والرسالة التي جاء بها، إذ لا خلاف أنّ الدين عند الله الإسلام، وجميع الرسالات السماوية كلّها مصدرها الهادي وهنا نستطيع أن نقول أنّ هدي النبي عليه الصّلاة والسّلام هدي تكلّيف، وأمّا بالنسبة للمبلَّغين فهديهم هدي اختيار لما دلت عليه الآية الكريمة، فالرّسول هو الخليفة الهادي بالإضافة، ولأنّ الهادي هادي الطريق، والهدى واحد من الطرق التي تؤدّي إلى النجاة، فكان الخليفة يأخذ بالمهتدين به إلى نجاتهم وفوزهم، وأمّا الفتنة فمعناها الامتحان والاختبار إلا أنّها مستعملة في عرف التخاطب بمعنى الخذلان، يقال: فُتن فلان إذا أخذل وضل، ويدلّ على صحة هذا التأويل أنه قال الهادي بمعنى الموفق فمعناه والله أعلم أنه الموفق بفضله، والخاذل لمن شاء بعدله لا إله إلا هو الفعال لما يريد.

ولأنّه لولا الهداية التي من وراءها هادي ما كان المهتدين جاء هدي الهادي لنبيه إدريس ليكون على الهداية التي يُريدها الله تعالى لعباده الصالحين ورُسُله الكرام صلّى الله عليهم وسلّم.

ولأنّ الأنبياء والرّسل هم أنبياء ورُسُل هداية بعث الله أنبياءه ورُسُله إلى شعوبهم وأقوامهم وعشائرهم ولقراهم ولأممهم وللكافة فكان من بين هؤلاء الأنبياء العظام إدريس مهدي على الحقّ بالحقّ. وفي مقابل

[391] - القصص 56.

الهداية كان الضلال وأهله الذين استحبوا العمى على الهدى. قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}392 وحب العمى عل الهدى انصراف بالكلّية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، أي من طريق الهداية إلى طريق الضلال فكان الابتعاد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وللهداية أربّعة أنواع:

1- هداية دلالة.

2- هداية معونة:

3-هداية تسديد:

4- هداية تأييد:

1-هداية الدلالة: بما أنّ الله الهادي فقد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهتدوا وأعطاهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل الهداية من عقل يربّط بين الأشياء قياسا ومنطقا واستدلالا ونتيجة واقتناعا وسلوكا واقتداء وتأثيرا وتأثرا، فمن قبل وعمل استحق النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة.

2- هداية المعونة بأن يعينه الله ويثبته على الهداية.

3- هداية تسديد للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدي الصحيح ويدخل في ذلك النوع المستخلفين فيها.

---

[392]- فصلت 17.

4- هداية تأييد للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم كما هو حال هدايته لسيدنا إدريس.

ونحن نقول: أنّ الهداية هي حق وجب لكلّ مخلوق ممن ذكرنا، فمن منع ذلك فقد ظلم وأساء، وإن كانت الهداية والإرشاد والعصمة والتوفيق هي حق من حقوق الله تعالى فإنه يختص برحمته من يشاء، وهنا يجدر القول: أنّ الله سبحانه وتعالى كتب الهداية لمن علم أنّه سوف يأخذ بأسبابها ويتوصل بتلك الأسباب إلى الهادي، فكتبه من المهتدين لعلمه بأنّه سوف يفعل ذلك وهو بالتمام كما هو حال إدريس، وأمّا الذين اتخذوا طريق الغي سبيلا، فينسحب عليهم ما انسحب على أصحاب الهدى من علم الله المسبق بما سوف يعملون قبل أن يعملوه فكتبهم من الضالين البعيدين عن طرق الهدى وسبل الرشاد، وعلى هذا فيكون خلق فعل الضلال من الله تعالى، كما أن خلق فعل الهدى منه سبحانه، وعلى هذا فإنّ خلق الفعلين من الله تعالى، وأمّا اختيار أحد الفعلين والسير في طريق أحدهما دون الآخر فهو اختيار المخلوقين؛ لأنّ الله تعالى ما كان ظلاما للعبيد، وبعبارة واضحة ومثال بسيط نقول: من بين عدد من طلابك مثلا قلّ العدد أو كثر، تعرف طالبا منهم أنّه مجتهد ومتابع وحريص على علمه، فعندما تسأل عنه تقول إنه ناجح على الرغم من أنّ بينه وبين الامتحان أيام وشهور، فأنت أصدرت حكما صادقا قبل زمن وقوع فعل النجاح لعلمك المسبق بما سيكون عليه مستقبلا، وعلى العكس من هذا يكون طالب مهمل، ويقال لك هل هذا ناجح، فتجيب بكلّ بساطة: أتريد أن ينجح من هو راسب، وهذا الحكم أيضا قبل وقوع الفعل، والآن نستطيع أن نفهم قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}393 فالله تعالى أركسهم ولكن بما كسبوا، وهنا لا يسوغ الاختلاف في شأن هؤلاء أهم مهتدون أم ضالون، وهم قابلون لأن يكونوا مهتدين أم لا ترجى منهم هداية، فقد قُلبت مداركهم بما اكتسبوا من أعمال، جعلت الشر يتحكم فيهم وما كان لك أن تتوقع هداية من قَدَّر اللّه في علمه الأزلي أنه لن يهتدي، ولذا فمن يُكتب في علم الله الأزلي ضلاله، فلن تجد طريقا لهدايته، وبهذا المفهوم على ما نعتقد وإن شاء الله نكون من أصحاب السداد فيما نقول: أن الله تعالى بعلمه الأزلي حكم على مجريات الابدّ بما كان وبما سيكون، ومن هنا لا أحد يستطيع أن يفعل حيال نفسه شيئا ممّا قدر عليه بفعل نفسه وتم به القضاء ولا أحد أيضا يضل نفسه ولا يضله غيره من المخلوقين وإنما المضل الهادي هو الله وحده دون جميع خلقه من الإنس والجن والملائكة والشياطين وسائر الخلق أجمعين ومن نسب إليه منهم ضلال فإنما نسب إليه مجازا لا حقيقة إذ كان هو السبب الظاهر للخلق كما قال تعالى: {قَالَ فإنا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}394 فقد قال تعالى وأضلهم السامري، حيث كان هو المدبر في الفتنة والداعي إلى الضلال بعبادة العجل الذي أبعدهم في هذا الفعل عن طريق الهدى الذي كانوا عليه، فأضاف الإضلال إلى السامري لأنه كان حصل بتقريره ودعوته، وأضاف الفتنة إلى نفسه عزّ وجلّ لحصولها بفعله وقدرته وإرادته وخلقه، وعلى هذا يكون إضافة الأشياء إلى أسبابها ومسبباتها، فلا يجوز أن يكون المراد أنّ الله تعالى خلق فيهم الضلال وأبعدهم عن الهدى، وذلك لأن الدلائل العقلية والمنطق السليم يعارض ذلك، فلا

[393] - النساء 88

[394]- طه 85.

يجوز من الله هذا الفعل من الجانب العقلي، ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامري فيه أثر وكان يبطل قوله (وَأَضَلَّهُمُ السامري) وأيضا فلأن موسى عليه الصّلاة والسّلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة فقال: {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن ربّكُمْ}395 فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه أنّ الله خلقه فينا لا ما ذكرت، فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام وأيضا فقال تعالى: (أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن ربّكُمْ) ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له، ولذلك قال فتنّا قومك وأضلهم السامري، وذلك لأن الفتنة هنا بمعنى الامتحان، فهنا شدَّد الله التكلّيف عليهم وذلك لأن السامري لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلّفين بأن يستدلوا على الهداية بأنفسهم بما امتلكوا من أسباب تلك الهداية وقد كانوا عليها قبل الفتنة.

وعليه: فإنّ جميع المسببات العادية تضاف إلى أسبابها المؤثرة فيها في الظاهر، ومثل هذا أيضا ما جاء في قوله تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}396 وهنا تتجلى هداية التأييد من الهادي التي تمثلت بالفضل، فلولا أنّ الله تفضَّل على نبيه بالوحي ورحمه بالإدراك النافذ، لأرادت طائفة منهم السعي إلى الإضلال، ولكنهم لا يضلون إلا أنفسهم، لأن الله أطلع نبييه على تدبيرهم، وجعل بصيرته نافذة إلى الحقّ، فلا ضرر عليه من تدبيرهم

[395]- طه 86.

[396]- النساء 113.

وتضليلهم، وقد أيده الله تعالى بنور الهداية بما أوحى إليه من القرآن الكريم الذي هو ميزان الحقّ ومصباح الهدى وسبيل الرشاد، وأودع قلبه الحكمة وعلمه من الشرائع والأحكام ما لم يعلمه إلا بوحي منه، حيث كان ضمان الهداية من الله تعالى مخاطبا نبيه: إنَّ فضل الله عليك عظيم بما أنعم عليك من مصابيح الهدى في توخي طريق العدل كما أنعم بها على إدريس من قبلك فرفعه الله مكانا عليا، مكانا لا يعلمه إلا الله ونحن لا نعلم منه إلا أنّه على العلوِ والرفعة التي تنبئ على التفضيل والمكانة المرموقة في رعاية الله وحفظه.

ولذا؛ فإنّ مردُّ ذلك إلى هداية الله تعالى وحكمته في أنه يعصم المؤيدين بالهدى ممن يحاول إضلالهم، فمن تولاه الله بفضله وشمله بإحسانه وكفاه غائلة من أراده بسوء فلا سبيل إلى فتنته أو إبعاده عن الهداية التي قضاها الهادي جل شأنه له.

ومن أدوات الهداية الدلالية: الآيات الكونية ومنه الشمس والقمر والنجوم والبحار والسماء والأرض والنبات وغير ذلك تدل كلّها على أنّه الواحد الأحد قال الله تعالى: {إِنَّ ربّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا ربّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فأنزلنا بِهِ

الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}397.

ومن الشواهد التي تصل بالمرء إلى الهداية عن طريق التأمل الخارجي للوصول إلى الحقّ من كلّام الله تعالى قال الله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يؤمنون}398. فقوله: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) الله سبحانه وتعالى أخرج النّاس من بطون الأمهات واستثنى من ذلك آدم عليه الصّلاة والسّلام، وقد فطر الله الإنسان على الفطرة التي هي كما أسلفنا الهداية الدلالية، وفي مرحلة الفطرة جعل الله الإنسان خاليا من العلم والمعرفة لا يهتدي سبيلا ثم وضع له أدوات للهداية الذاتية التي لا يفترق فيها إنسان عن آخر فقال تعالى: (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) فالله سبحانه وتعالى إنما أعطاكم أيها النّاس هذه الحواس لتهتدوا بها من الجهل إلى العلم، فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب وقول الحقّ، والسنة وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها وتهتدوا إلى ما يصلحكم في أمر دينكم، وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته ومعجزاته، وغرائب مخلوقاته، فتستدلوا بها على واحديته وتهتدوا إليه طائعين غير عاصين. وجعل لكم الأفئدة لتعقلوا بها وتدركوا القول الحقّ والفعل الحقّ، وتفهموا معاني الأشياء التي جعلها دلائل واحديته، فالله الهادي خلقكم في بطون أمهاتكم وسوَّاكم وصوَّركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة،

397- الأعراف 54- 57.

398- النحل 78 – 79.

من ضيق الأحشاء إلى سعة الأنحاء، وجعل الحواس أدوات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به، ومن آمن به واهتدى إلى سبيله كان من المستخلفين فيها.

وقوله تعالى: (لعلكم تشكرون) الله سبحانه وتعالى خلق هذه الحواس للوصول إلى الهداية الحقّيقية إلى الله وإنعام الله على الإنسان بهذه الحواس ليستعملها في شكر من أنعم بها عليه، ثم نجد دليلا كونيا ليهتدي به المتأمل في خلق الله (ألم يروا إلى الطير مسخرات) مذللات طائعات لله الذي هداها لسرِّ الطيران بأبسط الوسائل التي تفوق قدرة الإنسان، وإن حاول أن يحاكيها فلا شك إنّه لن يصل إلى قدراتها التي ذللها الله لها (في جو السماء) في الجو وفي الفضاء الواسع بين السماء والأرض وهو الهواء المعد كميدان مناسب لطيرانها (ما يمسكهن إلا الله) يعني في حال قبض أجنحتها وبسطها في جو السماء، وهذا حث على الاستدلال بها على أنّ لها مسخرا سخرها، ومذللا ذللها، وممسكا أمسكها في حال طيرانها ووقوفها في الهواء، وهو الله تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) وقد أفرد وخصص المؤمنين بالذكر؛ لأنّهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم فيهتدون.

ولأنّه لا مهدي إلا ومن وراءه هاديا له لذا جاء إدريس مهديا على هدا من الهادي الذي "بصّر عباده وعرّفهم طريق معرفته حتى أقروا بربّوبيته وهدى كلّ مخلوق إلى ما لابدّ له منه في بقائه ودوام وجوده، والهدى ضد الضلال وهو الرشاد والدلالة"399.

399 – لسان العرب، ج 15، ص 353.

إذا الهدى من الهادي وهو الطريق الحقّ كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى}400 أي أنّ الله سبحانه وتعالى بمقتضى حكمته بيَّن طريق الهدى من طريق الضلال، وأعطى كلّ خلق رشده وهداه كما أعطاه خلقه ورزقه، فما كان لله تعالى أن يخلق خلقه دون المتممّات التي أوجد من أجلها هذا الخلق الذي وجد أصلا للعبادة: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}401، فالعبادة بالضرورة تحتاج إلى هداية من أجل التعرُّف عليها وعلى كيفيتها وشروطها وأوقاتها ومواقيتها، فالذي يهدي إليها هو الهادي تبارك وتعالى، وحيث إنه خلق الخلق للعبادة فالضرورة تقتضي أن يُبيِّن لهم طريق الهدى وما يؤدّي إليه من صلاح ورشاد، وبهداه أيضا يبيِّن لهم نقيض ذلك من طريق الغي والضلال وما يؤدّي إليه من الهلاك، وقد فعل ذلك بما تقتضيه الحكمة الإلهية رحمة بالعباد من جهة، وحتى يقيم عليهم الحجّة من جهة أخرى، وقد بيَّن الله تعالى حال من سلك كلّا من الطريقين رغبة أو رهبة، ومن هنا يظهر لنا أن الهداية هي مظهر من مظاهر الدلالة على الحقّ بما يتوصل به إلى البغية والمنال، فالله الهادي ضمن الهدى لعباده بوسائل أمّنها لهم في خلقهم وتكوينهم من أجل أن يستدلوا على الهادي، فهدى الإنسان بالإرشاد إليه عن طريق وسائل حسية وإدراكية، خارجية من حيث الآيات المبثوثة في هذا الكون الرحيب، أو داخلية ممّا يتمتع به الإنسان من قدرات خَلقية ظاهرة وباطنة، فالظاهرة هي الجوارح من الحواس، والباطنة هي الإدراكات النفسية والعقلية والذهنية، والجمع بين هذه وتلك يكون الإنسان قد استوفي حقه من الهادي من وسائل الهدى، وبالتالي لأن

400 – الليل 12.

401 – الذاريات 56.

الهادي عزّ وجلّ منح وأعطى فيكون قد أقام الحجّة على الذين لا يهتدون لذلك قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}402 فبنور العقل وإدراك الحس والجمع بين الدلالة العقلية التي تأتي عن طريق الفكر والتأمل، والدلالة السمعية التي جاء بها الخبر الصادق والجمع بينهما يؤدّي إلى التمكين من جانبي الدلالة وصولا إلى الهدى من أجل الاستدلال على الهادي واستبصاره. ولذا فمن استبصر ربّه وتمعّن في آياته وشاهد ولاحظ الحركة والمتحركات وسكونها والعلاقات بينها ليس له بدا إلا أن يتدبر أمره وهو على بيّنة بما يلاحظ ويشاهد من معجزات عظيمة مثل هؤلاء هم الذين يوصفون بالعليين الكرام وهم الذين من بينهم إدريس الذي رفعه الله مكانا عليا وهداه كما يشاء لِما يشاء فكان صدِّيقا نبيا على الرفعة والمحبّة التي بها كان مهديا، قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}403 فمهما تكن شديد الحرص على هداية أحد تحبه، فإنك لا تستطيع أن تُدْخل الهدى إلى عقله أو الإيمان إلى قلبه، ولكن الله يهدى للإيمان من علم فيه قبول الهداية واختيارها، وهو الذي يعلم علما ليس فوقه علم من سيدخل في صفوف المهتدين، فالبعيدون عن الهدى يقولون ذلك بأنّ الله تعالى وهو الهادي إلى سبيل الرشاد لم يرد لهم الهداية وأنّ الضلال والغي مكتوب عليهم، والأمر هنا على وجهين:

الوجه الأوّل: إنّ الله سبحانه وتعالى ما أراد شرا بالعباد وحاشا لله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، ذلك أن الخالق عزّ وجلّ أعطى الإنسان عقلا مميزا، وبين له الخير والشر والهدى والضلال، وبين كذلك

---

[402]- البلد 8- 10.

[403]- القصص 56.

المسالك والمعابر والطرق والدروب التي تؤدّي إلى كلّ واحد ممّا ذكرنا، وبهذا فإن الله تعالى أقام الحجّة على الخلق وتبرأ من الظلم حيث قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}404 ومن هذه الآية يتضح لنا الوجه الثاني.

الوجه الثاني: وهو قضية العلم، فالإنسان مع عقله ووضوح رؤيته وتمييزه بين الصالح والطالح فقد ترك طريق الهدى واتخذ الغي سبيلا، وأمّا الآخر فبعقله وتمييزه ووضوح رؤيته اختار الهدى أيضا واتخذه سبيلا، فبعلم الله المسبق لِما سيقع قبل وقوعه كتب هذا من الأشقياء الضالين، وكتب ذاك من السعداء المهتدين، وعلى هذا فعلمه تعالى سابق على القدر بما ستكسب أيدي النّاس، وبما أنّ الله تعالى هو خالق الخلق، فهو أعلم بهم وبما سيفعلون وبما سيعملون قبل أن يفعلوه وقبل أن يعملوه؛ ولأن علم الله بهم سبق أفعالهم وأعمالهم لذلك سبق على خلق كلّ واحد منهم كتابه الذي كتبه عليه، قال تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}405، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}406 فالله سبحانه وتعالى لم يرد ظلما بالعباد، ولذلك بث آياته الدالة على وجوده ليهتدي إليها الخلق ومن خلالها يهتدون إلى الخالق، وهي الحجج والبراهين الساطعة التي يوضح الله بها الحقّ، ويدفع بها الباطل من بعثه الأنبياء والمرسلين، فالله سبحانه وتعالى أمّن ضرورات الهداية لخلقه من الأسباب التي عن طريقها تتم معرفة الهدى وصولا إلى

---

[404] - آل عمران 182.

[405]- التوبة 51.

[406]- المجادلة 20، 21.

الهادي، وضرورة الخلق إلى معرفة الحقّ عن طريق الهدى ودين الحقّ فوق كلّ ضرورة، وحاجتهم إليه فوق كلّ حاجة؛ فإنّه لا سبيل إلى معرفة الطيِّب من الخبيث، والصحيح من السقيم، من الاعتقادات والأقوال والأفعال والأحوال على التفصيل إلا من جهة الهداية، ولا سبيل إلى الفوز بالسعادة في المعاش والمعاد إلا من النبوّة والرسالات وما جاء به الأنبياء والرّسل من الكتب التي تحمل الهداية.

وبالإضافة إلى آيات الهادي المبثوثة في هذا الكون التي تهدي الخلق إلى الصراط المستقيم، فقد أرسل الله الأنبياء والرّسل دعاة إلى سبيل رشاده وهداه مبيّنا لهم بما آتى أنبياءه من الكتب، وهي الحُجج والبراهين الساطعة التي يوضِّح الله بها الحقّ، ويدفع بها الباطل، فأنزل مع الرّسل الكتاب الذي فيه البيان والهدى والإيضاح، وأنزل معهم الميزان، وهو العدل الذي ينصف به المظلوم من الظالم، ويقام به الحقّ وينشر به الهدى ويعامل النّاس على ضوئه بالحقّ والقسطاس المستقيم، وبهذا فإنّ الله تعالى قد أوجد ضرورات الهدى لخلقه عن طريق الرسالات والأنبياء، إضافة إلى آيات الكون المبثوثة أمّام أعين الخلق، ذلك أن ضرورة الخلق إلى معرفة ما جاء به الرّسل والأنبياء من الهدى ودين الحقّ فوق كلّ ضرورة، وحاجتهم إليه فوق كلّ حاجة.

ومن الخلق من تتوفر له الوسيلة لكي يرى نور الهدى والإيمان ويقتنع بذلك في عقله ولكن قلبه غير مطمئن، وهؤلاء أصحاب الأهواء أو من الذين يستعلون على الآخرين كونهم على هدى فيفعلون بعد ذلك ما يبدو لهم أنه الصواب قال تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ}[407]، فدل ذلك على أن عدم التكلّم

[407]- الأعراف 148.

والهداية نقص، وأن الذي يتكلّم ويهدي أكمل ممن لا يتكلّم ولا يهدي، غير أن المهتدي الذي يقف على حقيقة الهادي يعمل بحقيقة الهدى على الوجه الأكمل، فيؤثر بعمله الخيرات، ولا يدع الشهوات تتسربّ إلى رشاده، ويكون عقله مرشدا له، فيعصمه من الردى، ويلجم هواه عن الفواحش، ويطلق سجيته في المكارم حتى يبرّ نفسه ويكون من المهتدين، فمن استظهر اليقظة انتفع بها ونال ما أراد.

قال الله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}408والمقصود في هذه الآية الكريمة حقيقة الإنسان نفسه لسببين:

أوّلهما: أنّه من الذين يدبون على الأرض.

وثانيهما: أنّ الدواب هم من البكم حقيقة، ولهذا فالخطاب موجه لبني البشر، أو لبعض منهم، لأنهم يتصاممون ويتباكمون عن الحقّ والهدى، ولو كانوا صمّا بكما وكانوا هم لا يعقلون، لما عيرهم بذلك، فالله سبحانه وتعالى لم يُعر من خلقه معتوها لم يعقل، ومن خلقه أعمى لم يبصر، وكما لم يَلُمْ الدواب، ولم يعاقب السباع، ولكنه سمى البصير المتعامي أعمى، والسميع المتصامم أصم، والعاقل المتجاهل جاهلا.

ونحن لا نقول إنّ طريق الهداية إلى الهادي مقتصر على العقل فحسب، ودليلنا على ذلك أننا نرى أُناسا من أعقل النّاس وعباقرة البشرية بعيدون كلّ البعد عن الهدى، وذلك لاعتمادهم على قدرة القوّة العقلية الخالصة، وهذا يعني استنارة العقل وفراغ القلب كما قال تعالى: {فإنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

408- الأنفال 22

الصُّدُورِ}409 فموجبات الهدى إلى الهادي إضافة إلى العقل، هي القلوب التي في الصدور حيث يصل بها الإنسان إلى يقين ما يؤمن به، وعلى هذا يكون يقين الإيمان العامر في القلب هو دليل العقل إلى الهدى، ولو لجأنا نلتمس الهدى عن طريق قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربّنا، بما أدركته حواسنا، وشاهدته نفوسنا، إذا لقلّت المعرفة بالهادي، وقصرت الهمة عن إدراكه، وضعف الاجتهاد في كنهه، فيعتقم بنا الرأي ويموت الخاطر، ويتبلد العقل، ويستبد بنا سوء الظن، ولذلك كانت رحمة الله الواسعة أن أنعم على عباده بالتبليغ عن طريق الرّسل والأنبياء وما آتاهم من الرسالات التي فيها الهدى والرّحمة، والإخبار عن كلّ عبرة، وتعريف كلّ سيئة وحسنة، وبث آيات الهدى للإنسان من المخلوقات على اختلاف أنواعها من الحيوانات والنباتات والجمادات التي ترشد إلى الهادي، وإلى هذه الآيات فيما يمتلكه الإنسان نفسه من الوسائل الدالة على الهدى والمؤدية إلى الهادي حيث قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقّ أوّلَمْ يَكْفِ بِربّكَ أَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}410 فهذه الآيات دلائل صدق في السماوات والأرض وفي أنفس البشر من السمع والبصر والعقل والإدراك والجوارح وبقيّة الحواس، فهذه بعض أدوات الهداية التي توصل الإنسان إلى الهادي في نفس خلق الإنسان، هذا في جانب المخلوق العاقل بمعنى أنها الدلالات الداخلية التي يمتلكها كلّ إنسان وهي مرافقة له في حلّه وترحاله، ونومه ويقظته، ومسيره وإقامته، أي أنّها هي الدلائل اللازمة والضرورية الملازمة الموصلة إلى الهادي، وهي وسائل الهداية التي يقيم الله بها الحجّة على

---

[409] - الحج 46

[410] - فصلت 53.

من ابتعد عن الهدى اختيارا بما سخره الله له من الوسائل والأدوات، ومن خلال هذه الوسائل والأدوات يتوصل الإنسان إلى الهدى الضروري البسيط الذي يدخل في باب التكلّيف، بمعنى أن من امتلك هذه الوسائل أصبح بالضرورة مكلّفا بالبحث عن الهداية والوصول إليها على قدر ما أوتي من وسائل البحث، لذلك رفع الله القلم عن المعتوه وهو المجنون والصبي والنائم لأن هؤلاء فقدوا تلك الوسائل أو بعضا منها جزئيا أو كلّيا، لمدى الحياة أو لفترة زمنية محددة متصلة أو منفصلة، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}411 فوجود الإكراه سبب لرفع الذنب والإثم، وبزوال المسبب يزول السبب، وهذا يعني أن كلّ إكراه مرهون بوقت، وهو من باب تغيير المسار من أجل المحافظة على النفس والهدف الأسمى والغاية الأعلى فيما ينشده الإنسان من الهدى.

فالأدوات الداخلية التي تهدي إلى الهادي ممّا يمتلكه الإنسان هي التي تعرفه الطريق، وبها يأخذ في سبيل الرشاد ويستنير عقله ويستوعب قلبه الدلائل الهادية، وأوّل هذه الدلائل هو السمع التي نراه أرفع درجة من البصر، ذلك أنّ السمع يرسم صورة المعاني ويحللها ويقارن بينها عن طريق العقل، وهذه الخاصية لا يمتلكها البصر وإن كان ينقل صورة ذات أبعاد، إلا أنّ الصورة المعنوية أشد تأثيرا وأعظم وقعا على العقل الذي يصور المعاني ويستنتج منها صورا مركَّبة غير تلك التي ينقلها البصر، فالصورة المعنوية التي تأتي عن طريق السمع والملاحظة هي مدعاة للتأمل، لذلك يكون الوصول إلى الهداية عن طريق السمع مع وافر الانتباه يؤدّي إلى التمسك والوثوق في الحجّة قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ

411 - النحل 106.

يُرْجَعُونَ}412، فإنما يجيب دعوة الحقّ المقبلين عليه، الذين يسمعون بفهمٍ وتدبرٍ وتحليلٍ وتأملٍ، وأمّا الذين لا ينتفعون بسمعهم فهم كمن هم أموات، قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}413 فمعرفة الحقّ والهدى الذي عن طريقه يتوصل الإنسان إلى الهادي، إنّما تأتي عن طريق سمعه ووعيه لما يسمع، ولكن الذين لا يذعنون فهم غير سامعين عن طريق المجاز لا عن حقيقة السمع، أي أنّهم سمعوا كلاما ولم يدركوا المعاني والصور التي يحملها هذا القول خاصّة عندما يكون القول عظيما، فمثل هؤلاء أنهم أشد شرا من الدواب التي أصيبت بالصمم فلا تسمع، وبالبكم فلا تتكلّم، فهم صمُّوا عن الحقّ، فلم يسمعوه ولم ينطقوا به ولم يعقلوه، وصمُّوا عن الهداية فلم يقربّوا إليها، فهم لا يفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلون دلائل الهدى، لذلك سمّاهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم عن طريق ما يسمعون، وتتجلى الهداية عن طريق السمع أكثر دقة في المشاهد التي أصل الاعتبار فيها إنما هو بصري الرؤية والهدى فيه عن طريق السمع بقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}414 إنّ طريق الهداية مرهون بالسمع الذي ينقل صورة غير الصورة المادية الحسيَّة ممّا ينتاب الإنسان من شعور عميق يؤدّي به إلى تحسس الهدى في داخل نفسه لا عن طريق المشاهدة الحسية، وإنما بطريق الشعور والإدراك الذي يولده السمع في النفس الإنسانية، فذكر السماوات والأرض وخلق الليل والنهار بما في ذلك من منافع للسعي والعمل في النهار، وبعد

---

[412] - الأنعام 36.

[413]- الأنفال 21، 22.

[414] - يونس 67.

ذلك الهدوء والراحة والسكينة في الليل، وهذا مضيء وذاك مظلم، إنما هي دلائل لمن يسمع ما يقال في ذلك من الآيات من أجل العظة والاعتبار الذي يؤدّي إلى الهدى وهو البيّنة لمن يسمعون ويتدبرون ويعتبرون بذلك.

وأمّا مسألة الهداية عن طريق الإبصار فلها شأن آخر يختلف كلّ الاختلاف عن قضية السمع، حيث جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}415، فإنّك إن تسألهم الهداية أو تطلب منهم أن يهتدوا إلى ما فيه خيرهم لا يسمعون سؤالك ولا يجيبون طلبك فضلا عن إرشادك إياهم، وإنّك لتراهم كأنما ينظرون إليك، وهم في الحقّيقة لا يرون شيئا، فالرؤية هنا بصرية والخطاب للجميع، فهم غير قادرين على الإبصار وهو بيان عجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع، ولذا فإن قدرة الإنسان المخلوق إنما تكون بهذه الجوارح، فإنها آلات يستعين بها الإنسان في جميع أموره ويسيّرها العقل المدرك، والمخلوقات الأخرى وإن امتلكت هذه الأعضاء والجوارح فهي تفتقد إلى العقل المدبّر للاختيار، فالإنسان له الفضل عليها بامتلاكه العقل المسيطر على هذه الأعضاء.

بناء على ما تقدم يتضح الفرق في المفهوم بين المهدي على الهداية، وبين المهدي إليها:

فالذي كان على الهداية هو إدريس ومن معه من الأنبياء والرّسل والصديقين والصالحين الذين جعلهم الله تعالى على لهداية ليكونوا هداة لغيرهم بالحقّ.

415- الأعراف 198.

أمّا المهدي إليها (إلى الهداية) فهو الذي دُعي لها دعوة وبُشِّر بها تبشيرا وأنذر من أجلها إنذارا، ولهذا بعث الله تعالى رُسُله الكرام إلى أقوامهم وشعوبهم وقراهم وأممهم وللكافة ليهدوهم إلى الصراط المستقيم، فاهتدي من اهتدى وبقي على الضلال من بقي منهم، ومع ذلك فإنّ الله غفور رحيم لمن استغفر وتاب إليه واهتدي إلى الحقّ اهتداء.

وعليه: فالمهدي من عند الله هو الذي يسعى في هدي الآخرين من بعده إلى الهادي المطلق توحيدا وطاعة اهتداء بالحقّ للحقّ.

إذا المهدي من عند الله هدْيا كما هو حال سيدنا إدريس هو من كانت هدايته لأمرين:

الأمر الأوّل: أن يكون على الطاعة والشهادة يقينا راسخا وتاما.

الأمر الثاني: أن يعمل كلّ ما في وسعه على هداية الآخرين في دائرة الممكن التي كلّف من أجلها هاديا.

ولهذا؛ فإنّ إدريس لم يهديه أحد إلا الواحد الأحد، أمّا من هم غيره من غير الصديقين والصالحين والرّسل والأنبياء العظام فهم على الحاجة للهداية، ولذا فهم في حاجة لِمهدي سابقٍ عليهم بالهداية ليسعى في هدايتهم لِما هُدي إليه من عند الهادي المطلق تعالى.

ولأنّ الهادي تبارك وتعالى أمر عباده باتباع سبيله من خلال آياته وأنبيائه وكتبه ورسله، وبين لهم الطرق ووضَّح لهم السُبل لأجل أن يتبينوا الرشد من الغي والهدى من الضلال والإصلاح من الإفساد، وميَّز الصدِّيق الصالح من قرين السوء، قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحْكُمُونَ}416 فالله سبحانه وتعالى ينص في هذه الآية على أنه هو الهادي، من خلال الدلائل التي بثها في هذا الكون والمعجزات الدالة على الخالق، والهداية هنا هداية التوحيد والانصياع لأوامر الله تعالى فيما أوجب على الخلق من العبادة، لذلك أنكر على الذين اتخذوا غير الله آلهة أو جعلوا له شريكا هذا العمل، إذ ليس من معبودات هؤلاء التي جعلوها شركاء لله مَن يستطيع التمييز بين الهدى والضلال، فيرشد سواه إلى السبيل الحقّ، فهل القادر على الهداية إلى الحقّ أوّلى بالاتباع والعبادة أم الذي لا يستطيع أن يهتدي في نفسه وهو لا يهدى غيره، اللهم إلا إذا هداه غيره، ولو كانت الهداية بوجه من الوجوه فإن أدنى مراتب العبودية هداية المعبود لعباده إلى ما فيه صلاح أمرهم، الله يهدى من يشاء للحق دون غيره بنصب الأدلة وإرسال الرّسل وإنزال الكتب والتوفيق للنظر الصحيح والتدبُّر الصائب؛ فإن العقول مضطربّة والأفكار مختلطة وتعيين الحقّ صعب ولا يسلم من الغلط إلا الأقل من القليل فالاهتداء لإدراك الحقّائق لا يكون إلا بإعانة الله وهدايته وإرشاده، فالذي يهدي إلى الحقّ بإعطاء العقل وبعثة الرّسل وإنزال الكتب والتوفيق إلى النظر والتدبُّر بما نصب في الآفاق والأنفس إلى غير ذلك هو الله سبحانه وتعالى، الذي بيَّن بما هو مستقر في الفطرة أن الذي يهدي إلى الحقّ أحق بالاتباع ممن لا يهدي، إلا أن يهديه غيره، فلزم أن يكون الهادي بنفسه له الكمال دون الذي لا يهتدي إلا بغيره، وإذا كان لابدّ من وجوب الهادي لغير المهتدي بنفسه فهو الأكمل وهو أحق أن يُتَّبع، ولما كان كمال العبد في كونه عالما بالهدى متبعا للحق ومعلما لغيره، فهو من الهداة المهتدين، فالهادي من الخلق بالضرورة أن يكون مهتديا، لأن الهادي

416- يونس 35.

إذا لم يكن مهتديا في نفسه لم يصلح كونه هاديا لغيره لأنه يوقع النّاس في الضلال من حيث لا يشعر، وأمّا الهادي بالإضافة فهو خليفة الله في أرضه ومنه اكسب صفة الهدى، فلذلك وجب عليه أن يُبصِّر عباد الله ويعرِّفهم طريق معرفته حتى يُقرّوا بالهادي ويعملوا على الهدى، ذلك أنّ الهادي بالإضافة هو الدليل إلى الخيرات والمرشد إلى الطاعات.

8. صالح:

الصالح هو من تتوفر فيه معطيات الإصلاح وتنعدم فيه معطيات الإفساد، والذي يُعد أو يُجتبى على الإصلاح يكون من الصالحين في ذواتهم والمساهمين في إصلاح أحوال الآخرين، وهذا لا يكون على التعميم إلا على الأنبياء والرّسل الذين أعدهم الله إعدادا (صالحين) للنبأ العظيم والرسالات الخالدة، ممّا جعلهم في رحمته داخلين وهم من الصالحين، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}417.

فقوله تعالى: (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) تدل هذه الآية الكريمة على أن دخول إدريس وغيره من الأنبياء والرّسل في رحمة الله كان بأسباب أنهم كانوا صالحين (نافعين غير ضارين) إنهم المصلحون غير المفسدين؛ فهم على هذه الدلالة لو لم يكونوا مُعدّين على الصلاح ما كانوا في رحمته من الداخلين.

ولأنّ بلوغ أمر الصلاح ليس بالهين؛ فالله تعالى يُعد من يشاء لأنبأه ورسالاته من يُعِدُ إعدادا، ولهذا كان إدريس نبيا مُعدّا على الصلاح وكان من الداخلين في رحمة الله الرّحمن الرّحيم (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ).

417- الأنبياء 85، 86.

ومع أنّ الله يُعِدُ من يشاء من نبيٍ ورسولٍ على الصلاح إلا أن باب الصلاح مفتوح أمّام عباد الرّحمن، فمن عمل صالحا وأصلح ما أفسده المفسدون في الأرض وأمر بما أمر الله ونهى عمَّا نهى عنه سيكون من الصالحين طاعة وهداية وهو مولي أمره لله تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}418.

الصلاح وفاء على التمام من عند الله إعدادا، أو بلوغا بالقول والعمل الصالحين، قال تعالى: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}419؛ فقوله تعالى: (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) مع أنّ هذه الآية الكريمة جاءت في الماضي بالنسبة لزمننا نحن إلا أنها تدل على المستقبل في زمن نبي الله شعيب، (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) أي بعد أن تُتِم الثمانية حُجج أو توفِّي على العشرة ستجني يا موسى وافيا معك غير مخلٍ بما أقوله لك في الزمن (الآن) هذا الوعد هو وعد الصالحين الذين أخصهم الله بما أخصهم به من نبأ عظيم ورسالات خالدة.

وفي اللغة الصلاح من الصلح و"الصلح ضد الفساد ويقال رجل صالح في نفسه من قوم صُلَحاء ومُصْلِح في أعماله وأُموره وقد أَصْلَحه الله"420.

418- الأعراف 196.

419- القصص 27.

420- لسان العرب، ج 2، ص 516.

ولأنّ إدريس من الصالحين إعدادا من عند الله تعالى؛ فهو من المستخلفين في الأرض والمصلحين فيها، وهو كغيره من الأنبياء والرّسل يدعو للتي هي أحسن وأقوم، ولذا فمن يتقي الله ويقول قولا سديدا ويعمل صالحا يُصلح الله له من أعماله مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}421.

ولو كان أهل الأرض مصلحون فيها ما فسدت القرى التي بُنيت على ظهرها، ولهذا فالإصلاح عمل خير؛ فمن يستطيع فعليه به فهو خير منجي من الهلاك وخير مُدخل للجنة، قال تعالى: {وَمَا كَانَ ربّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}422، وقال تعالى: {وَمِنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ}423.

وعليه، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}424.

9 . ساجد:

السجود لا يكون إلا بساجدٍ أي لا يكون إلا بفاعلٍ ولذا فالسجود يُفعل لأجل مرضاة المعبود بإظهار إيمان العابِد.

421- الأحزاب 70، 71.

422 - هود 117.

423- البقرة 204، 205.

424- فصلت 46.

إذا السجود إعلان وإظهار الطاعة مع فائق الخشوع والتسليم دون تردد، وهو لا يكون إلا والأمل من ورائه، ولذا لا يؤدّي هكذا حركات وسلوك ظاهر فقط، ممّا يجعل النية هي مكمن الحقّيقة في نفس الساجد.

والسجود لا يكون على الحقّ إلا لله تعالى، وهو على أوجه منها:

أ . السجود السلوكي: هو السجود الذي يؤدّي عند الصلاة وقراءة القرآن؛ فيكون الساجد هنا (المصلي أو القارئ أو الذي ينصت إلى قراءة القراء) على السجود كلّما دعت معطياته، ولذا فكان النبي إدريس من الساجدين الأخيار حتى وُصِف من ربّه عزّ وجلّ أنه من الساجدين مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}[425]؛ فقوله: (خَرُّوا سُجَّدًا) وقعوا ساجدين، أي بالحركة قد أوّلوا وجوههم لله تعالى وهم على حالة من الطاعة والاتزان الاستسلامي مع فائق الخشوع لله دون أن تلهيهم لاهية، ولذا (خَرُّوا) من وقوفهم أو جلوسهم إلى الأرض التي هم عليها ساجدين؛ (فخرّوا) تدل على النزول من أعلى إلى أسفل كما ينزل الماء من أعلى إلى أسفل ليلامس الأرض ملامسة تامة، وهذا السجود هو بالتمام سجود الصلاة والسجود لآيات القرآن المستوجب السجود لها كلّما تُليت طاعة لأمر الله تعالى.

وقوله تعالى: (سُجَّدًا وَبُكِيًّا) تدل على أمرين:

---

[425]- مريم 56 . 58.

الأمر الأوّل: من حيث اللغة؛ فأنّ السُجَّد والبُكيّا هم جمع من الأنبياء والرّسل ومنهم النبي إدريس صلّى الله عليهم وسلّم.

الأمر الثاني: من حيث المفهوم والدلالة؛ فأن هؤلاء السُجَّد البكيا هم كثيرو السجود، ولذا فإن إدريس كان كثير السجود (كثير الطاعة والعبادة) لله ربّ العالمين.

ولأنّ الأنبياء والرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم سريعو الاستجابة لأمر الله تعالى فكذلك أمر الصالحين والذين ترسَّخ الأيمان في قلوبهم؛ فهم إذا ما استمعوا أو ذُكِّروا بآيات الرّحمن خرُّوا سُجدا له مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}426؛ فقوله (خَرُّوا سُجَّدًا) على السرعة دون تأخير فيقعوا ساجدين، ولهذا فهم سريعو الاستجابة لأمر الله وطاعته في كلّ أمر ونهي سبحانه.

ولأنّ السجود يتجسَّد في الحركة والسلوك الموجَّه طاعة لله كان السجود سلوكا بيّنٍ في أداء الصلاة عند المسلمين الذين أسلموا وجوهم مع محمّد لله ربّ العالمين، قال تعالى: {محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}427.

---

[426]- السجدة 15، 16.

[427]- الفتح 29.

وكذلك من قَبلُ سيدنا إدريس وسيدنا محمّد كان الملائكة مسلِّمين طائعين للأمر الذي أمرهم به الله تعالى لأن يقعوا ساجدين مسلِّمين لأبونا أدم فيما أمر به الله مصداقا لقوله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ}428، ولذا فالوقوع يدلّ على السجود في ملامسة الأرض كما شاء الله أن تسجد الملائكة لآدم.

ب . السجود هو الطاعة والتسليم لله تعالى، كما هو حال السحرة الذين أطاعوا موسى لما أبطل سحرهم بما آتاه الله من آياته معجزة مصداقا لقوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الحقّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ}429، فقوله: (وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ) أي طائعين.

ولأنّ السجدة في مفهومها ما يدلّ على الطاعة رأى يوسف في رؤيته التي تحققت على أرض الواقع أخوته طائعين له مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}430.

وهكذا أُمرَ أهل الكتاب من اليهود بدخول باب بيت المقدس طائعين لله ربّ العالمين مصداقا لقوله تعالى: {وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا}431 أي أدخلوا من الباب طائعين.

---

[428]- الحج ر 29 . 31.

[429]- الأعراف 117 . 120.

[430]- يوسف 4.

[431]- النساء 154.

ولأنّ السجدة قنوت لله تعالى فهي طاعة تامة له عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كلّ لَهُ قَانِتُونَ}432

ج . السجود عبادة: بما أن لله يسجد ما في السماوات والأرض من أرواح وملائكة وكائنات وجمادات ونباتات وغيرها من المخلوقات المتعددة والمتنوعة التي تسجُد لله دون أن يشاهد ويلاحظ سجودها الذي يتجسَّد في الفعل والسلوك الحركي كما هو حال السجود أثناء الصلاة وقرأت القرآن عند موجباته العظيمة، لذا فإن من بين دلائل المفهوم للسجود أنه عبادة مصداقا لقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}433، فقوله تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) أي كلّ من في السماوات والأرض هم يعبدون الله تعالى دون أي استكبار ولهذا فهم في عبادتهم ساجدين (طائعين).

د . السجود تسليم بالمطلق لله المطلق: والتسليم هو الذي لا يتم إلا بعد قناعة وبإرادة وعن تراضي مصداقا لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}434؛ فقوله تعالى: (طَوْعًا وَكَرْهًا) يدلّ على أن الطائعين هم أوّلئك الحنفاء الذين جعلهم الله على الفطرة متدبّرين طائعين كما هو حال الأنبياء والرّسل والصالحين والصديقين الكرام وكلّ من تأمل في خلقه وأسلم وجهه له اعترافا

[432]- الروم 26.

[433]- النحل 48 . 50.

[434]- الرعد 15.

يقينيا أنه الأعظم. وكذلك بقيّة المخلوقات الأخرى من غير البشر فهي الساجدة فطرة لله تعالى على العموم والشمولية ودون استثناء، (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ).

هـ ـ السجود استسلام: الاستسلام لا يكون إلا حيث انعدام القدرة والقوّة والاستطاعة؛ فقوله تعالى: (طَوْعًا وَكَرْهًا) جاء على أوجه منها:

الوجه الأوّل: تسليمي في قوله (طَوْعًا)؛ فالطاعة هنا كما سبق تبيانه في الفقرة السابقة هي الطاعة الإرادية كما هو حال خلقه لمخلوقاته طائعة على الفطرة مصداقا لقوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}435 وكذلك في خلقه لبني الإنسان جعل منهم الحنفية على التسليم إدراكا واعيا ممّا جعلهم طوعا يسلّمون وجوههم طاعة لله عزّ وجلّ، قال تعالى: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}436.

وعلى المستوى البشري أيضا؛ فالذين أمروا لطاعته واستجابوا للأمر هم من أوّلئك الطائعين الكرام رضوان الله وسلامه عليهم، قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}437 أي أنهم

---

[435]- فصلت 11.

[436]- الحج 31، 32.

[437]- البينة 5.

الذين استجابوا إرادة وطاعة تامة لمجرّد أنهم استمعوا أو سمعوا أمره أو أنهم نظروا إلى آياته الإعجازية في ملكوت السماوات والأرض، مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}438.

الوجه الثاني: في قوله (كَرْهًا) وهو الوجه الذي يكون على المشيئة استسلاما بالمطلق لكلّ من خلق قوّة وقدرة في مقابل انعدام الاستطاعة ولذا فقوله (كَرْهًا) قول يعود على الذين هم مسلّمين لله في كلّ ما لا يستطيعون تغييره من ألمٍ وموتٍ وحركةٍ وسكونٍ، قال تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ}439.

10. بكيّ:

البكاء صراع بين كبت وإظهار يؤدّي إلى عدم التوازن حيث لا سيطرة ولا نواح، فيكون البكاء قوّة أمّام ضعف مع فقدان المقدرة على التحكُّم.

أمّا بكيا؛ فهي جمع باكٍ، ممّا جعل الآية الكريمة تعود على الجمع مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا

---

[438]- الأنعام 75 . 79.

[439]- الرعد 15.

وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آَدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}[440].

يتضح من هذه الآيات الكريمة أن البكاء لم يكن مقتصر على إدريس فهو لم يكن لوحده باكيا، بل جمع من الرّسل كما جاء في الآيات السابقة هم الباكون ولهذا جاء جمع باكٍ (بكيا).

والسؤال الذي نطرحه:

لماذا الرّسل في سجودهم يبكون؟

نقول:

لابدّ وأن يكون هناك موضوع أو قضية أو موقف عظيم يدعو الرّسل إلى البكاء، وإلا كيف نقبل بأن الرّسل العظام الذين اتصفوا بالصبر برغم ما تعرضون له من ابتلاءات هم في سجودهم بكيا؟

بالعودة إلى الآية الكريمة (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) نقول:

الأمر ليس أمر بكاء في ذاته بل كان الأمر متعلقا بما هو أعظم (آَيَاتُ الرّحمن) أي أن السجود كآيات الرّحمن طاعة لله تعالى، والبكاء سؤال للرحمن لنيل الرضاء على القول والفعل والعمل والسلوك.

ولأنّ الأمر هو كذلك، إذا البكاء في مثل هذه الأحوال موجب لأنّه من اجل موجب، وإلا هل هناك من يقول إنّ طلب الرضاء وسؤال العبد لربّه بهذا الشأن هو في دائرة السلبية؟

---

[440]- مريم 56 . 58.

في هذا الأمر نقول:

عقل الإنسان عندما يتدبَّر أمره وأي أمر يَحسُن معرفته ثم يحسُن إدارته، ولكن متى يكون التدبُّر؟

يكون التدبُّر عندما يتذكَّر الإنسان ماضيا في زمنه الآن وهو يتطلَّع إلى المستقبل الأفضل، وهذا الأمر يتطابق مع أمر الرّسل البكيا الذين هم في ساعاتهم الحاضرة (الزمن الذي هم فيه) وهم يقرءون آيات الذكر الحكيم متدبرين غير غافلين ولا سارحين عن آياته الحكيمة التي تُذكِّرهم بالماضي وقصصه العظيمة وما ترشد إليه من مستقبل أعظم، ولأنهم يأملون تحقيق ذلك في مقابل أنّهم يؤمنون بأنهم لن يكونوا على دوام الحياة التي سيتحقق فيها ما هو مأمول بالنسبة لهم، ولأنهم بين أملهم في تحقيقه وإيمانهم بتعذر ذلك بالنسبة لهم يخرون سجدا للرحمن وبكيا، ولهذا فإن بكائهم رحمة بهم ورحمة عليهم في دائرة الإيجابية.

وعليه نقول:

البكاء في أساسه موجب، فهو الذي يُذكِّرُ بموجبات فُقدت ولن تعود لأسباب فقدانها أو فقدان أصحابها سواء أكانت تلك الموجبات روحية أم عاطفية أم مادية، فعندما يفقد الإنسان من كان عزيز عليه في نفسه يتذكَّر تلك الموجبات والحسنات الكثيرة التي كانت فانتهت تاركة فراغا له يعتقد أنّه لا يُسد أبدا وهو في حاجة لذلك العزيز، ولكن لإيمانه بمشيئة الله وقضاه وقدره ليس له إلا التسليم بالأمر الواقع وحينها إن كان للبكاء مكان في نفسه ليس له بدا إلا أن يكون مع الباكين بكيا.

وللتنبيه نقول أيضا:

البكاء ليس النواح، فالبُكاء "يقصر ويمد قاله الفراء وغيره إذا مَدَدْتَ أَردتَ الصوتَ الذي يكون مع البكاء وإذا قَصرت أَردتَ الدموع وخروجها"441، وفي كلّا الحالتين فهو بكاء تتلاصق فيه العبرات حتى يكاد اللسان عن إخراج الكلّمات الواضحة للآخرين مع عدم الغفلة عن ذكر الله.

أمّا النواح فهو ارتفاع الصوت مع إخراج الكلّمات المعدّدة لِما كان يفعل العزيز الفقيد، ممّا يجعل الغفلة مصاحبة للنائحة أو النائح عن ذكر ربّه.

وفي اللغة النواح: "اسم للنوائح يقع على النساء يجتمعن في مَناحة، واستناحَ الرجلُ بَكَى حتى اسْتَبْكَى غيره، ويستنيح بمعنى يَنُوحُ واستناحَ الذئبُ عَوَى فأَذْنَتْ له الذئابُ"442.

ولذلك نقول:

البكاء رحمة على قلب المؤمن عندما يكون في تدبر القرآن وقضاء الله وقدره، فهو بكاء أخذ العبرة والعِظة، وليس ببكاء الاحتجاج على من لا مجال للاحتجاج عليه.

والبكاء على احتمالات منها:

أ. البكاء على الغير:

وهو البكاء على من ألمت بهم الكوارث أو المصائب وفقدوا، وهذا البكاء قد يكون في محله بأسباب الوفاء والمحبة ولا يكون كذلك عندما يكون في دائرة النواح.

---

441 – لسان العرب، ج 14، ص 82.

442– لسان العرب، ج 2، ص 627.

ب . البكاء على النفس:

عندما تُضيّع النفس الفرصة التي أعطيت لها لتعمل ما يجب أن تعمله إن أرادت خيرا كثيرا، حينها يلمُّ بها الندم وهي تعلم أن الفرصة قد انتهت والزمن لن يعود إلى الورى والندم لن ينفعها؛ فيكون التحسُّر الذي يقودها إلى البكاء.

ج . البكاء على أداء الفعل الموجب:

المؤمن عندما يفعل الخيرات الكثيرة كما يشاء الله لها أن تُفعل في الحياة الدنيا، ويُبشره الله أو يُخبره في كتابه الحكيم بأن له الجنّة؛ ففي هذه الحالة ليس له بدا إلا أن يخرَّ حامدا لله في سجوده له وراضيا عن نفسه كما كان رضا إدريس عن نفسه وغيره من الأنبياء الكرام صلّى الله عليهم وسلّم وهم يخرون رضاءً سجدا وبكيا، (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا).

وعليه: كيف لنبي مثل إدريس يقرأ من آيات الذكر الحكيم قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوّلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُوّلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}443؛ فكيف لإدريس أن يقرأ هذه الآية الكريمة أو يقرأ ما يماثلها من آيات الذكر الحكيم ويتدبَّرها يقينا وهو يعلم أنه من الأنبياء الذين وصفهم الله بالصديقين الذين لهم أجرهم عند ربّهم ونورهم وفي المقابل أن يكون الذين كفروا وكذبوا بآيات الله هم أصحاب الجحيم، فكيف له ألّا يخرَّ ساجدا وباكيا كغيره من الأنبياء الكرام أصحاب الجنّة؟ ألا يكون بكاؤه هنا بكاء فوز ونيل رضا وسجوده سجود طاعة؟

---

[443]- الحديد 19.

. وكيف لإدريس ألّا يخرَّ ساجدا لله طاعة، وباكيا في مرضاته عندما يقرأ من آياته الكريمة وهو يعلم أن الله قد أخبره بأنه من الصالحين الأبرار الذين أدخلهم الله في واسع رحمة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}444.

. وكيف لا يبكي إدريس وهو يقرأ من آيات الله عندما يُشهده على حقيقة ماثلة مفادها كما جاء في قوله تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا ربّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ ربّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}445.

. وكيف لا يسجد إدريس طاعة لله تعالى، وكيف لا تبكيه مرضاة الله له وهو يقرأ الكتاب عندما يعلم أن أصحاب الجنّة في النعيم وأن أصحاب النّار في أشد أزمة، مصداقا لقوله تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ النّار أَصْحَابَ الجنّة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ ممّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}446.

. وكيف لا يسجد إدريس عرفانا وطاعة لله عزّ وجلّ وبأسباب الرضا والفرحة يبكي لعلمه باستقامته يكون من أصحاب الجنّة، فكيف له ألّا يخرَّ مع الرّسل الكرام سجدا وبكيا وهو يقرأ من آياته

444- الأنبياء 85، 86.

445- الأعراف 44.

446- الأعراف 50، 51.

الكريمة ما يقرأ مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أوّلئِكَ أَصْحَابُ الجنّة خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}447.

. وكيف لإدريس ألّا يخرَّ ساجدا لله طاعة وباكيا في مرضاته فرحة وطاعة وهو يعلم أن الله قد اخصه بالذكر في آيات من آياته الكريمة مصداقا لقوله تعالى: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أوّلئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ مِنْ ذُرّيَّةِ آَدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا).

ولأنّ القرآن هو مجموع الآيات المعجزة في الكتاب الحكيم من قَبل أن يُخلق أبونا آدم إلى أن بُعث سيدنا محمّد النبي الرّسول الخاتم فهو لم يترك كبيرة ولا عظيمة إلا وذكَّر بها ولفت انتباه العباد إليها لعلهم يهتدون، ولهذا فمن يتدبَّر القرآن آيات معجزات ليس له بدا إلا أن يخرَّ ساجدا مع الساجدين وهم في مرضاة الله بكيا مصداقا لقوله تعالى: {وَقُرْآَنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاس عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا قُلْ آَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا}448.

د . البكاء على أداء الفعل السالب:

ولأنّ الكمال لله تعالى فقد يُقصِّر الإنسان في حقه أو حتى يذنب في حقه أو حقوق الآخرين سواء أكانوا أقاربّ أم أباعد، وعندما

447- الأحقاف 13، 14.

448- الإسراء 106 . 109.

يتذكَّر ما فعل من أفعال كانت في حق نفسه أو في حقوق الآخرين في غير مرضاة الله قد يحوطه الندم وهو على أمرين:

الأمر الأوّل: أنّ الندم يُمكِّنه من الاستغفار والتوبة فيستغفر ربّه حتى يتوب عليه.

الأمر الثاني: أنّ الندم قد لا يُمكِّنه من نيل التوبة إن كانت له كبائر عظيمة وإن بكاء خاصة إن كانت كبائره كما هي كبائر فرعون، مصداقا لقوله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آَيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس عَنْ آَيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}449.

ولنا في يوسف وأخوته قصة فحينما أجمعوا أخوته على أن يجعلوه في غيابات الجب جعلوه في غياباته ثم من بعدها جاءوا إلى أبيهم يبكون بأن الذئب قد أكلّ يوسف فكان بكاؤهم بكاء كذب ولهذا كان بكاؤهم سالبا على الفعل السالب، ولذا فهم يبكون وهم غير باكين، قال تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ}450.

ولأنّ الله غفور رحيم سألوا أبيهم أن يستغفر لهم مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى

[449]- يونس 90 . 92.

[450]- يوسف 15، 16.

إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} 451.

هـ . البكاء ضرورة:

عندما لا يكون البكاء لأداء فعل موجب ولا لأداء فعل سالبٍ يصبح البكاء ضرورة، وذلك لتوفر معطيات الإكراه والإجبار والإرغام بغير حق وحيث لا قوّة ولا قدرة على المغالبة مع وافر القسوة والألم الشديد، ولذا، عندما تسود سياط الجلادين على ظهور العباد وأقدامهم وحيث لم يُحتسب لها حساب، يكون البكاء بهذه المعطيات لا بأفعال أخرى سلبية أو إيجابية ولا من أجل النفس ولا من اجل الآخرين ولا لنيل رضا الجلادين ولا حتى لاستعطافهم.

و . البكاء للسؤال: التضرُّع لله خير عندما يكون من اجل الخير، وفي هذه الحالة فهو المجيب العزيز، وعندما لا يكون التضرُّع والدعاء في أوجه الخير فقد لا تكون الإجابة وإن خرَّ وبكى.

11 . صابر:

الصابر هو من لا قلق في نفسه، وهو المتمكِّن من استيعاب الآخرين وتقبُّلهم (هم كما هم) من اجل أن يُسهم في تغيير أحوالهم إلى (ما يجب أن يكونوا عليه) من القيم الحميدة والفضائل الحِسان.

والصبر صفة لمن يتصف به قول وفعل وعمل وسلوك، إنّه صفة قد لا تكون لدى العموم، ولكنّه لقد كان صفة للأنبياء والرّسل والصديقين والصالحين والمؤمنين الأبرار، وسيضل الصبر صفة لمن استمد صفة صبره من الصبور المطلق.

---

[451]- يوسف 97 . 100.

ولأنّه لا وجود للصبر لولا الوجود الذاتي للصبور المطلق الذي جعل في الأرض خليفة يَعمُر الأرض ويصلح ولا يُفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حق، لذا فمن صبر فإنما صبره من الله الصبور العزيز، {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}452.

ولأنّ الصبر من الصبور المطلق كان صبر إسماعيل وإدريس وذا الكفل آية من آيات الله التي ذكرت في القرآن مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ}453، هؤلاء الأنبياء العظام هم من الأنبياء العظام الذين تميزوا بصبرهم في مرضاة الله.

وعليه: فإنّ الصبر فضيلة، ومن تجسدت هذه الفضيلة في سلوكه وفعله وعمله كان من الموصوفين بالصبر الذي يضربّ به المثل في التحمُّل من اجل غايات عظيمة لا تكون إلا في مرضاة الله الصبور المطلق.

والصبور هو: "المعتاد الصبر القادر عليه وهو اسم من أسمائه تعالى ومعناه أنه لا يعاجل العصاة بالانتقام مع القدرة عليه"454.

الصَّبُورُ في صِفَة اللهِ عزّ وجلّ: "الحَليمُ الَّذِي لا يُعاجِلُ العُصاةَ بالنِّقْمَةِ بل يَعْفُو أو يُؤَخِّرُ"455.

---

[452]- النحل 127، 128.

[453]- الأنبياء 85.

[454]- المعجم الوسيط، ج 1، ص 1049.

[455]- تاج العروس، ج 1، ص 3046.

وأمّا صبر العبد فلا يخلو عن مقاساة لأنّ معنى صبره هو ثبات داعي الدين أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب فإذا تجاذبه داعيان متضادان فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة ومال إلى باعث التأخير سمي صبورا إذا جعل باعث العجلة مقهورا وباعث العجلة في حق الله سبحانه معدوم فهو أبعد عن العجلة ممن باعثه موجود ولكنه مقهور فهو أحق بهذا الاسم بعد أن أخرجت عن الاعتبار تناقض البواعث ومصابرتها بطريق المجاهدة456.

الصبر يدلّ على التأني وينفي صفة العجلة والتسرع عن من المّ الصبر به صفة حسنة، ولهذا فالصبور عزّ وجلّ لا يعجِّل في العقوبة مع أنّ الأمر كلّ الأمر بيده وهو الخلاق العليم، قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}457، فتأخير العقاب على مستحقيه لا يعني إسقاطه عنهم بل وجوب وقوعه عليهم في وقت معلوم ومحدد من الخالق لا دخل للإنسان بهذا التوقيت ولا علم له به، ولولا صبر الله المطلق على المجرمين والعصاة لكان العقاب فوريا، لكنه لا يعجّل إنزال العقاب عليهم ليمهلهم.

الصبور: مصدر لكلّ صبر، يستمد الصبر منه وهو لا يستمد من شيء، ولذا؛ فالصبر دليل قوّة العزيمة وسلامة الرأي والقرار والفعل والعمل وذلك لأنّه المستمد من الصبور المطلق، ومن اتصف به كان من الصابرين.

---

[456]- الغزالي، المقصد الأسنى، ص 149.

[457]- النحل 61.

والصبر في حق الله تعالى يكون درسا في التوازن والنظام، أي أنّه سبحانه وتعالى لا تحمله العجلة على تقديم ما لا يجب تقديمه، أو تأخير ما لا يجب تأخيره بل حكمته هنا تتدخل لتعمل على تسيير أمور خلقه وفق نظام وسنن ثابتة، لا يمكن أن تتبدل هذه السنن أو تتغير لتعجل أو تسرع في أمر من أمور عباده.

إذا فالصبور هو من لا قلق فيه، وهو الذي يعلم بالأمر ويعلم ما يقوله ويفعله ويظنه الظانون، وهو بكلّ شيء عليم، ومع ذلك يترك الأمر إلى حين، ولهذا قال: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}[458].

ولأنّ الصبر فضيلة من الله تعالى على عباده كان الصبر صفة لإدريس عمل وفعل وسلوك، (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ) فقوله: (مِنَ الصَّابِرِينَ) دليل على عمق صبرهم وطوله وثباته، وهذا الصبر لا يكون إلا عندما يكون الصبر على الحقّ أو من اجل إحقاق الحقّ، ولهذا فإن إدريس (مِنَ الصَّابِرِينَ) الذين اجتباهم الله ليكونوا أنبياء مستخلفين في الأرض إصلاحا وإعمارا وفلاحا.

وتكمن صفة القوّة في الصبر، ولهذا فالصبر لا يكون إلا متحدا وملازما للقوّة التي بها يتمكن الإنسان من أن يوصف بالصبر الذي فيه التحمُّل الشديد وفي كلّ الشدائد في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

ولذا؛ فالصابر هو من يُؤازر الآخرين في حمْل العبء الذي يشاركهم في حمْله عندما تضيق بهم الدوائر وإن كان معهم في تلك الضائقة، وأن يكون صابرا على الشدائد كما كان إدريس صابر حتى وإن جاءته

---

[458] - الروم 60.

هذه الشدائد من الذين كان صنيع لهم، وليتقي الله ربّه وليستمد صفته منه عزّ وجلّ الذي خلق الجن والإنس ومع ذلك كفر من كفر منهم وأشرك من أشرك، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}459.

بذلك لابدّ أن نفرّق بين صبر الله تعالى وصبر العباد لأن صبر الصبور يكون عن قدرة مطلقة كاملة، ولا يكون أيضا صبره لقضاء حاجة له عند عبيده في الأرض، وكذلك لا يكون صبره حاملا الألم والحزن لعدم تمام ما يريد أو تأخيره، قال تعالى: {وربّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرّحمة إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ}460.

أمّا الإنسان فقد يكون صبره عن ضعف وعدم استطاعة، أو لقضاء غاية والوصول إليها عند غيره من البشر، ويكون في صبره شعورا يحرّك الألم والحزن في داخله، وقد يؤدّي به إلى اليأس والإحباط والضعف والتسليم للأمر الواقع.

فعلى المؤمن أن يكون صابرا كما صبر إدريس وان يمتثل لأمر الخالق في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}461، إذا في الصبر تكمن حكمة التصرف والتحكم في النفس ليصل الإنسان إلى أفضل وأسلم وأرفع وأصدق وأدق النتائج.

459- الذاريات 56. 58.

460- الأنعام 33.

461- آل عمران 200.

وعليه: فالصابر هو من يعتبر بأمر الله في الصبر ويعتبر من الصبور المطلق في صبره على من خلق وما خلق، ولذا علينا أن نستعرض بعض من الآيات الكريمة في الذكر الحكيم الدالة على الصبر الذي عليه كان إدريس من الصابرين كما وصفه الله عزّ وجلّ حتى نستمد عبرة الصبر من الصبور المطلق:

فمن مظاهر صبر الصبور سبحانه وتعالى على عباده، منع الله تعالى للطبيعة عن معاقبة الكافرين، قال تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}[462]، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}[463]، ألا يحق للقارئ المتدبر في آيات الذكر الحكيم القول: ما أصبر الصبور المطلق على خلقه الذين منهم الطاغين والحاقدين والماكرين والمكيدين والفاسقين والكفرة والمشركين، فكلّ هذا يجري وما يجري أكثر وهو الخلاق العظيم، فكيف هو صابر على خلقه! وكيف من خلقه لا يؤمنون ويطيعون أم من الخلق على قلوبهم أقفالها؟

[462]- إبراهيم 46.

[463]- فاطر 40 . 42.

بدون شك الله هو الصبور على جميع الخلق، ولكن رحمة الله بصبره وحلمه على العباد العصاة، بالرغم من شدة كفر هؤلاء النّاس وإشراكهم به عزّ وجلّ، هو الصبور الذي يُخفي بين طياته الكرم والرّحمة، فصبره هو الذي أخّر هذا العقاب الدنيوي للكافرين جزاءا لهم على كفرهم وعنادهم، فصبر الصبور هنا تمثّل في المنع عن تنفيذ العقاب الفوري لأوّلئك الكافرين وهذا ما ترغب به السماء والأرض من شدة كفرهم وطغيانهم إلا أنّ الصبور يمسكهما بصبره وحلمه عزّ وجلّ.

فعلى خليفة الله أن يكون صابرا امتثالا لأمر الخالق في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}464، لأنّ الصبر فيه حكمة التصرف والتحكم في النفس ليصل الإنسان إلى أفضل وأسلم النتائج.

الصبور: يهب الصبر لمن يشاء من عباده بعلمه وخبرته بهم، كما وهبه لإدريس صفة الصبر، مصداقا لقوله تعالى: (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ) وجعلهم يتحلّون به ليعينهم على تحمل ما يلاقونه من شدائد وصعاب في الحياة الدنيا، فيكون صبرهم سندهم في تكملة طريقهم في الحياة الدنيا، وقد وهبهم الله الصبر لحبه فيهم مظهرا لهم مكانتهم عنده فيبادلونه هذا الحب الكبير برضاهم بقضائه وقدره وطاعتهم له سبحانه وتعالى، قال عزّ وجلّ في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أوّلئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}465، من هنا تتضح مكانة العبد

[464]- آل عمران 200.

[465]- البينة 7، 8.

الصالح المخلص عند الله فهو مخلوقٌ مفضَّل عند الخالق استخلفه في الأرض وأكرمه وفضَّله على جميع خلقه، علما بأن الخالق بعلمه المسبق وخبرته بخلقه جميعا يعلم أنهم سيفسدون ويسفكون الدماء ولكنه أيضا علم أنّه من عباده الصالحين المصلحين فصبر على الظالمين وقربّ المخلصين وأثابهم وأعطاهم أكثر ممّا يمكن أن نتصوره ليستطيع أن يتحمَّل العبء المنوط به، فيكفي الإنسان أن يتأمّل في اسم الصبور ليستشعر نفسه أنه مخلوق مكرّم ومفضَّل عند ربّه، والدليل على ذلك أنّه حين يخطئ أو يُذنب أو ما شابه ذلك يجد الخالق أحيانا ساترا له لا يفضحه بين النّاس بل يستره، وهذا لا يكون إلا بوجود الحب والمودة بينه وبين خلقه، وصبره على خطيئة العبد مع القدرة والاستطاعة على العقاب فلا لشيء إلا لتقدير الخالق لهذا المخلوق.

لذلك؛ فلابدّ للمؤمن أن يكون مستشعرا بمكانته عند الله تعالى، فلا يفرّط فيها ولا يجب أن تنقص بل يجب أن تزيد، ومكانة هذا المؤمن لا تزيد إلا بالعمل الصالح والطاعة لله تعالى وخشيته والإخلاص له والصبر على حكمه، قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[466]، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}[467].

والصبر ليس شعورا يزرعه الصبور فينا فقط، بل هو منهج راقٍ مؤسس على الفضائل الخيّرات ليصل بالبشرية إلى الهدف الأسمى وهو

---

[466]- النحل 96، 97.

[467]- الملك 12.

سيادة المحبة والعدل والهداية، والدليل على ذلك يتطلب من الإنسان أن يتأمل في الكون من حوله ليدرك مظاهر الصبر الظاهرة فيه، فالشمس مثلا تشرق رويدا رويدا وتغربّ كذلك لا عجلة في حركتها بل تتحرك وهي مقدرة بنظام ودقة، وكذلك فقد خلق الله السماوات والأرض على مراحل وأيام ولم يكن خلقها في لحظة مع إمكانية تحقيق ذلك بالنسبة لقدرة الله تعالى، قال تعالى: {إِنَّ ربّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ}468، وكذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور}469، فالسماء والأرض كان في خلقهما آية للناس في الصبر مع توفر القدرة لخلقهما في لحظة واحدة، وكذلك لو تأملنا إلى خلق الإنسان نفسه منذ بداية تكونه جنين في رحم أمه، فينمو شهرا بعد آخر ولا يتم تكوينه في يوم واحد بل يكون في تكوينه تجسيدا لنوعين من الصبر:

النوع الأوّل: صبر الأم تسعة أشهر ممزوجة بالمعاناة والألم والتعب، وكذلك رضاعته لم يجعلها الله أياما أو ساعات بل امتدت لعامين

---

[468]- الأعراف 54.

[469]- الحديد 4 . 6.

كاملين، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}470.

والنوع الثاني: صبر يتمثل في تكوين الإنسان نفسه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}471، إذن؛ فالصبر له صور متعددة وواضحة في حياتنا ولكننا وللأسف لم نلتفت إليها ولا نتخذها مسلكا ومنهجا في حياتنا.

فوائد الصبر على خليفة الله في الأرض عديدة، ومنها:

أ- قهر الشهوات والتحكّم فيها:

خلق الله الإنسان وخلق فيه الشهوة والرغبة، وقد تباين البشر في إتباع شهواتهم، فمنهم من كان عبدا لها تأمره فيطيع، لا يستطيع الصبر على ما يشتهيه فيسرع إليه دون إعطاء الفرصة لنفسه أن يحاورها عن مدى صحة أو خطأ هذه الطاعة لشهوته، فلا يتأنى ولا يصبر على زينة ومتاع الدنيا اللذان من شأنهما أن تدمران حياته، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}472، فالشهوات متعددة في الدنيا وكثيرة وكلّ نوع منها يحتاج إلى إرادة قوية يدعمها الصبر والجلد، والصبر لا يأتي إلا بالطمع فيما عند الله تعالى ومد

470- لقمان 14.

471- الحج 5.

472- آل عمران 14.

البصر إلى النعيم الأخروي الذي ينتظر الصابرين في الدنيا والمتمسكين بصبرهم أمّام إغراءاتها المتنوعة.

ولذا؛ فالمؤمن هو من كان مالكا لشهواته مسيطرا عليها بصبره وجلده، لعلمه بأنها خُلقت لكي تكون عونا له في نيل رضا ربّ العالمين، ولا تكون فتنة ودمار للإنسان في الدنيا والآخرة، فالإنسان المحب لله تعالى تجده صابرا على هذه الزينة البالية لعلمه بأن صبره عليها هو أكثر فائدة ومتعة من الغرق فيها، فإذا ما توصل هذا الإنسان للفهم الصحيح لأمور دينه ودنياه وصل إلى معرفة قيمة الصبر وفائدته العظيمة التي تجعل منه إنسانا مترفِّعا عن الرذائل مسيطرا على نفسه ومعتزا بها، فيصل إلى حدود حب الله وطلب رضاه وعفوه.

ب- التوكلّ على الله واللجوء إليه:

في هذه الحياة نقابل الكثير والعديد من الامتحانات لما كانت عليه حال الدنيا من أنها دار ابتلاء وامتحان كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[473]، وبالصبر فقط نستطيع أن نجتاز هذه الامتحانات والابتلاءات، فكثيرا ما نجد أنه في موقف نعيش فيه أشد لحظات الحزن بفقد أعز النّاس لدينا، فنشعر بالعجز وعدم القدرة على تحمل الألم وصعوبة الفراق، ولكن بالرغم من ذلك نجد أننا نتجاوز هذه الساعات والأيام ونكمل حياتنا العادية.

فكيف يحدث ذلك؟

[473] - المائدة 48.

نقول:

يحدث ذلك بأن الله تعالى خلق الحزن وخلق معه الصبر وأعطاه لمن طلبه، فمن المستحيل أن يطلب الإنسان العون والصبر من الله على ما أصابه ولا يستجيب الله تعالى له، فهو الصبور المطلق الذي يهدي صبره لمن يستحقه ويطلبه؛ فلا يستعين الإنسان المؤمن بأي وسيلة أخرى للنسيان وتجاوز محنته وحزنه، كما يحدث مع بعض النّاس الذين يبتعدون عن الله فيبتعد عنهم الله، نجدهم يلجئون إلى وسائل أخرى للغرق فيها ونسيان ما هم فيه، كأن يتجه بعضهم لشربّ الخمر أو تعاطي المخدرات أو محاولة الانتحار أو اللجوء للسحرة والدجالين للتخفيف عنهم وغيره من أشكال البدع والخرافات والفساد والضياع، لأنه في مكان يبتعد فيه عن الصبور الذي يمنحه الصبر الجميل فتسير حياته على نسقٍ مرتب وتقوى نفسه على المصاعب فيكون مستحقا لحمل أمّانة الخالق له وهي إصلاح الأرض، ولا أروع من الاحتذاء بإدريس الذي بلغ صفة الصبر حتى قال عنه تعالى إنه من الصابرين، وهكذا كان الصبر أمرا متلازما مع كلّ الرّسل في استعانتهم به على شدائد الأمور، قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلو الْعَزْمِ مِنَ الرّسل وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}474.

فلتكن يا خليفة الله في الأرض صابرا متوكّلا على الله الذي لا يمنحك الصبر غيره فممن تطلبه إلا منه عزّ وجلّ الذي جعلك خليفته في الأرض لتصلح فيها ولا تفسد فيها ولا تسفك الدماء بغير حقّ.

474- الأحقاف 35.

فلابدّ إذن أن تفرد الله وحده بالرجاء والأمل والعون، فهو الدافع للضر والماسك للخير والمعطي له إذا أراد، قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم}475

ج – الصبر يأتي بالنصر:

بما أنّ حياة الإنسان كلّها كانت ابتلاء وامتحان من الله فالابتلاء لا بد أن يكون معه الصبر، ولا يكون الصبر إلا بالحقّ وللحق، فعندما يدرك الإنسان المؤمن أنّه على حق يستمد قوته على التحمل وصبره على الأذى ليقينه بأنه على حق، ولهذا فإنّ الله سينصره لأنّ الحقّ دائما هو المنتصر ولو بعد حين؛ فالصبر إذن يأتي بالنصر أي لا نصر إلا مع الصبر والأمثلة على ذلك كثيرة فمن كان يصدِّق أن رسول الله — — والصحابة رضي الله عنهم سيفتحون العالم وهم قلة وتجلجل دعوته في الآفاق لولا صبرهم على الشدائد والمصائب كما حدث حينما قام أهل مكة بمقاطعة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وإخراجه إلى شعاب مكة مع قطع التعامل معهم لسنوات وهم صابرون لم يتراجعوا عن الحقّ المتمثل في الدعوة إلى توحيد الله عزّ وجلّ، وقد كانت نتيجة صبرهم هو ما نراه الآن من انتشار الإسلام في كلّ بقاع الأرض وانتصارهم على جبابرتها، قال تعالى: {الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم}476.

---

[475]- يونس 107.

[476]- الروم 1 . 5.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يستمد حبه لانتصار الحقّ من صبره على الوصول والنضال فيكون بذلك عبدا صبورا منتصرا على الظلم والباطل والفساد، لأن من شأن الخليفة أن يكون معمّرا للأرض ولا يتحقق ذلك إلا بانتصار الحقّ وزوال الباطل والشر من عليها وهذا يتطلب منه الصبر الكثير والقربّ الشديد من الخالق عزّ وجلّ.

وعليه: فمن يستعين بالصبر والحكمة يستطيع أن يحل كافة المشاكلّ الاجتماعية التي تحيط به، ولأمكنه القضاء على الكثير من الأمراض الاجتماعية التي طغت على حياتنا في مجتمعاتنا الإسلامية الحديثة، ولكانت لدينا القدرة لمواجهة أي ظاهرة اجتماعية سلبية، فمثلا لو أخذنا بعض الأحداث المنحرفين سلوكيا وقمنا بدراسة حالاتهم بصبرٍ وحكمة وخبرة لكلّ الدوافع التي من شأنها أن تدفع بهم للوصول لذلك لكنا قد وصلنا إلى حلول أكثر إيجابية من تلك الموجودة الآن، لأن الصبر على المعرفة والبحث والتقصي هو من أروع وأفضل أنواع العلاج الرادع الذي سيغنينا عن الكثير من المؤسسات الاجتماعية، بل سيكون لدينا طاقات فردية في داخل المجتمع الإسلامي هائلة تفيده وترقى به إلى مكانة مرموقة بين باقي المجتمعات الأخرى، وكذلك نلاحظ في حالات كثيرة بين الطلاب في المدارس أنهم يملكون مواهب وقدرة على الابدّاع إذا أُتيحت لهم الفرصة لذلك، وذلك لا يحتاج من المربّيين والمشرفين إلا قليل من الصبر والمراعاة لأوّلئك الطلبة المميزين، لكي نجد أمتنا المسلمة مبدعة منتجة، وهذا من شأنه أن يجعلنا ندرك ما للصبر من جوانب إيجابية ومفيدة تعود على الإنسان وعلى من حوله بالمنافع إن وجهت إلى ما يفيد وينفع الجميع رحمة.

ولذا؛ فإنّ رحمة الله في صبره تتجلى في كثير من الأمور، منها:

أ. عدم تعجيل العقوبة على العصاة والكافرين:

تبارك في علاه يتجلى لنا المعنى العظيم والعميق لهذا الاسم في أنّه لا يعاجل في عقابه وانتقامه كلّ مستحقٍ لهما، مهما كانت درجة الخطأ والجحود، فقد وصل الأمر ببعض البشر بالتطاول عليه عزّ وجلّ في تشكيكهم في وجوده أصلا مثل الملحدين وأصحاب النظريات التي تُرجع وجود هذا الكون للطبيعة منكرةً بذلك وجود الخالق عزّ وجلّ، والبعض الآخر من العباد الظالمين لأنفسهم والكافرين الذين نسبوا إلى الله الأبناء وافتروا عليه الكثير من الأكاذيب على مر الزمان، قال سبحانه وتعالى: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا}477، وكذلك قوله تعالى: {قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}478، وبالرغم من ذلك فقد أرسل الصبور الرّسل والأنبياء الذين منهم سيدنا إدريس صلّى الله عليهم وسلّم لهدايتهم وإرجاعهم للحق ولكي يصلوا إلى اليقين المثبت في حق الله تعالى، مع قدرته سبحانه وتعالى على أن يخسف بهم الأرض في أي وقت، لكنه فتح لهم باب التوبة والتراجع بإعطائهم الفرص المتتالية للاستغفار والإصلاح والتوبة.

وقد وصلت درجة كفر الكفرة إلى مرحلة يستحقون معها أن يسخطهم الله في حينها وينزّل عليهم عقابه في وقتها، قال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}479، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

---

[477]- الإسراء 40.

[478]- يونس 68، 69.

[479]- الرعد 32.

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}480، فالخالق عزّ وجلّ قادر على أخذ الكفار في أي وقت يشاء ولكن حكمته المطلقة ورحمته وصبره عليهم يؤخر عقابه عنهم في الدنيا، ومن يتمادى في كفره فإن جهنم ستكون له بالمرصاد، ولن يغفر لهم ولن يعفو عنهم بصبره بل يمهلهم الوقت فمن رجع منهم للحق كان له الفوز والنجاة، ومن لم يتب فكانت له جهنم، ولذلك فالإيمان والأخذ بالإسلام مستمر ما استمرت الحياة وفي هذا الاستمرار الفرصة تلو الفرصة لمن يهتدي السبيل الحقّ فقد نلاحظ حتى في أيامنا هذه أن الكثير من الأوروبيين أو أصحاب الديانات الأخرى يعتنقون الإسلام ويتركون ما كانوا عليه من الباطل، قال تعالى: {وَربّكَ الْغَفُورُ ذُو الرّحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}481.

ب – خلق الفرص للتوبة لمن أذنب:

هناك الكثير من المسلمين الذين يقترفون الذنوب والكبائر في حياتهم، ويمضي بهم العمر وهم غافلون عن ضياع حياتهم سدىً، ومع ذلك فإن الرّحيم بصبره عليهم وعدم تعجيل عقابه لهم على ذنوبهم يمنحهم الفرص المتكررة للتوبة والتكفير عما صنعت أيديهم بغير حق، قال تعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}482، فبصبر الصبور المطلق يريد الخالق أن يصحّح من سير

---

[480]- الأعراف 182، 183.

[481]- الكهف 58، 59.

[482]- النساء 27، 28.

المسلمين ويغفر لهم بحبه الذي يمنحهم الوقت لمراجعة أنفسهم والعودة لطريق الحقّ والصواب، فيأتي صبر الخالق عليهم في مواجهة إغراءات الدنيا ووسوسة الشيطان من الإنس والجن، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}483، وقوله عزّ وجلّ أيضا في كتابه الكريم: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}484، فكم من ناجٍ من العذاب بسبب صبر الله تعالى عليه مانحا له الفرصة لتغيير مسار حياته أحيانا بكلّمة أو موقف أو فعل أو ابتلاء فينجو من عذاب الحريق بالعودة عما كان فيه والتوبة من ذنوبه.

ج - ضربّ الأمثال للعباد بصبر رسله:

من كرمه تعالى على عباده أنّ أمرهم بالصبر علاجا لما قد يتعرض له الإنسان من ضيق وبلاء بأشكاله المتباينة، وقد جعل الله عزّ وجلّ الرّسل صلّى الله عليهم وسلّم أمثلة للصبر على الابتلاءات والمحن، فما من رسولٍ أو نبيٍ إلا وكان الصبر من صفاته، ومن شأن هذا أن يدعّم فينا هذه الصفة، حيث أن الصبر كان وسيلة من ضمن الوسائل التي لجأ إليها المصطفين والأخيار في مشوار دعواتهم ومسيرة تبليغهم لرسالات الخالق عز، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}485، وقوله تعالى أيضا: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ

[483]- المائدة 39، 40.

[484]- التوبة 102.

[485]- النحل 127، 128.

هَجْرًا جَمِيلًا}486، وكأن أمر الله بالصبر لرُسُله علاجا يتعامل به مع الكفرة والعاصين، وليس مجرد توقيت فيه تأخير أو مماّطلة، وهو عبارة عن مبدأ اعتمد عليه الرّسل والأنبياء يرتكزون عليه في تحمُّل معاناة تبليغ الرسالة لتوحيد الخالق سبحانه وتعالى، ولولا ذلك لما بلغت الدعوة إلى توحيد الله هذا المدى بإذنه تعالى، فصبرهم كان سلاحا قويا يدعم شعور النصر فيهم وليس شعور الضعف والاستسلام والهزيمة، بل أنّ صبرهم على الشدائد والأذى حتى من أقربّ النّاس إليهم كان نابعا من حبهم لله سبحانه وتعالى وحرصهم على رضاه، فهذا كان حد مبتغاهم مرضاته عزّ وجلّ، ونستطيع أن نذكر هنا أن الرضا متبادل بين الصبور وعباده الصالحين، قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}487، فهنا يتجلى لنا الحب المتبادل وهو في أرقى درجاته وأسمى أنواعه، هذا الحب الخالص الذي لا يمكن لإنسان أن يعبد الله تعالى ويصل بحبه له هذه الدرجة من الحب إلا وتجد الله تعالى قد أهداه بين جنبيه قلبا صابرا على الشدائد ممّا يجعل المؤمن صابرا لا يتذمر لعلمه أن صبره في الله لهذا الخالق الذي يحبه ويعظمه، والحبيب يسعى دائما لإرضاء حبيبه، والله لن يضيع صبره أبدا، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجنّة وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}488، من هنا، يتضح لنا حب الله

486- المزمل 10.

487- المجادلة 22.

488- آل عمران 142.

لعباده الصابرين، ومن هنا، أيضا نستطيع أن ندرك مصدر القوّة التي يتحلى بها عباده الصابرين، وهو الحب النقي الصادق.

فعلى خليفة الله أن يكون حبه لله دافعا لصبره، محتذيا بالصالحين والأنبياء والرّسل من قبله، فلا ينكسر أمّام حزنه أو يستسلم أمّام فشله، أو يضعف أمّام مصيبة أو بلاء قد يحلان به، بل عليه أن يستحضر الصابرين في سبيل الله ليشد عزيمته وأن يكون على يقين بأن الله يزيد من محبته لعباده الصابرين، فيكون مضربّ مثل بصبره فلا يستطيع أيٍ كان أن يخترق هذا الحصن المنيع الذي لا يبنيه ولا يعمّره إلا الرضا والقبول بقدر الله ولا يأتي هذا الرضا إلا بحبه.

لذلك فخليفة الله هو عنوان الصبر في الأرض، يتعامل مع أمور دينه ودنياه بالصبر الجميل الذي من شأنه أن ينصره على نفسه أوّلا وعلى من يؤذيه ثانيا فلا يشعر باليأس لمجرد امتناع حاجة من الحاجات عنه أو نقصها بل أنّه يرى في ذلك حب الله له فيكون رده على هذا الحب بالصبر الذي يرتضيه الله لخليفته في الأرض.

وقد حبا الله عباده المتقين بصفة الصبر، تلك الصفة النبيلة الكريمة التي إذا انغرست في النفس البشرية تنبِت صفة الإيثار والتضحية، فالإنسان يصبر أحيانا على أذىً يأتيه من أحب النّاس إلي قلبه وأقربّهم إليه، ويتقبله برحابة صدر وطيبة خاطر ليعلّم هذا المخطئ أن يكون متسامحا عطوفا، فيقابل هو بدوره الأذى بإحسان، فكثيرا ممن يسيئون لأقربّائهم وفي المقابل حين احتاجوا أوّلئك المسيئين للعون وجدوا من أساؤوا إليهم هم أوّل من يمد لهم يد العون والمساعدة مع فائق التسامح، والأمثلة في الدنيا وبين البشر على ذلك كثيرة، فمثلا أروع ما يمكن أن نضربّ به المثل في هذه الحالة هي الأم، فهي تفني أيام عمرها وزهرة شبابها في تلبية متطلبات أبنائها وخدمتهم أطفالا

وكبارا على السواء، ولكن في كثير من الأحيان والأحوال يقابل هذا الحب والعطاء والتضحية بالنكران والقسوة والجحود، فيتجسد الصبر على هذا الشعور في شخص الأم، في احتمالها لهذا الأذى النفسي الذي من شأنه مثل هذا الرد أن يسبب صدمة نفسية عليها، حيث إن ولدها فلذة كبدها فتصبر الأم وتصبر مع اختلاط صبرها بدعواتها بالخير والصلاح والهداية له، وأن يرزقه الله ويوفِّقه ويعطيه من نعمه، فهنا الأم تجسد الصبر على شديد الاحتمال وصعب التحمُّل فيصبح الصبر هنا قمة العطاء وقمة التضحية، فبذلك نخلص إلى أن صبر الأم على أبنائها نابعٌ من شدة الحب الذي يحمله قلبها لأبنائها هو منبع السكينة والرضا على أذى من تحب، ولذا فالصبر هنا يعكس فوائده الصحية على نفس الأم التي لولا صبرها الذي منحها الله إياها لكان عقلها لا يحتمل هذا الجحود، لأنه من الصعب أن تعيش الأم صدمتها في أغلى النّاس على قلبها في الدنيا، فهذا الصبر أحدث التوازن النفسي الذي منع الضرر الصحي والعقلي أن يصيب أي أم تعاني من هذا الأمر الذي أصبح غير مستغربًا في عصرنا هذا.

فالصبر بالأساس هو عنوان عباد الله الصالحين الذين حتى مع ضيق الحال تجدهم أصحاب عطاء وتضحية وتسامح وحب، مثلما ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[489]، فطبيعة البشر تجعلهم من محبي المال والدنيا ولا يكتفون من حب المال رغم سعة الحال عليهم، ولكن من كان يبتغي وجه الله من عباده المخلصون فإنهم بالرغم من ضيق الحال تجدهم

[489]- الحشر 9.

يكرمون غيرهم ويؤثرونهم على أنفسهم لِما يتحلون به من صبر على ضيق الحال.

فمن الأمور التي تعودنا الصبر هي:

أ- حب الله:

إذا انغرس حب الله في نفس المؤمن فإنه يستطيع أن يواجه العالم بأسره وينتصر، وقد بشّر الصبور المطلق الصابرين لعلمه بصعوبة الصبر، فوعد الصابرين بالجزاء العظيم مكافأةً لهم على ما كابدوه وعانوه ليصلوا إلى إمكانية الصبر، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوَلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوَلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}490، فكم من مبتلٍ في هذه الدنيا منحه حبه لله الصبر على معاناته ومحنته، وأروع مثال على ذلك صبر آل ياسر على أذى وعذاب كفار قريش، فقد تجلى فيهم أروع صورة للصبر والتضحية في سبيل الله، إذ أن الله تعالى بشّرهم بموعدٍ في جنة الخلد على لسان رسوله الكريم حين خاطبهم قائلا وهم تحت وطأة العذاب: (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنّة)، فاستحقوا بصبرهم هذا الوعد وهذا التكريم من الصبور الذي أمدهم بالصبر والثبات في قلوبهم، فانتصروا بهذا الثبات على جميع كفرة قريش وجبابرتها.

وعندما يصبر الإنسان فمعنى ذلك أنه قد فوّض أمره لله تعالى وتوكلّ عليه، ولابدّ أن يكون الخالق عند حسن ظن عبده به، فإذا

---

[490]- البقرة 155. 157.

سأله النصر أعطاه، قال تعالى: {بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ}491.

ب- الصلاة:

فالمداومة على الصلاة من شأنها أن تعوِّد المؤمن الصبر، فلا يتذمر من تكرار الصلاة ولا يتثاقل عنها ولا يكسل بل يقوم إليها بحب ويصبر على كلّ أمور الدنيا لكي لا يتلهى عنها، بعكس المنافق الذي لا يملك حبها أو الصبر عليها، قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النّاس وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}492، فالصلاة من الأمور التي من شأنها أن تعوِّد النفس على الخشوع والطاعة لأمر الله وتقربّ بين العبد وربّه، وهذا القربّ هو الذي يولّد الصبر في النفس المؤمنة الراضية بقضاء الله، فالصلاة إذا هي بمثابة تمرين للنفس على الصبر والخشوع، وقد أوصى لقمان ابنه بالمداومة على الصلاة لما وهبه الله من حكمة وصواب رأي وبُعد نظر فكان حكيما صائب الرأي، قال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}493.

ج- الصوم:

من المعروف أنّ الإنسان محب للطعام ومستحق له، والتنوع في الأطعمة جعلت الإنسان يشتهي ويتلذذ بها، بل ويكثر من طلبها

491- آل عمران 150.

492- النساء 142، 143.

493- لقمان 17.

كضرورة لإشباع حاجاته المتطورة والمتنوعة عبر الزمن، وقد فرض الله عزّ وجلّ الصيام وهو ترك الطعام من الفجر إلى غروب الشمس، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}494، وهذا بالتأكيد توقيت طويل بالنسبة للإنسان الذي اعتاد الأكلّ في أكثر من مرة في اليوم، وهذا الركن فيه تعوّد وتصبير لشهوة الطعام في الإنسان، إذ بصبره على الأكلّ حبُ لله وطاعةُ لأمره مع الاحتفاظ بهدوء النفس وعدم التذمر والضيق والعصبية، ففي كلّمة (اللهم إني صائم) عند مواجهتنا لأمر يستفزنا من شأنها أن تعوّد أنفسنا على مقابلة الإساءة والصبر عليها باللجوء إلى المولى عزّ وجلّ، فننأي بأنفسنا عن الانحطاط الأخلاقي، ولذا فقول الصائم عندما يرى ما قد يضعفه (اللهم إني صائم) تعني التمسك بقرار الصبر على إتباع الحقّ، وذلك لأجل الفوز بما هو أعظم.

ففي الصيام تدريب جسدي ونفسي للصبر، فلابدّ أن نصبر على الطعام طاعةً لأمر الله تعالى، وأن نصبر على أذى غيرنا بكبح النفس عن رد الإساءة، وكذلك الصبر على شهوة الجنس طوال ساعات عديدة، قال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فالآن بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكلّوا وَاشْربّوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ

[494]- البقرة 183، 184.

حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}495، فالصبر عن ممّارسة الجنس من شأنه أن يعوّد المؤمن على كبح شهواته والتحكم فيها، فمن يستطيع أن يكتم ويسيطر على شهوته ورغبته الجنسية طوال ساعات وأيام يستطيع أن يصبر العمر كلّه أمّام مغريات الشهوة وإن قويت مع قوّة وشدة الحاجة.

د- الصدقات:

في الإنفاق عدة مزايا تعود على صاحبها وعلى غيره؛ فالمتصدق يعوِّد نفسه على حب الله أكثر من أي متاع آخر من متاع الحياة الدنيا، فيتحرر بالإنفاق والتصدق من سيطرة حب المال والشح عليه، ويتحررا من عبودية هذا النوع بالصبر، ولذلك لا نراه فاقدا للعقل أو متزعزع الثقة بالله عند حلول هذا الأمر عليه، بل نراه ثابتا محتسبا أمره لله لعلمه أنها أمّانة ووديعة تركها الخالق لديه وأراد استرجاعها، فبتعوّده على الإنفاق يسهل عليه المال فلا يتعلق به، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}496، فالخالق يحبّب عباده المخلصين في الإنفاق بأن يضاعف لهم الحسنات ويدخلهم نعيمه الدائم.

فالصدقات وحبّ الإنفاق من شأنها أن تعوِّد الإنسان على الصبر على فقدان ما يملكون من مال دون أن يكون ذلك له أثر سلبي في

[495]- البقرة 187.

[496]- التغابن 16. 18.

نفوسهم التي امتلأت بحب الله الذي يمنحهم الصبر على فقدان متاع الحياة الدنيا.

وهناك نوعان من الصبر:

النوع الأوّل: الصبر الطيب الذي يملأ القلب بالرضا والطاعة للخالق عزّ وجلّ، قال تعالى: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا}497، فمن شأن هذا النوع من الصبر أن يُشعر الإنسان بالراحة النفسية والطمأنينة، فيصبر الإنسان على ما يصيبه وهو راضٍ ومطيع، ولذا فإن الصبر الطيب هو الذي لا يصحبه حزن أو هم ولا يرافقه اليأس أو الإحباط، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}498.

وقد كان الله صبورا على أفعال البشر الإيجابية والسلبية، فلو أخذنا مثلا صبره على أفعال عباده الإيجابية لوجدنا أنه عزّ وجلّ يقابل كلّ ما هو طيب صادر عن عباده من قول أو فعل بالجزاء الأوفى، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}499، وذلك درسٌ وعبرة لخليفة الله لكي يصبر فيكون في صبره هذا شكر للمولى عزّ وجلّ، فيجتمع هنا الصبر مع الشكر، حيث قال الله تعالى: {اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}500، لأنه من الصعب اجتماع الصبر مع الشكر في قلب الإنسان العادي الذي تشغله الدنيا فيسعى خلفها لاهيا غافلا لا يهمُّه إلا الحصول على مبتغاه، ولكن عند خليفة الله في الأرض يجتمع

497- المعارج 5.

498- النحل 127.

499- هود 11.

500- سبأ 13.

الصبر مع الشكر فيقوى الإيمان، حيث أنّ الخليفة يصبر على الشدائد وهو شاكر لله فضله فيكون بذلك قد نأى بنفسه وارتقى بها إلى أعلى درجات الحب والطاعة للخالق تعالى، وهذا الأمر الذي يشق على كثير من المسلمين وخاصة في وقتنا هذا، ولكن الشكور المطلق يكون أكثر كرما من الإنسان وأكثر عطاءً إذ أنه يرد على شكر الخليفة وصبره بالنعيم الخالد الذي كان يتمناه في الدنيا، بالرغم من غنى الصبور عن شكر وصبر الإنسان، لكنه كريم صبور في عطاياه ورد الشكر للخليفة، فعطاؤه لا ينتهي فهو إذن صبور في تكرار واستمرار منح وعطاء ورد الشكر والمحبة.

هذا هو النوع من الصبر الذي يجتمع فيه الأمل بالفرج والرغبة في المحاولة للوصول إلى ما يطمح إليه الإنسان ولا سبيل لأن يصل إلى مبتغاه إلا بالتوكلّ على الله والصبر الجميل، قال تعالى: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}501، فقد قرن الله تعالى في الآية الكريمة السابقة بين الاستعانة به والصبر وبين خلافة الإنسان للأرض الذي هو الهدف الأساسي لخلق الإنسان في الأرض، فبالصبر والتوكلّ على الخالق عزّ وجلّ نكون قد حققنا الغاية من خلقنا وبذلك تكون حياتنا كما أرادها الخالق عزّ وجلّ، فيكرمنا من عنده بمدنا بالصبر والجلد.

النوع الثاني: هناك نوع من الصبر يكون مصحوبا بالتذمر والضيق، أي: يكون على عدم رضا من الإنسان فيضيق صدره بما حل به أو نقص عليه، فتراهم لا يحتملون الشدائد ولا المحن التي من الطبيعي أن يمر بها النّاس في حياتهم الدنيا وكأنهم الوحيدون الذين أصابهم الحزن والهم.

501- الأعراف 128.

وقد خصّ الله تعالى الصابرين الراضين والمطيعين بمزايا منها:

أ – ينزّل الله رحمته عليهم فيصيبهم بالأمن والطمأنينة، قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوّلئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوّلئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}502، فرحمة الله تعالى تكون بمثابة الطمأنينة والسكينة التي تسكن قلوب الصابرين حبا في الله.

ب – استحقاق البشرى: فبصبرهم استحقوا بشراه كهدية لهم جزاء صبرهم، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}503، فطوبى لمن استحق بشرى الخالق، لما فيها من مكرمة ورفعة للإنسان عند ربّه، فالصبور لا يمنح بشراه إلا لأقربّ عباده.

ج – مدّ الله الصابرين بالعون والمساعدة، قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}504.

---

[502]- البقرة 156، 157.

[503]- البقرة 155.

[504]- آل عمران 146 . 148.

د – الجزاء الكبير المجزي: فقد خص الله تعالى عباده الصابرين بالجزاء العظيم، قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}505.

هـ – تعليمهم الدعاء: قال سبحانه وتعالى: {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ ربّنَا لَمَّا جاءَتْنَا ربّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}506.

فيجب على خليفة الله أن تكون حياته صبرا جميلا يملؤه الأمل في أن يكون ممن استحقوا بشرى الخالق بالجنّة والنعيم الدائم، فينتصر على اليأس بإيمانه بالقدر والقضاء من عند الله تعالى، فيتقبل الفرح والحزن والضيق والفرج بكلّ قوّة وطاعة، فلا يأخذه الغرور عند العطاء ولا يأخذه الحزن واليأس عند الضيق والنقص، فيكون ممن ذكرهم الله في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ ربّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ ربّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا ممّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أوّلئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كلّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}507.

و – زرع الطمأنينة في قلب الصابر: الإنسان بطبيعته عجول لا يحب الانتظار ولا يطيق أن يطول به الوقت عند عزمه لقضاء أمرٍ ما، وبطبيعته أيضا أنه مخلوق لا يهدأ ولا يستكين بسهولة ولا تنقطع

505– النحل 96.

506– الأعراف 126.

507– الرعد 21. 24.

متطلباته في الدنيا، فلا يقنع بأي شيء ولا يرضى بأي حال، قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}508، لكنّ المؤمن الحقّ لا تكون من صفاته الخوف والجزع واليأس بل يهبه الله تعالى الصبر والرضا ويملأ فؤاده بالطمأنينة التي يبحث عنها ملايين النّاس الذين يبتعدون عن خالقهم فيبتعد هو بالتالي عنهم، فلا يأتي الشعور بالأمن والطمأنينة من إنسان مشغول قلق كلّ همه جمع ما يرغب في الدنيا متناسيا أنها زائلة وفانية، فيتملكه اليأس والجزع لضياع ما كان له وكأنه تناسى أنه من عند الله الخالق القادر على كلّ شيء.

وللصبر أنواع منها:

أ . صبر على ممّارسة الطاعات والعبادات: قد يتبادر لذهن المؤمن أنّ في المداومة على القيام بالعبادات اليومية كالصلاة والاستغفار وقيام الليل والحمد والصيام هو أمر هيّن على كلّ النفوس المسلمة ولكن هذا غير صحيح لأنّ من شأن هذه العبادات والطاعات أن تجعل من بعض المسلمين في ضيق وملل منها، فنرى البعض يهملها أحيانا أو يقوم بها وكأنها عادة يومية أو غرض عليه الخلاص منه، فتكون صلاته عبارة عن عبارات وحركات يؤدّيها في اليوم ويكررها، ولكن في الوقت نفسه نجد هناك من المؤمنين من يقوم بها بكلّ صبر وحب في نيل رضا الله تعالى عليه، فيسارع إلى القيام بكلّ ما عليه من فروض وواجبات دينية ويتعداها إلى النوافل بل ويداوم عليها حبا في الله ورسوله الكريم — – فلا يؤخره هطول المطر عن الخروج لصلاة الفجر ولا يتكاسل عن قيام الليل بحجّة النعاس أو التعب أو البرد الشديد،

---

[508]- المعرج 19 . 21.

وهذه الأعمال تحتاج إلى الصبر الطيب للمداومة عليه وعدم قطعها ومع ذلك فإن مع العسر يسرا.

ب . الصبر على الإغراءات: حياة البشر في الدنيا مليئة بالإغراءات التي من شأنها أن تؤدّي بالإنسان إلى الهلاك، وخاصة أنه مخلوق ضعيف أمّام الشهوات والأهواء لوجود المزينين للأمور بالحياة الدنيا، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[509]، فمن النّاس من يسيطر عليه حب المال فلا يملك الصبر لفراقه أو الإنقاص منه، يفوق حبه في قلب صاحبه عن كلّ حب، وأحيانا نجد من يضعف أمّام النساء فلا يملك نفسه أمّام إحداهن فيقع في الرذيلة، قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[510]، مع أنّه لو صبر وثبت لكان الله قد أثابه ووهب له الخير الكثير، وتارة نجد من يعشق اكتناز الذهب والفضة وكأن حياته موقوفة على ذلك، فلا يبحث عن الأمّان والهدوء إلا في ظل وجودها، لذلك فقد كانت حياة المؤمن تعدد وتكرار لامتحانات

---

[509]- آل عمران 14.

[510]- النساء 25، 26.

وابتلاءات عليه تجاوزها بالصبر والجلد، فيكون الإنسان في جهة ورغبته في جهة أخرى يعارضها ويقف أحيانا ضدها إذا ما أمرته بالسوء والفساد، ولا يسيطر المؤمن عليها إلا إذا كان معتادا على الصبر ومتمرس على الجلد والثبات في وجه كلّ مفسدة ولا يدعم هذا الموقف الثابت إلا حب المؤمن لخالقه وسعيه لطلب رضاه ومغفرته وهو بالصبر شديد الوثاق.

ج . ومن أنواع الصبر القضاء والقدر؛ فلكلّ إنسان قدره وقضاؤه يقدّره الله عليه حسب علمه المسبق وحكمته المطلقة في خلقه، لذلك لا يجب على المؤمن أن يوقع نفسه في مقارنة بينه وبين أي مؤمن آخر أعطاه الله ومنحه من نعمه الكثير الكثير، فلابدّ أن يكون الإنسان المؤمن على يقين بأنّ الله تعالى عادل في توزيع نعمه وعطاياه على خلقه، سواء أكانت صحة أم مال أم جمال أم قوّة أم سلطان أم غيرها، فالصبر على القضاء والقدر يُخلق في نفس المؤمن ويكون من دعائم ثبات الإيمان واليقين بحب الله ورحمته بنا، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[511]، فيكون الرضا هنا نابع من طاعة لله والإيمان بحبه والأمل بيقين في نيل رضاه وجنته، ولذلك فأصبر وما صبرك إلا بالله وعليه توكلّ كما صبر وتوكلّ سيدنا إدريس طاعة لأمر الله الذي قال عنه أنه من الصابرين.

---

[511]- البقرة 155 . 157.

وعليه: فإنَّ الصَّبُورُ في صِفَة اللهِ عزّ وجلّ: "الحَلِيمُ الَّذِي لا يُعاجِلُ العُصاةَ بالنِّقْمَةِ بل يَعْفُو أو يُؤَخِّرُ"512.

في أَسماء الله تعالى الصَّبُور هو "الذي لا يُعاجِل العُصاة بالانْتقامِ، ومعناه قَرِيب من مَعْنَى الحَلِيم، والفرْق بينهما أَن المذنِب لا يأْمَنُ العُقوبة في صِفَة الصَّبُور كما يأْمَنُها في صِفَة الحَلِيم"513.

وأمّا صبر العبد فلا يخلو عن مقاساة لأن معنى صبره هو ثبات داعي الدين أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب فإذا تجاذبه داعيان متضادان فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة ومال إلى باعث التأخير سمي صبورا إذ جعل باعث العجلة مقهورا وباعث العجلة في حق الله سبحانه معدوم فهو أبعد عن العجلة ممن باعثه موجود ولكنه مقهور فهو أحق بهذا الاسم بعد أن أخرجت عن الاعتبار تناقض البواعث ومصابرتها بطريق المجاهدة514.

اسم من أسماء الله يدلّ في معناه على التأني وينفي صفة العجلة والتسرع عن الخالق عزّ وجلّ، والذي يعطينا معنى تأخير العقوبة على من يستحقها من البشر على ما قدموه في الحياة الدنيا، أي أن هذا التأخير بأجل محدود ومقدّر لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}515، فتأخير العقاب على مستحقيه لا يعني إسقاطه عنهم بل وجوب وقوعه عليهم في وقت معلوم ومحدد من الخالق لا

---

512 تاج العروس، ج 1، ص 3046.

513 لسان العرب، ج 4، ص 437.

514 الغزالي، المقصد الأسنى، ص 149.

515 النحل 61.

دخل للإنسان بهذا التوقيت ولا علم له به، ولولا صبر الله المطلق على المجرمين والعصاة لكان العقاب فوريا، لكنه لا يعجّل إنزال العقاب عليهم ليمهلهم.

الصبور: مصدر لكلّ صبر، يستمد الصبر منه وهو لا يستمد من شيء سبحانه، ولذا فالصبر دليل قوّة العزيمة وسلامة الرأي والقرار والفعل والعمل وذلك لأنه المستمد من الصبور المطلق، ومن اتصف به كان من المستخلفين فيها.

والصبر في حق الله تعالى يكون درسا في التوازن والنظام، أي أنه سبحانه وتعالى لا تحمله العجلة على تقديم ما لا يجب تقديمه، أو تأخير ما لا يجب تأخيره بل حكمته هنا تتدخل لتعمل على تسيير أمور خلقه وفق نظام وسنن ثابتة، لا يمكن أن تتبدل هذه السنن أو تتغير لتعجل أو تسرع في أمر من أمور عباده.

والصبور سبحانه وتعالى بقدرته فهو القادر وبقوته فهو القوي يستطيع أن يفعل ما يشاء، في الوقت الذي يشاء، قال تعالى: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}[516]، فصبره دائما على حكمة مطلقة وبالغة فهو يأمر بالكاف والنون ولكنه يُمهل ويصبر بشكلّ متوازن وعادل دون أي خلل في ذلك، وكيف يكون ذلك وهو المنزه عن كلّ نقص أو عيب من شأنهما أن يسببا أي ضعفٍ أو خلل؟

وكلّ شيء عنده بميزان وبمقدار وبميعاد، قدرّه الخالق مسبقا مع التوافق بسرعته في تسيير الأمور، وهنا نجد أن السرعة المتوازنة صائبة لا خلل فيها ولا عيب، فمثلا نجد أن الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من حياتنا يعطينا ما نطمح إليه ونحتاجه في وقته، وفي أحيانٍ أخرى

[516] البروج 16.

يمسك تلك الحاجة فيمهلها أو يؤخرها علينا، وكأنه عزّ وجلّ يدلّنا على أصوب الطرق للصبر الذي علينا أن نستمده منه.

فالصبور تبارك وتعالى يعلّمنا ماهية الحكمة في العطاء وفي منع هذا العطاء، ويُشعرنا بهيمنته الكاملة على كلّ شيء في الحياة والكون بصفة عامة، وأن بيده كلّ الأمور يقلّبها ويدبّرها حسب علمه المطلق وحكمته البالغة، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كلّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}517، إذن هو الصبور بالرغم من استطاعته وقدرته وقوته على كلّ شيء مطلقا فهو الكامل في صفاته وأفعاله الجليلة العظيمة الحكيمة، وصبره نابع من ذلك الكمال كلّه، ولو تأملنا جيدا في هذا الاسم لوجدناه الخير كلّه يجمعه ويوزعه على الخلق بكرمه ورحمته وحكمته، بالرغم من أنه يصبر على العباد إلا أنه في أحيانٍ أخرى قد ينزّل عقابه سريعا ويرسله كعبرة للبشر وموعظة، قال تعالى: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ}518، وهنا صفة الصبر لا تنتفي مع تنزل العقاب والعذاب ليكي يُحدث التوازن في إحقاق الحقّ والانتقام من الظالمين الذين لن يرتدعوا بأية وسيلة، ولا نجد أي نوع من التناقض في ذلك أو الظلم، قال تعالى: {كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كلّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ}519، فعلمه المطلق عزّ وجلّ والمسبق أدرك مسبقا أن الخير والنفع للعباد سيكون على هذا الشكلّ، فالصبور بصير بعباده وعليم بهم وبما يكتمون ويُظهرون.

---

[517] يس 82، 83.

[518] هود 67، 68.

[519] القمر 42.

الصبور: هو من لا قلق فيه، وهو الذي يعلم بالأمر ويعلم ما يقوله ويفعله ويظنه الظانون، وهو بكلّ شيء عليم، ومع ذلك يترك الأمر إلى حين، ولهذا قال: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}520.

الصبور في صبره إبداع، وفي إبداعه صبر عظيم، فهو الخالق المبدع لكلّ شيء منذ أمره بنشأة الحياة والكون، فهو سبحانه دائم الخلق والابدّاع حيث أنه الخلاق، قال تعالى: {أوّليْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كلّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 521، فكم من أعدادٍ للبشر جاءوا ورحلوا عن هذه الأرض؟ وكم من أنواع للنباتات والدواب والطيور جميعها كانت سواء في الفناء، فنستشعر هنا بالصبور الذي لا يكلّ ولا يملّ ولا يتعب، إذ أنّه بواحديته المختص الأوحد في فعل كلّ ذلك سبحانه الأحد الصمد، الذي لا يشاطره أي شيء آخر في قدرته وخلقه، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبّحْ بِحَمْدِ ربّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}522، ففي الآية الكريمة السابقة جعل الله تعالى قدرته على الخلق دون تعبٍ أو مشقة درسا ومثلا لتعليمه أنبيائه ورسله الصبر على صعاب الأمور، وكأنه يقول للبشر ما هو الأمر الأصعب من الخلق وتكوين هذا الكون؟ وبالرغم من ذلك فقد نفذ أمره دون ملل أو تعب، فعلى الخليفة الذي

---

[520] الروم 60.

[521] يس 81. 83.

[522] ق 38، 39.

استخلفه الخالق في الأرض أن يكون صابرا على أموره وثابتا لا يهزمه الملل ولا يقضي عليه التعب والضيق.

ولله المثل الأعلى: فالإنسان عادةً ما يقوم بعملٍ ما أو يكون مسؤولا عنه نجده في يومٍ من الأيام متذمرا منه ضائقا به، ولابدّ أن تمر عليه لحظة يشعر فيها بالملل والتعب والضجر منه، فيؤثر ذلك على سير عمله بالاختلال أو النقص، فيضطر للاستعانة بغيره لمساعدته على ضبط العمل والعودة إلى سرعة الإنتاج وتجاوز الخلل الذي سبق وأن حدث، لكنّ الخالق عزّ وجلّ منزه عن كلّ نقصٍ أو عيب أو خلل فلا يكابده التعب أو الضجر لقدرته الكاملة لاستيعاب كلّ شيء في آن واحد، فهو الصبور بقوته ومتانته وجبروته عزّ وجلّ، فنلاحظ اجتماع أكثر من صفة في حق المولى عزّ وجلّ، حيث أنه:

. ذو الجلال والإكرام الصبور المستمر في الخلق والابدّاع وإحقاق الحقّ بعدله المطلق، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النّاس شَيْئًا وَلَكِنَّ النّاس أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[523].

. المنتقم من الظالمين على مر الزمان، قال تعالى: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[524].

. الرّحيم بعباده دون انقطاع لهذه الرّحمة، قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرّحمن الرّحيم}[525].

. الودود الذي لا يمل من تقديم الود والحب لعباده، قال تعالى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}[526].

---

[523] يونس 44.

[524] إبراهيم 47.

[525] البقرة 163.

. الغفور لذنوب عباده المذنبين، فلا يتعب من كثرة ذنوبهم ولا يملل من الغفران وقبول التوبة، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}527.

. الخالق في استمراره الدائم للخلق ومراقبتهم وتسجيل أعمالهم تجسيد عظيم للصبر، فقد قال عزّ وجلّ: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}528.

إذن فالخالق الصمد هو وحده الصبور في ملكوته على القيام بكلّ شيء وباستمرار دون انقطاع أو خلل، فكيف لا يلجأ إليه العبد الضعيف الذي لا تنقطع حاجته إليه.

فالله هو الصبور وهو الواحد الأحد وهو الملجأ الوحيد لكلّ عباده، فلا يكون مثله أحد في صمديته ووحدانيته، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}529، فقد يسّر الله كلّ هذا الكون لخدمة خليفته في الأرض، فكان هذا النسق وهذا النظام البديع في الكون بأسره، قال تعالى: {لَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحمن مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ

---

[526] البروج 14.

[527] الملك 1، 2.

[528] الأنعام 59.

[529] الإخلاص 1 . 4.

حَسِيرٌ}530، فبهذا يختص سبحانه وتعالى بالوحدانية التي ترتبط بالصبر لذلك فهو الصبور لقيامه وحده بكلّ ذلك وبالشكلّ المتقن الدائم المستمر، كلّ عمل يتناسب والوضع والزمان والمكان ومن هنا نستطيع القول أنه الصبور في أحكامه لأنه يعلم كيف وأين ومتى يفعل وينفذ، ولا شيء ولا أحد يستطيع أن يغيّر شيء قدّره الواحد الأحد.

إنه الصبور على ما يقولون وعلى ما يفعلون، وصفة الصبر تنبع منه أساسا، حيث أن كلّ شيء إيجابي وكلّ ما هو حق وكلّ ما هو جميل، منبعه منه أوّلا وأخيرا عزّ وجلّ.

وتكمن صفة القوّة في الصبر، حيث أنه لا قوّة بلا صبر، ولا صبر إلا عند قوي متين، فالصبر الحقّيقي يكون متحدا وملازما للقوّة، تلك القوّة التي تحتاج إليها عملية الخلق، فكان حقٌ لله على خلقه توحيده وعبادته، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقوّة الْمَتِينُ}531.

والصبور في حق الله له أكثر من دعامة يرتكز عليها منها:

1- صبره عزّ وجلّ عن قوّة وقدرة مطلقين:

فصبر الخالق المطلق على عباده يدعمه القوّة والقدرة لا الضعف والحاجة، فما حاجة الله لنا وهو المالك لكلّ شيء وبأمره (كن) يفعل ما يريد، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}532، فمن يملك كلّ هذه القدرة بالتأكيد هو بغنى عن كلّ

[530] الملك 3، 4.

[531] الذاريات 56 . 58.

[532] النحل 40.

ما خلق وصوّر، قال سبحانه وتعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}533، فبما أنه عزّ وجلّ الغني عنا فهو القوي القادر على كلّ شيء وبالتالي من يملك هذه القدرة المطلقة لا يمكن أن يكون صبره عجزا أو ضعفا أو حاجة، فهو المنزه عن النقائص والعيوب عزّ وجلّ، ولا يمكن أن يكون إلا الكمال له في صفاته.

ولكن بالرغم من قدرته المطلقة إلا أنه صبورٌ على أخطائهم مفسحا لهم المجال للرجوع عن ذنوبهم والتوبة منها إذ أنه عزّ وجلّ لا يمكن أن يظلم أحدا بسبب خطيئة غيره، قال سبحانه وتعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}534.

2- صبره عن علم لا عن غفلة:

قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}535، فالله تعالى ينتفي عن نفسه صفة الغفلة والنسيان والتلاهي عن أي أمر، وصبره لا يعني أنه غافلا عما يفعله العباد وطول الفترة لا يعني نسيان أمرهم، بل صبره فيه تأخير لهؤلاء البشر وذلك لحكمته المطلقة وعلمه اللذان يقدّمان ويؤخرّان الأمور حسب مشيئته وإرادته عزّ وجلّ، فالغفلة تتنافي مع علم الله المطلق بكلّ شيء، وما صبره المطلق بعباده إلا لعلمه المطلق بما هو نافعٌ وضار بهم.

[533] لقمان 26.

[534] الأنفال 33.

[535] إبراهيم 42.

وفي الآية الكريمة السابقة توضيح لعدم غفلة الله بدليل تحضير العقاب المناسب لهم والذي استحقوه بظلمهم، فمن كان على علم بالعقاب كيف يكون غافلا عن العمل المستحق لهذا العقاب؟

الله بعلمه المسبق والمطلق على علمٍ بكلّ شيء لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لهذا فقد كان جزاؤه وعقابه حاضرين وهذا يدلّ على انتباهه لأصغر وأدق الأمور، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرّحيم الْغَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَربِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أوّلئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أوّلئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ}536.

3- صبره عزّ وجلّ على عباده لا يعني إسقاط العقاب:

العقاب قائم بإذنه تعالى على من يستحقه كما سبق وأخبرنا الله تعالى بذلك في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، قال تعالى: {مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}537، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأوّلئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أوّلئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ

---

[536] سبأ 1، 5.

[537] آل عمران.

نَاصِرِينَ}538، إذن فالعقاب قائم رغم عدم وقوعه عليهم في الدنيا بصبر الله تعالى عليهم، ولكن هذا الصبر لم يكن بمثابة عفوٍ أو إسقاطٍ لهذه العقوبة.

فقد حذّر الله تعالى عباده من العقاب الشديد الذي ينتظرهم جزاء ما اقترفوه من ذنوبٍ وشرور وفساد، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوّلَئِكَ مَا يَأْكلّونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النّار وَلَا يُكلّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أوّلئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّار}539، وهذا تأكيد على أن العقوبة قائمة رغم الصبر عليهم، فلا يلغي الصبر على كفر الكافرين العقاب الشديد، الذي يستحقونه دون نقصٍ أو زيادة.

بذلك لابدّ أن نفرّق بين صبر الله تعالى وصبر العباد لأن صبر الصبور يكون عن قدرة مطلقة كاملة، وأيضا لا يكون صبره لقضاء حاجة له عند عبيده في الأرض، وكذلك لا يكون صبره حاملا الألم والحزن لعدم تمام ما يريد أو تأخيره، قال تعالى: {وربّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرّحمة إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}540، أمّا الإنسان فقد يكون صبره عن ضعف وعدم استطاعة، أو لقضاء غاية والوصول إليها عند غيره من البشر، ويكون في صبره شعورا يحرّك الألم والحزن في داخله، وقد يؤدّي به إلى اليأس والإحباط.

---

[538] آل عمران 90، 91.

[539] البقرة 174، 175.

[540] الأنعام 33.

من مظاهر صبر الصبور سبحانه وتعالى على عباده، منع الله تعالى للطبيعة عن معاقبة الكافرين، قال تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}541، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}542، فما الذي يمسك عقاب الطبيعة للمجرمين؟.

واسم الله الصبور على الخلق جميعا مسلمهم وكافرهم، عاصيهم ومطيعهم، ثائبهم ومذنبهم، فقد اجتمع البشر مسلمهم وكافرهم، وفقيرهم وغنيهم، وصحيحهم ومريضهم في الابتلاءات لكنهم اختلفوا عن بعضهم في الصبر الذي استحق الثواب.

والله هو الصبور على جميع الخلق، ولكن رحمة الله بصبره وحلمه على العباد العصاة، بالرغم من شدة كفر هؤلاء النّاس وإشراكهم به عزّ وجلّ، هو الصبور الذي يُخفي بين طياته الكرم والرّحمة، فصبره هو الذي أخّر هذا العقاب الدنيوي للكافرين جزاءا لهم على كفرهم وعنادهم، فصبر الصبور هنا تمثّل في المنع عن تنفيذ العقاب الفوري

---

541 إبراهيم 46.

542 فاطر 40 . 42.

لأوّلئك الكافرين وهذا ما ترغب به السماء والأرض من شدة كفرهم وطغيانهم إلا أن الصبور يمسكهما بصبره وحلمه عزّ وجلّ.

فعلى خليفة الله أن يكون صابرا امتثالا لأمر الخالق في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}543، لأن الصبر فيه حكمة التصرف والتحكم في النفس ليصل الإنسان إلى أفضل وأسلم النتائج.

الصبور: يهب الصبر لمن يشاء من عباده بعلمه وخبرته بهم، ويجعلهم يتحلون به ليعينهم على تحمل ما يلاقونه من مشاق ومصاعب في الحياة الدنيا، فيكون صبرهم سندهم في تكملة طريقهم في الدنيا الذي رضي المولى عن سلوكه، وقد وهبهم الله الصبر لحبه فيهم مظهرا لهم مكانتهم عنده فيبادلونه هذا الحب الكبير برضاهم بقضائه وقدره وطاعتهم له سبحانه وتعالى، قال عزّ وجلّ في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}544، من هنا تتضح مكانة العبد الصالح المخلص عند الله فهو مخلوقٌ غالي على الخالق استخلفه في الأرض وأكرمه أكثر من جميع خلقه، علما بأن الخالق بعلمه المسبق وخبرته بخلقه جميعا يعلم أنهم سيفسدون ويسفكون الدماء ولكنه أيضا علم أنه من عباده الصالحين المصلحين فصبر على الظالمين وقربّ المخلصين وأثابهم وأعطاهم أكثر ممّا يمكن أن نتصوره ليستطيع أن يتحمَّل العبء المنوط به، فيكفي الإنسان أن يتأمل في اسم الصبور ليستشعر بينه وبين نفسه أنه مخلوق مكرّم وغالي عند ربّه، والدليل

543 آل عمران 200.

544 البينة 7، 8.

على ذلك أنه حين يخطئ أو يُذنب أو ما شابه ذلك يجد الخالق أحيانا ساترا له لا يفضحه بين النّاس بل يستره، وهذا لا يكون إلا بوجود الحب والمودة بينه وبين خلقه، وصبره على خطيئة العبد مع القدرة والاستطاعة على العقاب فلا لشيء إلا لتقدير الخالق لهذا المخلوق.

لذلك فلابدّ لخليفة الله تعالى أن يكون عاشقا لله مستشعرا بمكانته عنده، فلا يفرّط فيها ولا يجب أن تنقص بل يجب أن تزيد، ومكانة هذا الخليفة لا تزيد إلا بالعمل الصالح والطاعة لله تعالى وخشيته والإخلاص له والصبر على حكمه، قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[545]، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}[546].

والصبر ليس شعورا يزرعه الصبور فينا فقط، بل هو منهج حضاري راقٍ يصل بالبشرية إلى الهدف الأسمى وهو سيادة المحبة والعدل والنظام، والدليل على ذلك يتطلب من الإنسان أن يتأمل في الكون من حوله ليدرك مظاهر الصبر الظاهرة فيه، فالشمس مثلا تشرق رويدا رويدا وتغربّ كذلك لا عجلة في حركتها بل تتحرك وهي مقدرة بنظام ودقة، وكذلك فقد خلق الله السماوات والأرض على مراحل وأيام ولم يكن خلقها في لحظة مع إمكانية تحقيق ذلك بالنسبة لقدرة الله تعالى، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا

---

[545] النحل 96، 97.

[546] الملك 12.

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ}547، وكذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}548، فالسماء والأرض كان في خلقهما آية للناس في الصبر مع توفر القدرة لخلقهما في لحظة واحدة، وكذلك لو تأملنا إلى خلق الإنسان نفسه منذ بداية تكونه جنين في رحم أمه، فينمو شهرا بعد آخر ولا يتم تكوينه في يوم واحد بل يكون في تكوينه تجسيدا لنوعين من الصبر أوّلهما صبر الأم تسعة أشهر ممزوجة بالمعاناة والألم والتعب، وكذلك رضاعته لم يجعلها الله أياما أو ساعات بل امتدت لعامين كاملين، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}549.

والنوع الآخر صبر يتمثل في تكوين الإنسان نفسه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}550، إذن

---

[547] الأعراف 54.

[548] الحديد 4 ـ 6.

[549] لقمان 14.

[550] الحج 5.

فالصبر له صور متعددة وواضحة في حياتنا ولكننا لا نلتفت إليها ولا نتخذها مسلكا ومنهجا لنا.

11. فوائد الصّبر:

أ- قهر الشهوات والتحكم فيها:

خلق الله الإنسان وخلق فيه الشهوة والرغبة، وقد تباين البشر في إتباع شهواتهم، فمنهم من كان عبدا لها تأمره فيطيع، لا يستطيع الصبر على ما يشتهيه فيسرع إليه دون إعطاء الفرصة لنفسه أن يحاورها عن مدى صحة أو خطأ هذه الطاعة لشهوته، فلا يتأنى ولا يصبر على زينة ومتاع الدنيا اللذان من شأنهما أن تدمران حياته، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} 551، فالشهوات متعددة في الدنيا وكثيرة وكلّ نوع منها يحتاج إلى إرادة قوية يدعمها الصبر والجلد، والصبر لا يأتي إلا بالطمع فيما عند الله تعالى ومد البصر إلى النعيم الأخروّي الذي ينتظر الصابرين في الدنيا والمتمسكين بصبرهم أمّام إغراءاتها المتنوعة.

ومنهم الخليفة الذي كان مالكا لشهواته مسيطرا عليها بصبره وجلده، لعلمه بأنها خُلقت لكي تكون عونا للإنسان في نيل رضا ربّ العالمين، ولا تكون فتنة ودمار للإنسان في الدنيا والآخرة، فالخليفة المحب لله تعالى تجده صابرا على هذه الزينة البالية لعلمه بأن صبره عليها هو أكثر فائدة ومتعة من الغرق فيها، فالعلم يمنح الإنسان اتساعا في مداركه وفهمه للأمور وإذا توصل هذا الإنسان للفهم

---

[551] آل عمران 14.

الصحيح لأمور دينه ودنياه وصل إلى معرفة قيمة الصبر وفائدته العظيمة التي تجعل منه إنسانا مترفعا عن الرذائل مسيطرا على نفسه ومعتزا بها، فيصل إلى حدود حب الله وطلب رضاه وعفوه.

ب- التوكلّ على الله واللجوء إليه:

في هذه الحياة نقابل الكثير والعديد من الامتحانات لما كانت عليه حال الدنيا من أنها دار ابتلاء وامتحان كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}552، وبالصبر فقط نستطيع أن نجتاز هذه الامتحانات والابتلاءات، فكثيرا ما نجد أنه في موقف نعيش فيه أشد لحظات الحزن بفقد أعز النّاس لدينا، فنشعر بالعجز وعدم القدرة على تحمل الألم وصعوبة الفراق، ولكن بالرغم من ذلك نجد أننا نتجاوز هذه الساعات والأيام ونكمل حياتنا العادية، فكيف يحدث ذلك؟.

يحدث ذلك بأن الله تعالى خلق الحزن وخلق معه الصبر وأعطاه لمن طلبه، فمن المستحيل أن يطلب الإنسان العون والصبر من الله على ما أصابه ولا يستجيب الله تعالى له، فهو الصبور المطلق الذي يهدي صبره لمن يستحقه ويطلبه، فلا يستعين الإنسان المؤمن بأي وسيلة أخرى للنسيان وتجاوز محنته وحزنه، كما يحدث مع بعض النّاس الذين يبتعدون عن الله فيبتعد عنهم الله، نجدهم يلجئون إلى وسائل أخرى للغرق فيها ونسيان ما هم فيه، كأن يتجه بعضهم لشربّ الخمر أو تعاطي المخدرات أو محاولة الانتحار أو اللجوء للسحرة والدجالين للتخفيف عنهم وغيره من أشكال البدع والخرافات والفساد والضياع،

---

[552] المائدة من 48.

لأنه في مكان يبتعد فيه عن الصبور الذي يمنحه الصبر الجميل فتسير حياته على نسقٍ مرتب وتقوى نفسه على المصاعب فيكون مستحقا لحمل أمّانة الخالق له وهي إصلاح الأرض، ولا أروع من الاحتذاء بالرّسول الكريم فقد كان دائم لطلب الصبر والعون من الله على ما مر به من محن ومصاعب في سبيل تبليغ رسالته للبشرية، فها هو مع صديقه أبو بكر الصديق في غار ثور عندما أوشك المشركين اللحاق والفتك بهم، فقد استعان بالله وتوكلّ عليه فألهمه الله الصبر والثبات ونجا منهم، وكذلك في خروجه للطائف وتحمله الأذى العنيف من أهل الطائف لم يكن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام مستعينا إلا بخالقه يتصبر بحبه له على ما بلاه، وقد كان الصبر أمرا لازما لكلّ الرّسل ليستعينوا به على شدائد الأمور، قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أوّلو الْعَزْمِ مِنَ الرّسل وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}553.

فلتكن يا خليفة الله في الأرض صابرا متوكلّا على الله الذي لا يمنحك الصبر غيره فممن تطلبه إلا منه عزّ وجلّ الذي جعلك خليفته في الأرض لتصلح فيها ولا تفسد ولا تسفك الدماء بغير حقّ.

فلابدّ إذن أن تفرد الله وحده بالرجاء والأمل والعون، فهو الدافع للضر والماسك للخير والمعطي له إذا أراد، قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}554

الصبور هو الحكيم الخبير بعباده:

---

[553] الأحقاف 35.

[554] يونس 107.

الله الصبور سبحانه وتعالى على ما يصدر من عباده من ذنوب وأخطاء أحيانا يتبادر إلى أذهاننا فورا أنه سبحانه يترك عبده المسيء الظالم دون أن يعاقبه على ما يقترفه، ولكن في حقيقة الأمر فإن الله تعالى بصبره يعطينا درسا رائعا في التعامل مع بعضنا البعض، فهو يترك العبد أحيانا يسيء ويخطي في حقه عزّ وجلّ ومع ذلك نجده عزّ وجلّ يعطيه ويهب له وذلك لأمرين:

أوّلهما كي يتمادى في كفره وعصيانه فيستحق بذلك العذاب الأشد، كما حدث مع قارون إذ أنّ الله أعطاه من المال والخيرات ما لم يعطه لغيره، ولكنه بدل أن يشكر الله على ذلك ويحمده فقد تجبَّر وأخذه الغرور وجحد نعمة الخالق عليه، ولكن الله لم يمنع عنه نعمته مباشرة بل صبر عليه وتركه يزيد في غروره وظلمه إلى أن علم المولى عزّ وجلّ بخبرته في تسيير أمور العباد أنّه لابدّ من إنزال عقوبته به، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أوّلي القوّة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أوّلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قوّة وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ

عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}555، فالعطاء هنا كان بخبرة الخبير المطلق لكي يفصل بين من تمنوا ما أنعم الله على قارون ورأوا فيه الإنسان المحظوظ وبين من صبروا على عدم امتلاكهم لهذه النعمة، فالصبر فرّق بين الفريقين وخبرة الخبير المطلقة أوضحت هذا الفرق عند حلول العقاب ووقوع الجزاء عليه في الدنيا، ولا يستطيع أن يقوم بذلك إلا من كانت له القدرة الكافية لتدبير الأمور بخبرة وحكمة.

ثانيهما: كي يرجع هذا المخطئ عن خطئه ويتوب:

الخالق عزّ وجلّ بخبرته المطلقة يعلم أنّ من عباده من هو قابل للتوبة والرجوع عن الخطأ إذا أتيحت له الفرصة لذلك، قال سبحانه وتعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}556، فيصبر بخبرته على هؤلاء المذنبين متيحا الفرص لهم، وقد يعود البعض إلى ارتكاب الذنوب والأخطاء فيصبر عليه الله عزّ وجلّ لعلمه المسبق بما سيكون عليه حال هذا الإنسان بعد حين، لذلك كان صبر الخبير على عباده المذنبين.

فصبر الصبور المطلق ترافقه الحكمة المطلقة لما كان ذلك علاج لأمور كثيرة، فالله المثل الأعلى: فقد نجد إنسانا صبورا لكنه بالرغم من ذلك لا يرى أبعد من أنفه، فلا يستطيع أن يحسب الأمور بشكلّ صحيح وواضح، فلا يصل لنتيجة مع نفسه أو مع غيره ترضيه وتجعله راضيا أو مدركا، ولكنّ الصبور المطلق هو الذي يرى ويحسب ويدقق ويدرك الأمور بروية تامة لا تأخذه العجلة ولا التسرع، لذلك لابدّ أن

---

[555] القصص 76 . 82.

[556] الشورى 25.

يجتمع في نفس خليفة الله بالإضافة الصبر الممزوج بالحكمة والوعي التام والعلم المفيد الذي يدعم الحكمة في الإنسان.

فالإنسان الحكيم تجده يعالج أموره من زوايا عدة فلا يضعها تحت زاوية واحدة فقط، بل إنه يقلّبها حيث يجد الأفضل والأنسب لها، إذن فهو هنا يعالج المشكلّة بحكمة ولابدّ أن يصل إلى أفضل الحلول والنتائج، فقد يضطر الإنسان أحيانا في المجتمع أنّ يقف أمّام مشكلّة ما بعد أن يستنفذ جميع المحاولات لعلاجها والوصول إلى حل واضح وإيجابي، فلابدّ وقتها لهذا الإنسان أن يصبر أكثر وأكثر لأن علاجها يكمن في المزيد من الصبر، فتأخذ المشكلّة وقتها وتبدأ بالانتهاء، وبذلك تبدأ هذه المشكلّة بالتلاشي بعد أن كانت ذات تأثير كبير في نفوسنا، ومثال ذلك حينما يتوفى الله تعالى أحب النّاس إلى قلوبنا، هذا الأمر يكون صعب الاحتمال لشعور الإنسان وقتها أن الموت أمر يصعب تحمله للإحساس المذهل ساعة الفراق، ولكن هذا الأمر الذي كان عظيما كبيرا نشعر أنه مع طول الفترة الزمنية يبدأ بالتضاؤل والصغر في النفوس شيئا فشيئا، وذلك باحتساب الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الحزن ساعة الموت هو من أكبر الأشياء التي نمر بها في حياتنا الدنيا ويأتي الصبر لكي نقوى عليها ونتجاوزها، فما بالك بمشاكلّ وهموم الحياة الأخرى.

إذا من الأكيد أننا لو استعنّا بالصبر والحكمة لاستطعنا حل كافة المشاكلّ الاجتماعية التي تحيط بنا، ولأمكننا القضاء على الكثير من الأمراض الاجتماعية التي طغت على حياتنا في مجتمعاتنا الإسلامية الحديثة، ولكانت لدينا القدرة لمواجهة أي ظاهرة اجتماعية سلبية، فمثلا لو أخذنا بعض الأحداث المنحرفين سلوكيا وقمنا بدراسة حالاتهم بصبرٍ وحكمة وخبرة لكلّ الدوافع لهم التي من شأنها أن تدفع

بهم للوصول لذلك لكنا قد وصلنا إلى حلول أكثر إيجابية من تلك الموجودة الآن، لأن الصبر على المعرفة والبحث والتقصي هو من أروع وأفضل أنواع العلاج الرادع الذي سيغنينا عن الكثير من المؤسسات الاجتماعية، بل سيكون لدينا طاقات فردية في داخل المجتمع الإسلامي هائلة تفيده وترقى به إلى مكانة مرموقة بين باقي المجتمعات الأخرى، وكذلك نلحظ في حالات كثيرة بين الطلاب في المدارس أنهم يملكون مواهب وقدرة على الابدّاع إذا أُتيحت لهم الفرصة لذلك، وذلك لا يحتاج من المربّيين والمشرفين إلا قليل من الصبر والمراعاة لأوّلئك الطلبة المميزين، لكي نجد أمتنا المسلمة مبدعة منتجة، وهذا من شأنه أن يجعلنا ندرك ما للصبر من جوانب إيجابية ومفيدة تعود على الإنسان وعلى من حوله.

الصبور هو الرّحيم:

نستشعر أن في صبره رحمة لعباده منهم الكافر والمسيء والمذنب، فبالصبر تتولد الكثير من الفرص للعباد لمراجعة النفس ومحاسبتها لعلها ترجع إلى الحقّ أو تتوب عما كانت فيه، فتكسب بذلك آخرتها، حتى مع عباده المؤمنين فإن في تعليمهم للصبر والثبات رحمة لهم، إذ أنه ما من صابرٍ على ابتلاء ومحتسب أمره لله إلا وكانت الجنّة جزاءا له على صبره، فتتجلى هنا رحمة الخالق بعباده الصابرين، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[557]، فقد خلق الله الصبر ليكون عونا للمؤمن فيرضى بنصيبه ويعلم بأن ما من شيء يصيبه إلا فيه خير لا يدركه هو بعقله

[557] البقرة 155 . 157.

المحدود، فالصبور سبحانه وتعالى لا يمكن أن يظلم أحدا من عباده بل هو العادل في حكمه وبين خلقه، فلا يصيب المؤمن إلا ما فيه الخير، فرحمة الله في صبره تتجلى فيم يلي:

1 . عدم تعجيل العقوبة على العصاة والكافرين:

تبارك في علاه يتجلى لنا المعنى العظيم والعميق لهذا الاسم في أنه لا يعاجل في عقابه وانتقامه كلّ مستحقٍ لهما، مهما كانت درجة الخطأ والجحود، فقد وصل الأمر ببعض البشر بالتطاول عليه عزّ وجلّ في تشكيكهم في وجوده أصلا مثل الملحدين وأصحاب النظريات التي تُرجع وجود هذا الكون للطبيعة منكرةً بذلك وجود الخالق عزّ وجلّ، والبعض الآخر من العباد الظالمين لأنفسهم والكافرين الذين نسبوا إلى الله الأبناء وافتروا عليه الكثير من الأكاذيب على مر الزمان، قال سبحانه وتعالى: {أَفَأَصْفَاكُمْ ربّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا}558، وكذلك قوله تعالى: {قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}559، وبالرغم من ذلك فقد أرسل الصبور الرّسل والأنبياء لهدايتهم وإرجاعهم للحق ولكي يصلوا إلى اليقين المثبت في حق الله تعالى، مع قدرته سبحانه وتعالى على أن يخسف بهم الأرض في أي وقت، لكنه فتح لهم باب التوبة والتراجع بإعطائهم الفرص المتتالية للإصلاح.

[558] الإسراء 40.

[559] يونس 68، 69.

وقد وصلت درجة كفر الكفرة إلى مرحلة يستحقون معها أن يسخطهم الله في حينها وينزّل عليهم عقابه في وقتها، قال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}560، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}561، فالخالق عزّ وجلّ قادر على أخذ الكفار في أي وقت يشاء ولكن حكمته المطلقة ورحمته وصبره عليهم يؤخر عقابه عنهم في الدنيا، ومن يتمادى في كفره فإن عذاب جهنم ستكون له بالمرصاد، ولن يغفر لهم ولن يعفو عنهم بصبره بل يمهلهم الوقت من رجع للحق كان له الفوز والنجاة، فقد نلاحظ حتى في أيامنا هذه أن الكثير من الأوروبيين أو أصحاب الديانات الأخرى يعتنقون الإسلام ويتركون ما كانوا عليه من الباطل، قال تعالى: {وربّكَ الْغَفُورُ ذُو الرّحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}562.

2- خلق الفرص للتوبة لمن أذنب:

هناك الكثير من المسلمين الذين يقترفون الذنوب والكبائر في حياتهم، ويمضي بهم العمر وهم غافلون عن ضياع حياتهم سدىً، ومع ذلك فإن الرّحيم بصبره عليهم وعدم تعجيل عقابه لهم على ذنوبهم يمنحهم الفرص المتكررة للتوبة والتكفير عما صنعوه، قال تعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا

---

560 الرعد 32.

561 الأعراف 182، 183.

562 الكهف 58، 59.

عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}563، فبصبر الصبور المطلق يريد الخالق أن يصحّح من سير المسلمين ويغفر لهم بحبه الذي يمنحهم الوقت لمراجعة أنفسهم والعودة لطريق الحقّ والصواب، فيأتي صبر الخالق عليهم في مواجهة إغراءات الدنيا ووسوسات الشيطان الرجيم، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}564، وقوله عزّ وجلّ أيضا في كتابه الكريم: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}565، فكم من ناجٍ من العذاب بسبب صبر الله تعالى عليه مانحا له الفرصة لتغيير مسار حياته أحيانا بكلّمة أو موقف أو فعل أو ابتلاء فينجو من عذاب الحريق بالعودة عما كان فيه والتوبة من ذنوبه.

3- ضربّ الأمثال للعباد بصبر رسله:

من كرمه تعالى على عباده أن أمرهم بالصبر علاجا لما قد يتعرض له الإنسان من ضيق وبلاء بأشكاله المتباينة، وقد جعل الله عزّ وجلّ الرّسل صلوات الله عليهم وسلامه أمثلة للصبر على الابتلاءات والمحن، فما من رسولٍ أو نبيٍ إلا وكان الصبر من صفاته، ومن شأن هذا أن يدعّم فينا هذه الصفة، حيث أن الصبر كان وسيلة من ضمن الوسائل التي لجأ إليها المصطفين والأخيار في مشوار دعوتهم ومسيرة تبليغهم لرسالات الخالق عز، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ

563 النساء 27، 28.

564 المائدة 39، 40.

565 التوبة 102.

عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}566، وقوله تعالى أيضا: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}567، وكأن أمر الله بالصبر لرسله علاجا يتعامل به مع الكفرة والعاصين، وليس مجرد توقيت فيه تأخير أو مماطلة، وهو عبارة عن مبدأ اعتمد عليه الرّسل والأنبياء يرتكزون عليه في تحمل معاناة تبليغ الرسالة لتوحيد الخالق سبحانه وتعالى، ولولا ذلك لما بلغت الدعوة إلى توحيد الله هذا المدى بإذنه تعالى، فصبرهم كان سلاحا قويا يدعم شعور النصر فيهم وليس شعور بالضعف والاستسلام والهزيمة، بل أن صبرهم على الشدائد والأذى حتى من أقربّ النّاس إليهم كان نابعا من حبهم لله سبحانه وتعالى وحرصهم على رضاه، فهذا كان حد مبتغاهم مرضاته عزّ وجلّ، ونستطيع أن نذكر هنا أن الرضا متبادل بين الصبور وعباده الصالحين، قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}568، فهنا يتجلى لنا الحب المتبادل وهو أرقى درجاته وأسمى أنواعه، هذا الحب الخالص الذي لا يمكن لإنسان أن يعبد الله تعالى ويصل بحبه له هذه الدرجة من الحب إلا وتجد الله تعالى قد أهداه بين جنبيه قلبا صابرا على الشدائد ممّا يجعل المؤمن صابرا لا يتذمر لعلمه أن صبره في الله لهذا الخالق الذي يحبه ويعظمه، والحبيب يسعى دائما لإرضاء حبيبه، والله لن يضيع صبره أبدا، قال

566 النحل 127، 128.

567 المزمل 10.

568 المجادلة 22.

تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجنّة وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}569، من هنا يتضح لنا حب الله لعباده الصابرين، ومن هنا أيضا نستطيع أن ندرك مصدر القوّة التي يتحلى بها عباده الصابرين، وهو الحب النقي الصادق.

فعلى خليفة الله أن يكون حبه لله دافعا لصبره، محتذيا بالصالحين والأنبياء والرّسل من قبله، فلا ينكسر أمّام حزنه أو يستسلم أمّام فشله، أو يضعف أمّام مصيبة أو بلاء قد يحلان به، بل عليه أن يستحضر الصابرين في سبيل الله ليشد عزيمته وأن يكون على يقين بأنّ الله يزيد من محبته لعباده الصابرين، فيكون مضربّ مثل بصبره فلا يستطيع أيٍ كان أن يخترق هذا الحصن المنيع الذي لا يبنيه ولا يعمّره إلا الرضا والقبول بقدر الله ولا يأتي هذا الرضا إلا بحبه.

لذلك فخليفة الله هو عنوان الصبر في الأرض، يتعامل مع أمور دينه ودنياه بالصبر الجميل الذي من شأنه أن ينصره على نفسه أوّلا وعلى من يؤذيه ثانيا فلا يشعر باليأس لمجرد امتناع حاجة من الحاجات عنه أو نقصها بل أنه يرى في ذلك حب الله له فيكون رده على هذا الحب بالصبر الذي يرتضيه الله لخليفته في الأرض.

الصبور هو الصّمد:

الله هو الصّمد وهي صفة دائمة لله تعالى تنطوي تحتها علمه وحكمته وصبره وحلمه، فهو الذي يعطي كلّ محتاج حاجته بتعجيلها أو بتأخيرها فالعطاء سواء كان عاجلا أم آجلا هو دائما لخير العبد ومصلحته، قال تعالى:{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ

569 آل عمران 142.

يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}570، وبما أنه الصمد الذي لا يشاركه أحد في ملكه فهو القادر على كشف الضر والأذى عن الإنسان، بالرغم من أن الكثير من البشر يفتقدون إلى الوصول إلى هذا الحد من اليقين الذي يخلق الصبر في نفوسهم قال تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}571.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يكون معينا لغيره وملجأ لهم عند حلول الأزمات، ليستشعر غيره بما للصبر من فضائل وفوائد تعين الإنسان نفسه وتجعله معينا لغيره.

واسم الله الصبور يعطينا معنى التسليم له عزّ وجلّ بكلّ شيء، لأن الإنسان حينما يصبر على مكروه أو أذى فهو بذلك يسلّم أمره بالكامل لله القوي العزيز، وهنا تتجلى طاعة العبد لخالقه، وكذلك لرسله وأنبيائه المكلّفين بتبليغ رسالاته للبشرية، لما كانوا عليه من صبر وحب لله تعالى ويحضرني هنا كمثل لطاعة وحب الله والصبر على الشدائد قصة سيدنا إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام مع أبيه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فبمجرد رؤية رآها سيدنا إبراهيم بأنه يذبح ولده بأمرٍ من الله تعالى وبالرغم من حبه الشديد لابنه إسماعيل إلا أنّه أخبره بما رأى وامتثل ابنه لأمر الله، ففي هذا الموقف نستشعر مدى عظمة الصبر والتضحية، وعظمة مكافأة الصبور لهما جزاء صبرهما على ذلك الأمر، قال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي

[570] الإخلاص 1 . 4.

[571] يونس 11، 12.

أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فأنظر مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآَخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}572، أحب سيدنا إبراهيم ولده إسماعيل حبا كبيرا لكنه أحب الله أكثر فصبر على أمره وأطاعه، وصبر سيدنا إسماعيل على مصيره لعلمه برحمة الله وحبه، فكان الله رؤوفا رحيما بهما مكافا لهما على صبرهما فهو الكريم الذي لا يظلم أحدا أبدا.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يسلّم أمره لله تعالى، ليتعلم كيفية الصبر على البلاء، لأن نفوسنا البشرية أحيانا تخوننا عند حلول الأزمة أو وقوع البلاء، فإن لم يستطع الإنسان الصبر فعلى الأقل يجب أن يحاول التصبر، وأن يدربّ النفس على الصبر ويهيئها لتحمل الشدائد والمصاعب، فلو أن كلّ مسلم تعرض للأذى والبلاء على يد غيره من أعداء الإسلام قد استسلم وانهار لما امتلأت الأرض بالمجاهدين والشهداء والمدافعين عن الإسلام، فمثلا لو أن أهل بيت المقدس تركوها من شدة المعاناة والضغط عليهم من اليهود لما وجدنا أثرا للإسلام هناك ولا مطالبا بعودتها للمسلمين، ولكن بصبر أهلها وجلدهم وإيمانهم بالله تعالى جعل الأمر أسهل على قلوبهم لتسليمهم الأمر لله خالقهم وطاعتهم له في كلّ شيء.

فلو أن كلّ إنسان عوّد نفسه على الاستسلام لله فقط والطمأنينة والراحة في ظله عزّ وجلّ لأراح نفسه من مسألة الغير والاعتماد على بعض النّاس في حل أموره، فيصبح بذلك حرا معتزا بنفسه راضيا

572 الصافات 102 . 111.

بنصيبه، ولما كنا سند هذه الدرجة من القلق والتوتر اللذان يسودان المجتمعات المسلمة هذه الأيام، فنجد الخوف يتصاعد في النفوس وعدم الإحساس بالأمّان وتصاعد القلق النفسي بين الشباب بصفة خاصة مع أنّه لابدّ أن يكونوا مثالا للصبر والجلد والقدرة على الاحتمال.

وقد حبا الله عباده المتقين بصفة الصبر، تلك الصفة النبيلة الكريمة التي إذا انغرست في النفس البشرية تنبِت صفة الإيثار والتضحية، فالإنسان يصبر أحيانا على أذىً يأتيه من أحب النّاس إلي قلبه وأقربّهم إليه، ويتقبله برحابة صدر وطيبة خاطر ليعلّم هذا المخطئ أن يكون متسامحا عطوفا، فيقابل هو بدوره الأذى بإحسان، فكثيرا ممن يسيئون لأقربّائهم وفي المقابل حين احتاجوا أوّلئك المسيئين للعون وجودوا من أساؤوا إليهم يمدون يد المساعدة والعون لهم على طبق من الحب والتسامح، والأمثلة في الدنيا وبين البشر على ذلك كثيرة، فمثلا أروع ما يمكن أن نضربّ به المثل في هذه الحالة هي الأم، فهي تفني أيام عمرها وزهرة شبابها في تلبية متطلبات أبنائها وخدمتهم أطفالا وكبارا على السواء، ولكن في كثير من الأحيان والأحوال يقابل هذا الآن الحب والعطاء والتضحية بالنكران والقسوة والجحود، فيتجسد الصبر على هذا الشعور في شخص الأم، في احتمالها لهذا الأذى النفسي الذي من شأنه مثل هذا الرد أن يسبب صدمة نفسية عليها، حيث إن ولدها جزءٌ منها لا يمكن الاستغناء عنه، سواء كان بيولوجيا أو عاطفيا، فتصبر الأم وتصبر مع اختلاط صبرها بدعواتها بالخير والصلاح والهداية له، وأن يرزقه الله ويوفقه ويعطيه من نعمه، فهنا الأم تجسد الصبر على شديد الاحتمال وصعب التحمُّل فيصبح الصبر هنا قمة العطاء وقمة التضحية، فبذلك نخلص إلى أن صبر الأم على

أبنائها نابعٌ من شدة الحب الذي يحمله قلبها لأبنائها هو منبع السكينة والرضا على أذى من تحب، إذن الصبر هنا يعكس فوائده الصحية على نفس الأم التي لولا صبرها الذي منحها الله به لكان عقلها لا يحتمل هذا الجحود، لأنه من الصعب أن تعيش الأم صدمتها في أغلى النّاس على قلبها في الدنيا، فهذا الصبر أحدث التوازن النفسي الذي منع الضرر الصحي والعقلي أن يصيب أي أم تعاني من هذا الأمر الذي أصبح أكثر شيوعا في عصرنا هذا.

فالصبر بالأساس هو عنوان التضحية والإيثار على النفس والدافع هنا راقٍ جدا، فكم من صابر في الدنيا على كثير من أذى الأحبة لأنّه يؤثرهم على نفسه، والصبر هو الذي أعطاه هذا الارتياح والرضا، فيصبح إنسانا متصفا بالكرم والعطاء اللا محدود، ويجعله واثقا بالله عزّ وجلّ فيستشعر بقربّه منه دائما ودعمه له ممّا يمنحه القوّة والمناعة ضد أي مرض نفسي يؤدّي في نهايته للدمار أو الفساد أو الضياع، كما نلاحظ في المجتمعات الأوروبية بصفة عامة تزايد نسبة الانتحار، إذ أنهم يصلون لمرحلة يأس وضيق ووحدة لا يمكن أن يشغلها إلا حب الله والقربّ منه، على عكس عباد الله الصالحين الذين حتى مع ضيق الحال تجدهم أصحاب عطاء وتضحية وتسامح وحب، مثلما ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}573، فطبيعة البشر تجعلهم من محبي المال والدنيا ولا يكتفون من حب المال رغم سعة الحال عليهم، ولكن من كان يبتغي وجه الله وهم عباده المخلصون فإنهم بالرغم من ضيق الحال تجدهم

[573] الحشر 9.

يكرمون غيرهم ويؤثرونهم على أنفسهم لما تحلوا به من صبر على ضيق الحال.

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن الصبر يجعل الفرد يشعر بقيمة أخيه في المجتمع بعطائه وحبه، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان معطاءا كريم النفس، لا يبخل حتى ولو كان ما يعطيه هو آخر ما عنده أو هو بحاجة إليه، فعندما هاجر مع الرّسول — – فسأله الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ماذا أبقيت لأهلك؟ قال رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله. مع علمه بما في نفوس مشركي مكة من حقد وضغينة على الرّسول عليه السلام وعلى من اتبعه، ولكن نفسه الصادقة وروحه الطيبة المؤمنة صبرت على ذلك وتحملت في سبيل حبه لله ورسوله الأذى الشديد.

وخليفة الله في الأرض عليه أن يصل بتفكيره إلى أنه إذا كان الله تعالى هو الصبور مع قدرته وغناه عن الخلق، ومع هذا فهو الذي يصبر على أذاهم وعصيانهم وتجبرهم، فما بالك بالإنسان.

فلو كلّ إنسان استوعب هذا الاسم بالشكلّ الصحيح لتخلق بأحسن خلق ولحمل أروع قلب وأصفي نفس ولكان معلما لغيره، فيسود الصفاء والنقاء بين الأفراد ولأصبحنا وسط كون فاضل وليس مجرد مدينة فاضلة كالتي نادى بها بعض من الفلاسفة، ولكن لنقص فهم وإدراك الكثير من البشر لهذا الاسم الفاضل، فإن اسم الصبور لابدّ أن يكون موعظة لنا ودرسا في الحياة، فلو استوعبت الأمة هذا الدرس جيدا وصبر كلّ فرد على أذى الآخر فبذلك يعطيه الفرصة للندم والتراجع عن ذلك، بل وقد يصبح صديقا له على مدى الأيام، قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا

الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}[574]، فالفرد هو مخلوق يحمل بين جنباته قلبا ولابدّ أن يكون في داخل هذا القلب ولو نقطة نور وضياء بجانب الكثير من السلبيات والظلام، فمن الممكن أن يكون صبرنا عليه بمثابة فرصة لاتساع هذه النقطة إلى أن تعم القلب بأكمله، ولا ضرر من المحاولة، ولكن أصبح لدينا نحن المسلمون بفضل هذا الاسم العظيم مجتمعا متسامحا متحابا لا مكان للعداوة والبغضاء، فيزرع المسلم الصبر ويحببه في قلوب المسلمين عندما يصبر على أذاهم ولا يستطيع أن يصل المسلم لهذه الدرجة إلا بالتقربّ إلى الله تعالى بالصلاة والطاعات والصدقات، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُوّلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[575]، وكذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوّلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كلّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[576]، فمن الأمور التي تعودنا الصبر هي:

أ- حب الله:

[574] فصلت 34، 35.

[575] الأنفال 2 . 4.

[576] الرعد 20 . 24.

إذا انغرس حب الله في نفس المؤمن فإنه يستطيع أن يواجه العالم بأسره وينتصر، وقد بشّر الصبور المطلق الصابرين لعلمه بصعوبة الصبر، فوعد الصابرين بالجزاء العظيم مكافأةً لهم على ما كابدوه وعانوه ليصلوا إلى إمكانية الصبر، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوَلئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوَلئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}577، فكم من مبتلٍ في هذه الدنيا منحه حبه لله الصبر على معاناته ومحنته، وأروع مثال على ذلك صبر آل ياسر على أذى وعذاب كفار قريش، فقد تجلى فيهم أروع صورة للصبر والتضحية في سبيل الله، إذ أن الله تعالى بشّرهم بموعدٍ في جنة الخلد على لسان رسوله الكريم حين خاطبهم قائلا وهم تحت وطأة العذاب: (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنّة)، فاستحقوا بصبرهم هذا الوعد وهذا التكريم من الصبور الذي أمدهم بالصبر والثبات في قلوبهم، فانتصروا بهذا الثبات على جميع كفرة قريش وجبابرتها.

وعندما يصبر الإنسان فمعنى ذلك أنه قد فوّض أمره لله تعالى وتوكلّ عليه، ولابدّ أن يكون الخالق عند حسن ظن عبده به، فإذا سأله النصر أعطاه، قال تعالى: {بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ}578.

ب- الصلاة:

---

577 البقرة 155 . 157.

578 آل عمران 150.

فالمداومة على الصلاة من شأنها أن تعوّد المؤمن الصبر، فلا يتذمر من تكرار الصلاة ولا يتثاقل عنها ولا يكسل بل يقوم إليها بحب ويصبر على كلّ أمور الدنيا لكي لا يتلهى عنها، بعكس المنافق الذي لا يملك حبها أو الصبر عليها، قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاس وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}[579]، فالصلاة من الأمور التي من شأنها أن تعوّد النفس على الخشوع والطاعة لأمر الله وتقربّ بين العبد وربّه، وهذا القربّ هو الذي يولّد الصبر في النفس المؤمنة الراضية بقضاء الله، فالصلاة إذن هي بمثابة تمرين للنفس على الصبر والخشوع، وقد أوصى لقمان ابنه بالمداومة على الصلاة لما وهبه الله من حكمة وصواب رأي وبعد نظر فكان حكيما صائب الرأي، قال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}[580].

ج- الصوم:

من المعروف أن الإنسان محب للطعام ومستحق له، والتنوع في الأطعمة جعلت الإنسان يشتهي ويتلذذ بها، بل ويكثر من طلبها كحاجة ضرورية له، وقد فرض الله عزّ وجلّ الصيام وهو ترك الطعام من الفجر إلى غروب الشمس، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّاما مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ

[579] النساء 142، 143.

[580] لقمان 17.

وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}581، وهذا بالتأكيد توقيت طويل بالنسبة للإنسان الذي اعتاد الأكلّ في أكثر من مرة في اليوم، وهذا الركن فيه تعوّد وتصبير لشهوة الطعام في الإنسان، إذ بصبره على الأكلّ حبُ لله وطاعةُ لأمره مع الاحتفاظ بهدوء النفس وعدم التذمر والضيق والعصبية، ففي كلّمة (اللهم إني صائم) عند مواجهتنا لأمر يستفزنا من شأنها أن تعوّد أنفسنا على مقابلة الإساءة والصبر عليها باللجوء إلى المولى عزّ وجلّ، فننأي بأنفسنا عن الانحطاط الأخلاقي، ولذا فقول الصائم عندما يرى ما قد يضعفه (اللهم إني صائم) تعني التمسك بقرار الصبر على إتباع الحقّ، وذلك لأجل الفوز بما هو أعظم.

ففي الصيام تدريب جسدي ونفسي للصبر، فلابدّ أن نصبر على الطعام طاعةً لأمر الله تعالى، وأن نصبر على أذى غيرنا يكبح النفس عن رد الإساءة، وكذلك الصبر على شهوة الجنس طوال ساعات عديدة، قال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآَنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكلّوا واشْربّوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْربّوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آَيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}582، فالصبر الجنسي من شأنه أن يعوّد المؤمن على كبح شهواته والتحكم فيها، فمن يستطيع أن يكتم ويسيطر على شهوته

[581] البقرة 183، 184.

[582] البقرة 187.

ورغبته الجنسية طوال ساعات وأيام يستطيع أن يصبر العمر كلّه أمّام مغريات الشهوة.

الصبور المطلق: هو معطي الفرصة لمن انحرف عما يقول وقوله الحقّ، والصبور بالإضافة هو الذي خلقه الله قوّة وخلق فيه الحاجة التي تضعفه إن لم يتحصَّن بالصبر، فبالرغم من خلقه له في أحسن تقويم، إلا أنه خلقه على الحاجة التي تتعدد وتتنوع وتتطور، أي خلقه في حاجة للهواء والماء والأكلّ والجنس، وغيرها كثير، ويريده أن يكون صبورا، من أجل بلوغه الهواء الذي له الحقّ فيه، والماء الذي له الحقّ فيه، والأكلّ الذي له الحقّ فيه، والزواج الذي له الحقّ فيه فسبحانه الصبور الذي جعلنا على الصبر وبالصبر نبلغ غاياتنا ونحن في عزة وعلى مكرمة منه.

د- الصدقات:

في الإنفاق عدة مزايا تعود على صاحبها وعلى غيره، فالمتصدق يعوّد نفسه على حبّ الله أكثر من أي متاع آخر من متاع الحياة الدنيا، فيتحرر بالإنفاق والتصدق من سيطرة حب المال والشح عليه، ومتحررا من هذا النوع من العبودية كان صابرا في حال فقدانه لما يملك من أموال ومدخرات، فلا نراه فاقدا للعقل أو متزعزع الثقة بالله عند حلول هذا الأمر عليه، بل نراه ثابتا محتسبا أمره لله لعلمه أنّها أمّانة ووديعة تركها الخالق لديه وأراد استرجاعها، فبتعوّده على الإنفاق يسهل عليه المال فلا يتعلق به، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}583، فالخالق يحبّب عباده المخلصين في الإنفاق بأن يضاعف لهم الحسنات ويدخلهم نعيمه الدائم.

فالصدقات وحب الإنفاق من شأنها أن تعوّد الإنسان على الصبر على فقدان ما يملكون من مال دون أن يكون ذلك له أثر سلبي في نفوسهم التي امتلأت بحب الله الذي يمنحهم الصبر على فقدان متاع الحياة الدنيا.

وهناك نوعان من الصبر، منه الصبر الطيب الذي يملأ القلب بالرضا والطاعة للخالق عزّ وجلّ، قال تعالى: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا}584، فمن شأن هذا النوع من الصبر أن يُشعر الإنسان بالراحة النفسية والطمأنينة، فيصبر الإنسان على ما يصيبه وهو راضٍ ومطيع، فالصبر الطيب هو الذي لا يصحبه حزن أو هم ولا يرافقه اليأس أو الإحباط، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}585.

وقد كان الله صبورا على أفعال البشر الإيجابية والسلبية، فلو أخذنا مثلا صبره على أفعال عباده الإيجابية لوجدنا أنه عزّ وجلّ يقابل كلّ ما هو طيب صادر عن عباده من قول أو فعل بالجزاء الأوفى، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}586، وذلك درسٌ وعبرة لخليفة الله لكي يصبر فيكون في صبره هذا شكر للمولى عزّ وجلّ، فيجتمع هنا الصبر مع الشكر،

---

[583] التغابن 16. 18.

[584] المعارج 5.

[585] النحل 127.

[586] هود 11.

حيث قال الله تعالى: {اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}587، لأنّه من الصعب اجتماع الصبر مع الشكر في قلب الإنسان العادي الذي تشغله الدنيا فيسعى خلفها لاهيا غافلا لا يهمه إلا الحصول على مبتغاه، ولكن عند خليفة الله في الأرض يجتمع الصبر مع الشكر فيقوى الإيمان، حيث أن الخليفة يصبر على الشدائد وهو شاكر لله فضله يكون بذلك قد نأى بنفسه وارتقى بها إلى أعلى درجات الحب والطاعة للخالق تعالى، وهذا الأمر الذي يشق على كثير من المسلمين وخاصة في وقتنا هذا، ولكن الشكور المطلق يكون أكثر كرما من الإنسان وأكثر عطاءا إذ أنّه يرد على شكر الخليفة وصبره بالنعيم الخالد الذي كان يتمناه في الدنيا، بالرغم من غنى الصبور عن شكر وصبر الإنسان، لكنه كريم صبور في عطاياه ورد الشكر للخليفة، فعطاؤه لا ينتهي فهو إذن صبور في تكرار واستمرار منح وعطاء ورد الشكر والمحبة.

هذا هو النوع من الصبر الذي يجتمع فيه الأمل بالفرج والرغبة في المحاولة للوصول إلى ما يطمح إليه الإنسان ولا سبيل لأن يصل إلى مبتغاه إلا بالتوكلّ على الله والصبر الجميل، قال تعالى: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}588، فقد قرن الله تعالى في الآية الكريمة السابقة بين الاستعانة به والصبر وبين خلافة الإنسان للأرض الذي هو الهدف الأساسي لخلق الإنسان في الأرض، فبالصبر والتوكلّ على الخالق عزّ وجلّ نكون قد حققنا الغاية من خلقنا وبذلك تكون حياتنا كما أرادها الخالق عزّ وجلّ، فيكرمنا من عنده بمدنا بالصبر والجلد، عَنْ

[587] سبأ 13.

[588] الأعراف 128.

أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: "مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَا أَجِدُ لَكُمْ رِزْقًا أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ"589.

وهناك نوع من الصبر يكون مصحوبا بالتذمر والضيق، أي يكون على عدم رضا من الإنسان فيضيق صدره بما حل به أو نقص عليه، فتراهم لا يحتملون الشدائد ولا المحن التي من الطبيعي أن يمر بها النّاس في حياتهم الدنيا وكأنهم الوحيدون الذين أصابهم الحزن والهم.

وقد خص الله تعالى الصابرين الراضين والمطيعين بمزايا منها:

1- ينزّل الله رحمته عليهم فيصيبهم بالأمن والطمأنينة، قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوّلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوّلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}590، فرحمة الله تعالى تكون بمثابة الطمأنينة والسكينة التي تسكن قلوب الصابرين حبا في الله.

2- استحقاق البشرى:

فبصبرهم استحقوا بشراه كهدية لهم جزاء صبرهم، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}591، فطوبى لمن استحق بشرى الخالق، لما فيها من مكرمة ورفعة للإنسان عند ربّه، فالصبور لا يمنح بشراه إلا لأقربّ عباده.

[589] مسند أحمد، ج 2، ص 214.

[590] البقرة 156، 157.

[591] البقرة 155.

3- مد الله الصابرين بالعون والمساعدة، قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}592.

4- الجزاء الكبير المجزي:

فقد خص الله تعالى عباده الصابرين بالجزاء العظيم، قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}593.

5- تعليمهم الدعاء:

قال سبحانه وتعالى: {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}594.

فيجب على خليفة الله أن تكون حياته صبرا جميلا يملؤه الأمل في أن يكون ممن استحقوا بشرى الخالق بالجنّة والنعيم الدائم، فينتصر على اليأس بإيمانه بالقدر والقضاء من عند الله تعالى، فيتقبل الفرح والحزن والضيق والفرج بكلّ حب وطاعة، فلا يأخذه الغرور عند العطاء ولا يأخذه الحزن واليأس عند الضيق والنقص، فيكون ممن ذكرهم الله في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

[592] آل عمران 146 . 148.

[593] النحل 96.

[594] الأعراف 126.

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أوّلئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كلّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}595.

6- زرع الطمأنينة في قلب الصابر:

الإنسان بطبيعته عجول لا يحب الانتظار ولا يطيق أن يطول به الوقت عند عزمه لقضاء أمرٍ ما، وبطبيعته أيضا أنه مخلوق لا يهدأ ولا يستكين بسهولة ولا تنقطع متطلباته في الدنيا، فلا يقنع بأي شيء ولا يرضى بأي حال، قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}596، لكنّ المؤمن الحقّ لا تكون من صفاته الخوف والجزع واليأس بل يهبه الله تعالى الصبر والرضا ويملأ فؤاده بالطمأنينة التي يبحث عنها ملايين النّاس الذين يبتعدون عن خالقهم فيبتعد هو بالتالي عنهم، فلا يأتي الشعور بالأمن والطمأنينة من إنسان مشغول قلق كلّ همه جمع ما يرغب في الدنيا متناسيا أنها زائلة وفانية، فيتملكه اليأس والجزع لضياع ما كان له وكأنه تناسى أنه من عند الله الخالق القادر على كلّ شيء.

وللصبر ثلاثة أنواع هي:

أوّلا: صبر على ممّارسة الطاعات والعبادات:

قد يتبادر على ذهن المؤمن أن في المداومة على القيام بالعبادات اليومية كالصلاة والاستغفار وقيام الليل والحمد والصيام هو أمر هيّن على كلّ النفوس المسلمة ولكن هذا غير صحيح لأن من شأن هذه

---

595 الرعد 21 . 24.

596 المعرج 19 . 21.

العبادات والطاعات أن تجعل من بعض المسلمين في ضيق وملل منها، فنرى البعض يهملها أحيانا أو يقوم بها وكأنها عادة يومية أو غرض عليه الخلاص منه، فتكون صلاته عبارة عن عبارات وحركات يؤدّيها في اليوم ويكررها، ولكن في الوقت نفسه نجد هناك من المؤمنين من يقوم بها بكلّ صبر وحب في نيل رضا الله تعالى عليه، فيسارع إلى القيام بكلّ ما عليه من فروض وواجبات دينية ويتعداها إلى النوافل بل ويداوم عليها حبا في الله ورسوله الكريم — – فلا يؤخره هطول المطر عن الخروج لصلاة الفجر ولا يتكاسل عن قيام الليل بحجّة النعاس أو التعب أو البرد الشديد، وهذه الأعمال تحتاج إلى الصبر الطيب للمداومة عليه وعدم قطعها.

ثانيا: الصبر عن الخطيئة:

حياة البشر في الدنيا مليئة بالإغراءات التي من شأنها أن تؤدّي بالإنسان إلى الهلاك، وخاصة أنه مخلوق ضعيف أمّام الشهوات والأهواء لوجود الشيطان الذي يزيّن له هذه الأمور ويحببها لنفسه، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}597، فمن النّاس من يسيطر عليه حب المال فلا يملك الصبر لفراقه أو الإنقاص منه، يفوق حبه في قلب صاحبه عن كلّ حب، وأحيانا نجد من يضعف أمّام النساء فلا يملك نفسه أمّام إحداهن فيقع في الرذيلة، قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ

597 آل عمران 14.

غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}598، مع أنّه لو صبر وثبت لكان الله أثابه ووهب له الخير الكثير، وتارة نجد من يعشق اكتناز الذهب والفضة وكأن حياته موقوفة على ذلك، فلا يبحث عن الأمّان والهدوء إلا في ظل وجودها، لذلك فقد كانت حياة المؤمن تعدد وتكرار لامتحانات وابتلاءات عليه تجاوزها بالصبر والجلد عليها، فيكون الإنسان في جهة ورغبته في جهة أخرى يعارضها ويقف أحيانا ضدها إذا أمرته بالسوء والفساد، ولا يسيطر المؤمن عليها إلا إذا كان متعادا على الصبر ومتمرس على الجلد والثبات في وجه كلّ مفسدة ولا يدعم هذا الموقف الثابت إلا حب المؤمن لخالقه وسعيه لطلب رضاه ومغفرته.

ثالثا: صبر على القضاء والقدر:

القضاء والقدر أمر من الله يقع على الإنسان، ولكلّ إنسان قدره وقضاؤه يقدّره الله عليه حسب علمه المسبق وحكمته المطلقة في خلقه، لذلك لا يجب على المؤمن أن يوقع نفسه في مقارنة بينه وبين أي مؤمن آخر أعطاه الله ومنحه من نعمه الكثير الكثير، فلابدّ أن يكون الإنسان المؤمن على يقين بأن الله تعالى عادل في توزيع نعمه وعطاياه على خلقه، سواء كانت صحة أو مال أو جمال أو قوّة أو سلطان أو غيرها، فالصبر على القضاء والقدر يُخلق في نفس المؤمن ويكون من دعائم ثبات الإيمان واليقين بحب الله ورحمته بنا، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ

---

[598] النساء 25، 26.

وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}599، فيكون الرضا هنا نابع من طاعتهم لله وإيمانهم بحبه لهم، آملين في نيل رضاه وجنته، ونستطيع أن نرى تجسيد هذا النوع من الصبر في أسرى المسلمين الذين يقبعون في سجون الأعداء يلاقون أشد أنواع التنكيل والعذاب، لا ذنب لهم إلا أنهم يدافعون عن الحقّ ويتمسكون به، فنراهم أكثر صمودا من غيرهم وأشد صبرا على البلاء، فلا يضيق صدرهم ولا يتنازلون عما آمنوا به، بل نلاحظ أن إيمانهم يزداد ويكبر في ظل هذه الظروف فيزدادوا شدة وصبرا وقوّة منبعها أن هذا هو قدرهم الذي كتبه الله عليهم.

والخليفة يكون صبره لشيئين عما يحب ويرغب، وصبره عما يبغض ويكره، وهناك فرق بين النوعين، لأن الصبر عما نحب يستوجب منا جهدا نفسيا شديدا وجهادا صعبا لا يحتمله إلا أصحاب القلوب الشديدة الإيمان والمطواعة لله، كأن يصبر المؤمن على فقدان أعز أحبابه سواء بالموت أو حتى في الحياة، وهناك النوع الآخر من الصبر وهو الصبر على ما نكره إذ لا خيار لنا إلا الصبر كأن نصبر مثلا على المرض والنقص وغيرهما، ولا يمكن للخليفة في الأرض أن يسلك طريق الجنّة بسهولة ويسر ذلك لأن طريقها مليء بالشدائد والمصاعب والابتلاءات، فالمحب لهذه الجنّة ومن يرغب في الوصول إليها منحه الله الصبر على تخطي هذه الطريق، لأنه بدون الصبر والثبات لما استطاع إنسان أن يصل إلى جنة الخلد.

وخليفة الله عليه أن يكون ثابتا صابرا، لكي يحيا بسلام وأمن فلا يصاب أي هزة نفسية أو عقلية عند تعرضه لمحنةٍ ما فيُهْزم أمّامها

---

599 البقرة 155 . 157.

وينحني، بل عليه أن يسلك طريق الصابرين ويتعلم من الخالق الصبر الحقّ الذي يملك معه المقدرة والقوّة ولكنه يلجأ إلى الصبر في علاج أغلب الأمور، وعلى خليفة الله أن يكون بعيدا كلّ البعد عن العجلة والتسرع لأنهما طريقا الشيطان ينتهيان به إلى الندم والدمار، فلا مبرر للعجلة ولا مبرر لوقوع ضررها عليه، كالذي يبرر وقوعه في الزنا لتأخيره في الزواج، قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاما يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}[600]، فلو كان هناك مبررا لوقوعه فيه لما استحق عقاب الله عليه، وكذلك من يزهق حياة إنسان بحجّة العصبية والتهور والغضب، وغيرها من الشرور التي يقع الإنسان فيها بسبب التهور والعجلة، والمتهور دائما ضعيف بعكس الإنسان الصبور الذي يمتلئ بالقوّة والثبات، لأن الإنسان الضعيف سينتهي حتما بالفشل والدمار، لأنه لم يستطع التحمل وانسحب من مواجهة الحياة والقدر وحتى من مواجهة نفسه.

من هنا يتضح لنا نتاجه النفسي بأنه يحقق التوازن النفسي بأن يصبح الفرد لديه قدرات هائلة، لأن الصبر بحد ذاته طاقة جبارة علينا أن نستفيد منها داخل أنفسنا لتشكلّ في المجتمع النفوس السليمة الصحيحة السوية، التي تبعد كلّ البعد عن اليأس والإحباط، الذي من شأنه أن يدمر الأفراد ويزداد في بعد العبد عن خالقه عزّ وجلّ.

وخليفة الله في الأرض هو من أدرك أن الصبر من مكارم الأخلاق ومتممّاته، فلا يكمل الخُلُق إلا إذا تحلى المرء به، وجعله رأس خُلُقه وبذلك من المستحيل أن تفسد روحه أو تضيع في الحياة الدنيا، فلا ضير من أن يحبس الإنسان شهوته في غير وقتها أو أن يسيطر على

[600] الفرقان 68، 69.

نفسه فيمتلكها ويستطيع البذل كأن يكون قائدا لها يقودها إلى النصر في كلّ معركة يدخل فيها مع المحن والشدائد والبلاء.

والصبر في حق الخالق ليس محدودا في الدنيا ومقتصرا عليها، بل إنه صبور حتى يوم يقوم الحساب، إذ أنه سيحاسب كلّ من خلق منذ بدء الحياة إلى منتهاها، ولن يكون الحساب جماعيا بل أن كلّ فرد مسؤول أمّام الله عن أقواله وأفعاله مهما صغرت أو كبرت، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفي بِنَا حَاسِبِينَ}601، أي أنه صبور في حسابه لا يعجّل العقاب على مذنب إلا بعد حسابه حسابا دقيقا، ويُدخل جنان الخلد من وعدهم بها إذ أنّ وعده هو الحقّ.

وهو صبور حيث إنه ستَّار يستر زلات المسلمين يوم القيامة، كما ستره في الحياة الدنيا فكم من عظمة وقوّة تتجلى في صبره المطلق!

لذلك لابدّ أن يكون ذلك دافعا لخليفة الله في الأرض أن يتميز عن باقي البشر بالصبر الطيب في كلّ تفاصيل حياته اليومية، بدءا من التعامل مع زوجته وأبنائه وجيرانه ورحمه وصولا إلى تعامله مع أصدقائه في العمل ورؤسائه فيه، فيكون صبره نابعا حقا من عمق إيمانه فيعزز ويقوّي الخليفة في كلّ أوجه الحياة، لأنه يكون قد وصل إلى درجة الابدّاع في الأرض لما يملكه من علو الهمة، ويشكلّ صبره وقتها حافزا ودافعا قويا للوصول إلى أهدافه، فلا تقهره الحياة فلولا الصبر على التعب لما أحسسنا بروعة الراحة ولما وصلنا إليها، ولولا الصبر على المرض لما أدركنا نعمة الصحة، ولولا الصبر على الحزن لما انبثق النور

[601] الأنبياء 47.

في جنباتنا من مفاجأة الفرحة لنا، ولولا الصبر على جهد ومشقة العمل اليومي لما توفر لدينا المعيشة الكريمة، ولولا الصبر على نعم الخالق في حياتنا لما استطعنا شكره وحمده على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}602، وكلّما زادت النعم تطلب ذلك من الإنسان الشكر والحمد الكثير، على عكس ما تُحْدثه هذه النعم في نفوس كثير من البشر، إذ أنها تلهيهم وتجعلهم متجبرين وظالمين بها لغيرهم، وهذا منبعه الجهل باسم الصبور وبصفة الصبر، التي هي رأس المكارم فلا يصل المؤمن إلى مكرمة أو مكانة سامية إلا بالصبر الطيب الذي من شأنه إعمار وإصلاح كلّ نفس فتصلُح بذلك الأرض ونصل إلى رضا المولى عزّ وجلّ علينا بتحقيق الغاية السامية من خلقنا.

والصبر لا يكون فقط على أصحاب الحاجة أو من نقصت عليهم نعمة من النعم، بل الصبر يكون حتى على أصحاب النعم والخيرات، ولعلهم أشد احتياجا للصبر من ذوي الحاجات، ذلك مثل ما هو آتي:

1 . الفقر والغنى:

الفقير الذي يحتاج إلى عون غيره لكي يستطيع العيش فعليه بالصبر على حاجته للناس، إذ أنه لا يمكن أن يستغني عنهم لعدم قدرته على الاعتماد على نفسه، وهذا بحد ذاته يتطلب صبرا كبيرا يعينه على تحمل هذا الوضع، لأن البشر ليسوا سواء في حب الإنفاق والتصدق، ومن هنا كان لابدّ للفقير من أن يصبّر نفسه عن ارتكاب الجرائم أو اللجوء للطرق غير الصحيحة للعيش أو حتى أن يكون حاسدا للغني

602 النحل 18.

على غناه، بل عليه ألّا يتذلل للخلق ويصبر على قدره، قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاس إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}603، فبالصبر يتمكن حتى الإنسان الفقير المحتاج إلى كسب احترام النّاس ورضا الله الكريم الخبير، في حين أنه في حالة الإنسان الذي أكرمه الله تعالى بالمال والخير الوافر فهو يحتاج إلى الصبر أكثر من الفقير.

لذلك فإن الغني أشد احتياجا للصبر من الفقير، نظرا لامتلاكه أسباب التمتع واللهو في الدنيا، فعلى خليفة الله في الأرض ولو أنه امتلك المال والجاه والسلطان أن يتذكر صبر الله على عباده مع امتلاكه القدرة والسلطة والهيمنة عليهم، فيصبر بذلك الخليفة ويجعل من هذه النعم طريقا ممهدا أخضرا يوصله لفضيلة الصبر لا الجبروت والتكبر والظلم.

2 . المرض والصحة:

في العادة الإنسان يشعر بقيمة صحته إلا إذا المّ المرضٍ به، فيتذكر شكر الله على ما كان فيه من نعمة كبيرة، ولا يكون أمّام المرء عند نزول المرض به إلا الدعاء لله والرجاء بزوال هذا المرض عنه، وأن يمنحه الصبور الصبر من عنده لتحمُّل الآلام والمعاناة، فالمرض من شأنه أن يعوّد الإنسان على الصبر والأمل في فرج الله تعالى، ولذلك يكون الإنسان الصحيح بحاجة إلى الصبر أكثر من العليل ذاته، فيكون صابرا على مداومة شكر الله على الصحة فلا ينقطع ولا يغفل عن ذلك.

[603] البقرة 273.

فالمرض والصحة كلّاهما بحاجة للصبر والثبات، وخليفة الله بالإضافة هو من كان صابرا على الألم مستحضرا سيدنا أيوب ورحلة معاناته مع الألم الذي رافقها الصبر والثبات عليه، ومستحضرا جزاء الخالق له، وكذلك أن يكون شاكرا للمولى عزّ وجلّ على دوام الصحة وحامدا له عليه ليل نهار.

3 . الضعف والقوّة:

البشر يتفاوتون بين ضعيف وقوي، سواء كان هذا الضعف في الجسد أو في المكانة الاجتماعية، فالإنسان الضعيف جسديا يحتاج إلى الصبر على من هو أقوى منه على أن يكون هذا الصبر خالي من التذلل والمسكنة، فيستعين بالله على من ظلمه وقهره، ويصبر على هذا الأذى حتى يأتيه الفرج من الله تعالى، وفي حالة الإنسان القوي جسديا فإنه يحتاج إلى الصبر أكثر من الضعيف نفسه، لأنه يملك القوّة التي يستطيع أن يظلم بها ويتجبر ويتكبر، لذلك فهو بحاجة إلى الصبر لكي لا يستعمل قوته الجسدية في أذية الآخرين حتى دون أن يقصد، فمثلا كما نعلم في قصة سيدنا موسى الذي عُرف عنه قوته البدنية فبخطأ دون قصد تسبب في موت إنسان، قال تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ ربّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم قَالَ ربّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ

يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}604، فالقوّة الجسدية أحيانا تجعل من الإنسان إذا أساء استعمالها يصل إلى التعدي على غيره فهي بذلك بحاجة إلى الصبر الشديد على كبح جماحها والسيطرة عليها واستعمالها في وجوه الحقّ والخير.

وكذلك الأمر بالنسبة لمن يملك قوّة الجاه والسلطان فالعبء يكون عليه أكثر من فاقدها، لأن الأوّل يكون لديه ما يستطيع أن يكون متحكما ومسؤولا عن غيره الذين هم أقل منه سلطة وجاه، ومثال ذلك فرعون ملك مصر الذي أعطاه الله السلطان والملك والمال، فلم يكن مستوعبا لهذه النعم ولم يستطع الصبر على استغلالها فظلم نفسه، قال تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}605، فقد طغى لوجود كلّ تلك النعم التي كان عليه أن يكون حامدا شاكرا لله عليه.

ومن مزايا الصبر إذا انغرس في نفس المؤمن أن يجعله متوكّلا على الله وحده، الذي لا يخيّب ظن عباده به، فهناك رابط بين الصبر والتوكّل على الصبور المطلق، حيث أنه سبحانه وتعالى وكيلنا نحن المسلمون، قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ

---

604 القصص 14 . 17.

605 النازعات 15 . 26.

وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}606، فهو سبحانه وتعالى وليّنا ووكيلنا الذي نوكلّه بكلّ أمورنا ونحن مطمئنون وراضون بحكمه وقضائه، ولو أن كلّ مسلم وكلّ أمره للخالق وفي نفس الوقت بذل كلّ طاقاته في الحياة فبالتأكيد سيمدنا البصير المطلق الذي يرانا ويعلم ويقدّر أمورنا بالنجاح والأمل والفرج من كلّ ضيق.

فهو الوهاب لعباده بصبره لأنّه يعلم ما تكابده نفس العبد وهي صابرة محتسبة أمرها له عزّ وجلّ، قال تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}607، فيهب الوهاب لمن استحق كرمه سواء في الدنيا أو في الآخرة، وعلى قدر صبر المؤمن تكون درجة الرضا في نفسه والسعادة التي أصبحت حلم يراود الكثير من المسلمين في وقتنا هذا، إذ أنهم يبحثون عنها وكأنها كنز ثمين وهو لا يدركون أنها قد تكون في ساعة صبر على ابتلاء أو في توكلّه على خالقه والتقربّ منه، فلن يجد السعادة كلّ من كان بينه وبين الله قطيعة أو جفاء، أو من كان عجولا على متاع الدنيا ولا يعنيه أمر الآخرة، فكلّما حصل على شيء من أمور الدنيا زادت لهفته على متاعٍ آخر وتدور حياته داخل دائرة الشهوات والرغبات الفانية التي لا تستطيع أن تغنيه عن رضا المولى عزّ وجلّ عليه، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}608، وكذلك قوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى

---

[606] آل عمرا 173، 174.

[607] المائدة 7.

[608] البقرة 103.

أَفَلَا تَعْقِلُونَ}609، فالصبر طريق للوصول للسعادة والطمأنينة والأمّان، وهو جدار أمام التوتر والقلق واليأس، لأنّ الصبر الإيجابي الطيب هو الذي لا يشوبه إحباط أو يأس بل يكون مفعما بالأمل في المولى عزّ وجلّ، ومليء بالقوّة والعزة.

فكيف يكون صبرنا مختلطا باليأس ونحن نستمده من الخالق، ونطيع أمره في التحلي به، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}610، فلا يمكن أن يتصف الله بصفة نقص أو عيب لأنه الكمال والتمام في صفاته وأفعاله.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون صبورا عن قوّة وأمل لا عن ضعف وهزيمة، فليس من الخلفاء في الأرض من كان مهزوما مقهورا بل إنّ الله مع صبره قوي عزيز، والخليفة لابدّ أن يكون مع صبره قويا، إذ أنه في بعض الحالات يكون العقاب فيها مسموح كما جاء في قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ ربّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ربّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}611، فقد وضّح الله أنه قد يكون هناك أكثر من طريقة للتعامل ولكن الصبر هو أفضلها وفيه الخير للمعاقِب والمعاقَب، فليكن خليفة الله في الأرض ملازما للصبر في صغير أموره قبل كبيرها لأنّه من تعوّد الصبر على صغائر الأمور فقد أدرك الصبر على كبائرها، لأنّ الصبر جزء واحد لا يمكن تجزئته أو الفصل بينه.

[609] القصص 60.

[610] النحل 127.

[611] النحل 125، 126.

قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[612]، العجول دائما قلق، ولهذا لا يدرك الأمور كما هي عليه، سريع التصرف، ولهذا لا يحسنه، فكثير من الأمور تحتاج إلى تأني وصبر، وذلك لأجل التدبر الحسن والتصرف الأحسن، ولهذا قال تعالى: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فالذي يكرهه البعض بأسباب الاستعجال والقلق، قد يكون فيه الخير الكثير، ولذا قال (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) أي لماذا هذا الاستعجال الذي بأسبابه قد تضيع ما هو أهم.

وقوله تعالى: (وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) أي ليس دائما كلّ ما تحبونه نافع ومفيد، فقد يكون ما تحبونه فاسدا أو يؤدّي إلى المفاسد، وقد يكون شرا وأنتم بحكمكم المستعجل ظننتم أنه محبب ومفضل، ولهذا فتبينوا قبل أن تقرروا، وعليه فالصبر كما يقولون هو (مفتاح الفرج).

12 . مرحوم.

المرحوم هو من اكتسته الرّحمة فأكتسي بها اكتساء عظيما، فأصبح على الهداية والطاعة مع انعدام الحاجة عنده إلا لله الواحد القهّار.

وبما أنّنا نكتب عن إدريس الذي اكتسته الرّحمة من الرّحمن الرّحيم اكتساء، إذا لابدّ لنا أن نكتب عن الذي كان راحما له وكاسيا له بالرّحمة حتى اتصف بها صفة حسنة.

لذا، نقول لولا الرّحمن الرّحيم ما كانت الرّحمة التي بها رُحِمَ إدريس رحمة، أي لو لم يكن هناك خالق للرحمة ما كان للرحمة وجود، وبما أنها

---

[612] البقرة 216.

الموجود في الدارين فهي المخلوقة كغيرها من المخلوقات الأخرى ولكلّ مخلوق أهمية في خلقه.

ولتبيان ما تقدم علينا أن نبيِّن الفارق المفهومي لكلّ من:

أ ـ الرّحمة: هي الفضيلة المخلوقة وهي الغاية المرجوة لمن يؤمن بالرّحمن الرّحيم، ولأنها فضيلة من فضائل الرّحمن وفضله فهي غير محددة، بل جاءت عامة لتَعُم الإنسان كمفردة من مفردات الخلق؛ فتعمه أوّل ما تعمه بخلقه في أحسن تقويم ليكون قادرا على الإدراك حتى يتمكن من إدراك خالقه ليحمده على خلقه له في أحسن تقويم، ثم ليعمل صالحا في مرضاته وتتكاثر نعم الرّحمة عليه بالعقل والتدبُّير والقول الصالح والعمل الصالح اللذين بهما تسود الحقّوق وتؤدى الواجبات وتُحمل المسؤوليات طاعة لأمر الله وحده، ممّا يجعل الذي رحمه الله بأحسن تقويم قادر على أن يعدل وأن يحكم بالعدل إذا ما حكم بين النّاس فيما ارتضوه حاكما به عليهم، وإلى النهاية سيكون المخلوق رحمة وفي حاجة للرحمة.

ب ـ المرحوم: هو من سادته الرّحمة حتى اتصف بها في قوله وعمله وفعله وسلوكه إلى أن أصبح أسوة حسنة لغيره، وإلى أن يكون في الجنّة باقيا مع الباقي المطلق في الرّحمة المطلقة.

والمرحوم على دليلين أثنين:

الدليل الأوّل: أنّ المرحوم هو من رحمه الله ليكون رحمة لغيره كما رحم إدريس بواسع رحمته فكان رحمة في الأرض لمن أُجتبي من أجلهم نبيا كريما، قال تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ

الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}613. فقوله (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا) تدل على أنهم قد أدخلوا في الرّحمة إدخالا حيث المشيئة ترى ما تراه، ولهذا فمن يُدخله الرّحمن الرّحيم في رحمته لابدّ أن يكون مرحوما، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}614 إنه الرّسول الكريم الخاتم الذي بُعث للناس كافة رحمة؛ فإنه نعم الرّحمة من الرّحمن الرّحيم.

الدليل الثاني: أنّ المرحوم من تيقّن الحقّ حتى اتّبعه فاهتدى، ولذا، فالمرحوم في هذا الدليل هو من استجاب لدعوة المرحوم المكلّف بالنبأ العظيم أو الرسالة الخالدة من الرّحمن الرّحيم أو ممن آمن ثم دع إلى ما آمن به من قول الحقّ وفعل الحقّ.

وعليه: علاقة قوية تربّط الرّحمة بتحقيق الرضا لمن خُلق في أحسن تقويم، فالذي استجاب للرُسُل الكرام طاعة لأمر الله فاهتدى إلى الحقّ تحقق له ولمن دعاه إلى الحقّ تمام الرضا الذي به تطمئن الأنفس والقلوب.

ج . الرّحمن الرّحيم: هو الله عزّ وجلّ الذي خلق الرّحمة ورحم بها رُسُله وأنبيائه والصدّيقين والصالحين والمؤمنين له بالمطلق واحدا أحدا لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد.

إذا الرّحمن الرّحيم هو الخالق الذي لولاه ما كانت الرّحمة مخلوقة وما كان إدريس ومحمّد وغيرهم من الأنبياء والرّسل والصالحين والصديقين مُدخلين في رحمته الواسعة.

613- الأنبياء 85، 86.

614- الأنبياء 107.

ولهذا، لا يمكن أن يشتق الخالق ممّا خَلقَ، ولكن كلّ شيء يشتق من خالقه. ولأنّ البشر كغيرهم من ورائهم خالق، ولأنّ المخلوق وفقا للقاعدة يشتق صفاته من خالقه، لذا يستخلف البشر بالرّحمة؛ فالرّحمة صفة التمام بين المحبين، وهي خاصية إنسانية تميَّز بها البشر عن غيرهم من المخلوقات الأخرى. ومن يكتسي بالرّحمة يُخلِف الرّحمن في شيء من خواص الرّحمة، ومن لا يُخلفه يفقد هذه الخاصية التي بفقدانها لا يتمكن من أن يكون خليفة.

والفرق كبير بين الخليفة الكم، والخليفة الكيف: الخليفة الكم: كلّ من خُلق فهو خليفة عددا. وكلّ من آمن بما أنزل الرّحمن فهو الخليفة قيميا، ومن هنا يتضح الفرق في المعنى بين الكافر الذي له الحقّ في الرّحمة في هذه الدار الدنيا، وبين الخليفة الذي له الحقّ في الرّحمة باستخلاف الدارين معا.

فالخليفة هو من يستمد صفاته من مستخلفه، ولأنّ الرّحمن هو الخالق، فالمخلوق ينبغي أن تكون الرّحمة من صفاته وخاصيته فهو في أساسه مخلوق عليها، وهكذا كلّما تمسّك الموصوف بصفته ارتبطت صفته به، وكلّما تخلى عنها انسلخت منه.

ولأنّ الرّحمن تعالى خاصيته المطلقة هي الرّحمة المتضمنة في اسمه، وجنس آدم مستخلف ممن يجعله على الخاصية المطلقة (الرّحمة) مصداقا لقوله تعالى: {الرّحمن عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ}[615]، تتجلى في هذه الآيات دلائل عظيمة قُصد بها الخليفة ليتأمل ويعرف ربّه الذي استخلفه في الأرض فيعمل بما أمره به وينتهي عما نهاه عنه، ومن هذه الدلائل تقديم اسم الرّحمن في الآية الكريمة السابقة، وعلى

[615] - الرّحمن 1-3.

الخليفة أن يعي أنّ الله سبحانه جعل للرحمة مرتبة عظيمة فسمى نفسه باسم الرّحمن وهو الاسم الذي خص به ذاته في استدعاء الدعاء بعد اسمه الأعظم (الله) فقال: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرّحمن أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}616، هذه الآية توضح أن كلّ أمر لله هو رحمة منه بالمخلوقات وبالمطلق، هنا تتجلى الدلالة العظيمة الأخرى فَخلقُ الإنسان وتعليمه أنما هي من وجوه رحمة الله به وليس لأمر آخر، فليتصور من يشاء لو أنّ الإنسان لم يُخلق هل ستكون الجنّة مأوى خلود له؟

وعلى هذا السؤال نتساءل:

ما بعد الرّسل لو لم يعرف الإنسان القران العظيم؛ فهل له أن يعرف طريقا إلى الجنّة؟

الرّحمة لا تُعرَّف إلا أنّها الرّحمة، ولا يمكن أن تُعرَّف بغيرها، ولذا؛ فمن أراد الرّحمة فعليه بالعمل عليها حتى بلوغها، وحينها يعلم أن الرّحمة حق يا ليت الجميع يعملون من أجل دخولها، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَلّ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}617.

ومن دلائل الآية أنّ الرّحمة صفة مطلقة لأنّها من الرّحمن المطلق واليك بعضا من دلائل هذا الإطلاق:

[616] – الإسراء 110.

[617] – آل عمران 159.

أ . النبوّة رحمة، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}618، فرحمة دلالة عموم وهي مجهولة بالنسبة لمفرد اللفظ لكن سياق الآية يدلّ عليها إنها النبوّة التي رحم الله بها عباده، فقد جاء محمّد رحمة في الدين وفي الدنيا:

. في الدين لأنّه بعث والنّاس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله تعالى محمّد حين لم يكن لطالب الحقّ سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحقّ وبين لهم سبيل الثواب، ثم شرع لهم الأحكام وميّز لهم الحلال من الحرام.

. وأمّا في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه619.

ب . الرزق رحمة، {وَإِذَا أَذَقْنَا النّاس رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ}620، فرحمة هنا تدل على عموم الخير من مال أو ولد أو صحة أو جاه أو غير ذلك من مطلق الخير.

ج . التثبيت على الدين رحمة، {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ ربّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا}621.

د . الهداية رحمة {ربّنَا آتِنَا مِنْ لَّدُنكَ رَحْمَةً}622، وفي هذا الأمر يُفسّر الرازي الآية بقوله: "أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك

---

618 – الأنبياء 107.

619– تفسير الرازي، ج 11، ص 80.

620 – يونس 21.

621

وإحسانك وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء"623.

ونحن نقول:

الرّحمة جاءت غير محددة ولا مُفصَّلة لتُحصر في نعمة معيّنة أو رزقٍ معينٍ بل جاءت عامة حتى لا يكون الخصوص أو النقص من واسع رحمته التي شاءها أن تكون واسعة، ولهذا الأمر قلنا إنّ الرّحمة لا تُعرَّف إلا بذاتها رحمة.

هـ - الحفظ رحمة، قال تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}.

و - القوّة رحمة، {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ ربّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ربّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ ربّي حَقًّا}624.

ع - قوانين الأرض رحمة، {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ}625.

غ . النجاة رحمة، {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}626.

---

[622]- الكهف 10.

[623]- تفسير الألوسي، ج 10، ص 162.

[624] - الكهف 98.

[625] - يس 41.

وهذا قليل من مطلق لا يمكن لبشر أن يحصيه ويعطيه حقه وإن أفاض، ولكنّها بعض ممّا شاء الله له أن يظهر رحمة منه بمن أراد له أن يعرف فيعلم ثم يعمل.

لذا؛ فالخليفة يحمل في مكوناته شيء مِن خصائص مَن استخلفه. ولأن الرّحمة كما بيّنا خاصية مطلقة وثابتة للرحمن، لذا فهي لن تكون خاصية مطلقة وثابتة للخليفة، ولهذا فهي في حالة اهتزاز بين الثبات النسبي والاهتزاز النسبي، ممّا يجعل البعض في سلوكهم الرّحمة والبعض في سلوكهم مفقودة؛ فالذين لا يحكمون بالعدل، ويأكلّون أموال النّاس بينهم بالباطل، ولا يتطهّرون ولا يتصدقون ولا يتزكون، ولا يتوادون مع من تربّطهم بهم صلة رَحِم، ولا يناصرون المظلوم ولا يَقدِمون على أعمال البر والخير والإحسان فهؤلاء يعتبرون منحرفين عن القيم والفضائل التي بها يُستخلفون في الأرض، وهذا الأمر يجعلهم من تعداد الخليفة الكم، وليس من تعداد الخليفة الكيف (القيم والفضائل الإنسانية).

الرّحمة لا يمكن أن تتم إلا بوجود طرفين، طرف يمتلك مسببات الرّحمة، وطرف في حاجة ماسة لهذه المسببات التي تطعمه من جوع وتأمنه من خوف {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}627 الطرفان هما خالق ومخلوق، فالرّحمة من الذي يمتلكها (الرّحمن). والذي هو في حاجة إليها (الخليفة)، ولأن الخليفة استمد خاصية الرّحمة من خالقه الرّحمن، ولأنّ الخَلَقَ بينهم فروق فردية من حيث القدرات والاستعدادات والإمكانات والمستوى الإيماني، لذا فهم يتراتبون على السُلَّم القيمي للرحمة من حيث درجات الاقتراب

---

626 – هود 58.

627 . قريش 4.

والابتعاد عن (الرّحمن) قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}628؛ فعمل الخير رحمة مطلقة من الله بين النّاس، وعمل الشر لا مطلقة فيه بينهم. لذا تتوزع الرّحمة بين النّاس تناسبيا وبتماثل مع ما يُقدَّم من أفعال الخير كبيرة أكانت أم صغيرة، ممّا يجعل لها أثر موجب على كفَّة التماثل في ميزان الحسنات.

ولهذا بنو الإنسان في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم لم يكونوا على حالة من المساواة على السلم القيمي للرحمة، ممّا يجعلهم على درجات من التفاوت من حيث الاقتراب والابتعاد من الرّحمن عزّ وجلّ.

ولأنّ المؤمن يتعرض في حياته لظروف قد تجعله في حاجة لمن يُقدِّم له المساعدة، نتيجة عوزه وفقره وبما هو عليه من ظروف، أو نتيجة لِما ألمَّ به من كوارث، حتى يتمكَّن من النهوض ومن مغالبة الصعاب. وفي المقابل هناك من تهيأت له الظروف حتى أصبح قادر على العيش السعيد وقادر على مد يد العون للمحتاجين بدون منَّة، ممّا يجعله على الكفة التي بها يستطيع أن تُقدِّم المساعدة، في مقابل الطرف الذي يستلمها أو يأخذها بأسباب الحاجة، وهذه من دلائل الرّحمة وفضائلها بين النّاس.

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) جاءت سابقة على قوله (ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وهذا الأمر يدلّ على أن الله تعالى يهب لنا الرّحمة قيمة مطلقة في ذاتها، أمّا الشّر فلم يكن كذلك فهو المترتب على ما تُقدمه أيادينا، ولهذا الرّحمة المستمدة من اسمه (الرّحمن) هي الصفة الفعلية السابقة في عمومها، والغضب هو الفعل اللاحق أو

628. الزلزلة 7، 8.

المترتب على ما تُقدم أيادينا ممّا يجعل الغضب عقاب لنا على ما قَدِمنا عليه من أفعال غير مرضية للرَّحمن.

ولأنّ الرّحمن هو الله في علاه لذا فهو الاسم الذي لا يُثنى ولا يُجمع، ورحمته شاملة تسع الخلق من انس وجن وملائكة وكلّ ما خلق دون استثناء وحتى النّار التي أعدت للكافرين كانت بواسع رحمته على سيدنا إبراهيم رحمة {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَاما عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}629، ولهذا، الرّحمة تعم كلّ شيء، وإلا لو لم تعم كلّ شيء ما كانت النّار رحمة على إبراهيم وعقاب للكافرين، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أوّلئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}630؛ فكما للجنة أصحاب من المؤمنين، كذلك للنار أصحابها من الكافرين، والذين كفروا هم في أساس خلقهم خليفة ترث الأرض، ولكن انسحابهم عن قيم الخليفة الحميدة والفضائل الخيّرة التي ارتضاه الله لعباده وتخليهم عنها لن يجعل لهم مستقبل لنيل الجزاء الأوفر كما هو حال الذين استجابوا لله ولرُسُله الكرام. ولهذا لا يدخل النّار إلا الذي لم يحافظ على فضائل ما استخلف عليه، ومن لا يحافظ عليها سيلاحقه الخزي حتى ينال العقاب بالحقّ (بالنّار) مصداقا لقوله تعالى: {ربّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ}631.

ولأنّ الرّحمن هو مصدر الرّحمة، لذا فهو الذي يستحق العبادة والشكر والثناء، كما عبده وحمده وشكره إدريس الذي كلّما خر ساجدا لله خرّ له بكيا.

629– الأنبياء 69، 70.

630. البقرة 39.

631. آل عمران 192.

إذا فمن خلقك وجعلك خليفة على الأرض التي فيها معاشك وجميع النعم التي تُشبع حاجاتك المتعددة والمتطوِّرة ألا يستحق العبادة والطاعة التامة، ومن يفعل ذلك يجد الرّحمن به رحيما كريما، وإذا كان من يعمل لك خيرا تشكره كثيرا، فما بالك بالذي خلقك وجعل لك الرّحمة (الرزق والنعم)، ألا يكون هو الأوّلى بالشكر والثناء والعبادة؟

إنّ الشكر والعبادة صلة لا تنقطع بين الرّحمن وخليفته، فمن تمسَّك بها تمسَّك بالصلة الوثقى التي تربّطه بربّه الأعظم، ومن تخلى عنها وقطعها انقطعت الصلة معه، وعندما تنقطع الصلة بمن يمدك بالخاصية والصفة تنعدم خاصيتك وصفتك به، ولهذا عندما تنقطع صلة الخليفة بمن استخلفه يفقد صفته التي على أساسها استخلف في الأرض. ولذا لا يخلف الرّحمن إلا من آمن به واستمد منه صفة الرّحمة التي على أساسها خُلق على الأرض،{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آَتَاكُمْ}632 جاءت الخلافة على حالة الجمع (خلائف) وهذه تدل على خليفة سابقة وأخرى لاحقة، وهكذا تتوالى، (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فهو لم يخلقكم أيها الخلائف نسخة واحدة، بل خلقكم على حالات من الفروق الفردية، وبطبيعة الحال لو خَلق الرّحمن بني الإنسان نسخة واحدة لكان أمر الخلق أهون مصداقا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}633، ولأنه هو مصدر الخلق والإعجاز، أراد لنا أن نكون غير متناسخين كورق السحب الذي يستخدم في الطباعة، ويريد لنا أن نعرف أنّه القادر على كلّ شيء

[632]- الأنعام 165.

[633]- الروم 27.

(الكلّ والجزء والمتجزئ من الدقيق إلى الأدق منه وإلى ما لا نهاية)، ولهذا لم يخلق الرّحمن في خلقنا أثنين متماثلين ومتطابقين بالتمام حتى ولو كانا توأمين، بل جعلنا متكاملين في خلقه، فرفع بعضنا فوق بعض برحمته الواسعة درجات (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) في هذا الأمر يقول الشيخ متولي الشعراوي رحمه الله: "أي أن البعض قد رُفِع، والبعض الآخر قد رُفِع عليه، فكلّ واحد مرفوع في جهة مواهبه، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه"634.

ولو جعل الله تعالى البشر على نسخة واحدة، في هذه الحالة لا يحتاج أحدنا للآخر، ولو لم يحتج بعضنا لبعض، ما كنَّا في حاجة للتراحم بيننا، ولهذا، من مبررات نزول الرّحمة أنّ البعض دائما في حاجة للبعض.

ولذا؛ فإنّ الرّحمة لا تنزل إلا بين طرفين، مالك ومحتاج، فالمالك هو الذي بيده الخير رحمة، والمحتاج هو الذي يفتقد إلى تلك الرّحمة. والمالك المطلق هو الرّحمن الرّحيم، ومالك الجزء أو المتجزئ، هو الذي يمتلك شيء ويفتقد لأشياء، ولهذا مالك الجزء والمتجزئ مهما امتلك من أشياء فهو في حاجة لأشياء أخرى. فالطبيب يحتاجه المريض، وإذا مرض الطبيب هو الآخر سيكون في حاجة لطبيب غيره سواء أكان في تخصصه أم في تخصص آخر، ولذا فإن المريض الواحد يحتاج إلى عدد كبير من الأطباء حيث تنوع الأمراض وتعددها، وهكذا لو كان المريض صاحب حرفة فالطبيب هو الآخر في حاجة لخدماته الحرفية، فلو كان حيّاكا أو بناء أو سائقا أو طبَّاخا أو حارسا فالطبيب سيكون في حاجة ماسة لخدماته، وهكذا تتنوع المهن والحرف وتتعدد مثلما تتعدد المهارات والخبرات، ليتمم البعض إشباع

634 – تفسير الشعراوي. المج لد السابع، القاهرة، أخبار اليوم قطاع الثقافة، ص 29.

حاجات البعض، حيث لا كمال للخليفة، بل الكمال لمن خلق الخليفة.

رحمن على وزن فعلان، وهي صيغة الكثرة، والزيادة في الصفة، فكلّما زادت الصفة الراحمة للخليفة كان خير خليفة، وكلّما قلت قل خيره. وفي هذا الأمر يقول الله تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}635.

قراءة القرآن عن تدبُّر بدون شك زيادة رحمة، لِمن يقرأه ولمن يستمع له وينصت، ولأن في الإنصات تتبع وانتباه عن وعي، لذا فهو يُمكِّن من الوقوف على الحِكَم التي يتضمنها في الكلّمات والجمل المقروءة في زمن الإنصات، ولأنها حِكم من الله تعالى، فهي ذات أثر موجب، تؤدّي إلى الصحوة، بعد غفلة من الأمر، وهذه الصحوة فطنة إدراكية تجعل المستمع والمنصت لكلّام الله عزّ وجلّ على حالة من التبيُّن، وهذه رحمة من الرّحمن الرّحيم، حيث ظهور الفعل المترتب على الاستماع والإنصات للقرآن الكريم وهو الإيمان (الانتقال من حالة الخليفة الكم إلى حالة الخليفة القيم والفضائل).

إنّ الاستماع للقرآن والإنصات له ليس غاية في ذاته، بل الغاية هي بلوغ المترتب على قراءته، والاستماع له، والإنصات إليه، والمترتب على كلّ ذلك هو (الرّحمة) التي تتحقق بالهداية، أو الوقوف على إعجازه وإظهار كنوزه من مكامنها، والانتقال من حالة الغفلة إلى حالات اليقظة، فالظالم إذا اهتدى يصبح عادلا، والكافر يصبح مؤمنا، والكاذب والمنافق وشاهد الزور يصبحوا صادقين، فالمؤمن لا يأكلّ إلا حلالا، ولا يسرق ولا يزنى، يقول الحقّ ويقدم على فعله،

---

[635] - الأعراف 204.

ولا يسلك إلا خيرا، قال تعالى: {الم تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}636 تشير (تلك) إلى (الم) التي في ظاهرها تقرأ أحرف، وفي مضمونها تُدرك آيات إعجازية من الكتاب الحكيم تهدي للتي هي أحسن، وهي رحمة لِمن هم يُحسنون القول والفعل، وخاصة في أدائهم للصلاة وإيتائهم للزكاة وإيقانهم بالآخرة، ومع أنّ الرّحمة مطلقة المفهوم والدلالة، إلا أنّها في هذه الآيات جاءت للخاصة (للمحسنين) فإذا أعجبك فاعل خير (مُحسن)، فعليك أن تعرف أن للإحسان معايير قيمية ودرجات قياسية، تتفاوت من عملٍ صالحٍ إلى عملٍ أكثر إصلاحا منه، وهكذا بما أن بين النّاس محسنين، فبالطبيعة هم يتفاوتون في درجات إحسانهم عند الله، فكلّما ازددت عطاء في الأوجه الخيّرة ازددت إحسانا وبركة، ولهذا إذا رأيت محسنا تأكد بأن هناك من هو أكثر إحسانا منه وعليك أن تنافس في ذلك إن استطعت ولا تقنط، {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}637، ولذا فإن الرّحمة تعم المؤمن وغير المؤمن وتخص بأعلى درجاتها المحسنين الذين يَقدِمون على فعل الخيرات الحِسان.

وعليه فمن يعمل صالحا ينال الرّحمة من الرّحمن الرّحيم، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}638، لعلكم تُرحمون ترتبط بما هو سابق وهو الإصلاح بين الأخوة، وبما هو آتي وهو الرّحمة، حيث لا يتحقق اللاحق إلا بنوعية

636- لقمان 1 - 5.

637- المطففين 26.

638 - الحجرات 10.

الفعل السابق، فإن كان خيرا تكون الرّحمة هي الفعل المترتب عليه، وأن كان شرا يكون العقاب هو الفعل المترتب عليه، ولأن أفعال التفضيل إصلاحية، لذا تُقدَّم أفعال الرّحمة على أفعال العقاب.

الرّحمة صفة تُغرس من الذات الإلهية في الذات الإنسانية، التي هي في أساس خلقها نفخة من روح الرّحمن.

إذا القاعدة هي:

. (خُلقت الأرض رحمة بالإنسان، وخُلق الإنسان رحمة عليها).

والاستثناء هو:

. (أن يُفسد الإنسان في الأرض التي خُلق رحمة عليها).

ولذا؛ فإنّ الرّحمة تعم المؤمن وغير المؤمن وتخص بأعلى درجاتها المحسنين الذين يقدمون على فعل الخيرات: فالرّحمة الخاصة وأقصد بها أن يتجلى الله على قلبك، فتمر عليك ساعة لا تعدلها الدنيا وما فيها والعبد الصالح يسعى للوصول للرحمة الخاصة، فهناك تقريب وهناك مقعد صدق عند مليك مقتدر وهناك نور يقذفه الله في قلبك، فترى به الخير خيرا والشر شرا وهناك شعور بأن الله يحبك، وهناك مشاعر لو وزعت على أهل بلد لأسعدتهم وهذه الرّحمة الخاصة تحتاج لأن يكون للعبد مع الله مودة، سهر الليالي في ذكره، غض البصر عما نهى عنه، إنفاق الأموال في الوجه الحقّ، احترام العلماء وحضور مجالسهم، تفقد اليتامى والفقراء والمساكين وتقديم العون لهم، القول الحقّ والفعل الحقّ والعمل الصالح الذي به يتم الإصلاح والأعمار والفلاح في الأرض؛ فهذه الجهود وما على مثلها تُتوِج المؤمن بالرّحمة وتجلياتها العظيمة التي لا تساويها مغرية وإن عظمة لدى البعض إن لم تعظم عند الله الأعظم.

وبناء على قاعدة (الأرض رحمة للإنسان، والإنسان رحمة عليها)، يستخلف البشر بعضهم بعضا أممّا وشعوبا، على قاعدة عبادة الله والإحسان بالوالدين مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}639، في هذه الآية الكريمة أمَرَ ربّك وحَكم بعبادته دون غيره، وهذه رحمة لا تجعلك تفكر في معبود آخر من دونه، وأمر بالإحسان للوالدين، حتى يتم نيل رضاهما، وهذه رحمة، وبما أنّ نيل رضا الوالدين رحمة على الأبناء، إذن الأبناء رحمة على الوالدين، ولهذا يُستخلف البشر على أساس قاعدة الرّحمة المستمدة من (الرّحمن). ولهذا كان نيل رضا الوالدين في مرضاة الله رحمة، ونيل غضبهما يُحرم الأبناء من نيل الرّحمة، قال تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ ربّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ وَقُلْ ربّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}640، وقال تعالى: {ربّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}641.

ولأنّ الرّحمن من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته الكريمة، واسم الرّحمن لا يطلق إلا على الله تعالى من حيث أن معناه لا يصح إلا له، إذا هو الذي وسع كلّ شيء رحمة، أمّا اسمه الرّحيم فهو الذي كثرت رحمته وتحققت أفعالها بين الذين يُريد لهم الرّحيم أن يُرحموا، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}642 وقال في صفة النبي محمّد: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ

[639]- الإسراء 23.

[640]- المؤمنون 118.

[641]- المؤمنون 109.

[642]- النور 5.

مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}643، إذا الرّحمن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين وعلى هذا قال: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كلّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}644، تدل الآيات الكريمة على رحمة الله الواسعة في الدارين، إلا أن رحمته في الدنيا عامة (المسلم والكافر)، ورحمته في الآخرة خاصة بالمستخلفين الوارثين.

الرّحمن اسم عظيم لله الأعظم على صيغة فعلان الدالة على المطلقية التي تُظهِرُ صفة الرّحيم مع صفة الودود، قال تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ ربّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}645 وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}646.

وبنظرنا إلى البسملة نلاحظ أنها لم تقتصر على ذكر الله فقط، بل ربّطت اسمه الأعظم باسم الرّحمن الرّحيم، وهذا يدلّ على أنه لو أُقتصِر على اسم الله تعالى فقط، فالقول جليل فيه المخافة من عظمته وقدرته وقوته وكبريائه، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلّمَهُ ربّهُ قَالَ ربّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى ربّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أوّل

---

[643]- التوبة 128.

[644]- الأعراف 156.

[645]- هود 90.

[646]- البروج 13 – 14.

الْمُؤْمِنِينَ}647، خوفا ممّا يرد على خاطر من قوَّتِه التي تَدُك الجبال جاء اسم الرّحمن متزامنا مع اسم الله تعالى لكي تكون الرّحمة من اسمه للترغيب والمحبة والألفة التي تجعل الخليفة في شوق للتقربّ منه، وحتى لا يظن البعض بأنها مجرد قول جاء اسم الرّحيم متتاليا بعد الرّحمن، وذلك لإظهار الفعل من القول حتى تتم ملامسته ومعايشته شواهد دالة على واسع رحمته مصداقا لقوله تعالى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}648. نلاحظ في هذه الآية الكريمة رحمتين من رحمته الواسعة:

الرّحمة الأوّلى: أن يونس عليه الصّلاة والسّلام كان من المسبِّحين.
الرّحمة الثانية: أن الله أخرجه من بطن الحوت بكلّ سلام.

وعليه فالمؤمن بطبعه الإنساني ينبغي أن يكون من المسبِّحين، ومن الغرابة ألّا يكون كذلك.

ولذا؛ فإن البسملة (بسم الله الرّحمن الرّحيم) تحتوي الآتي:

أ ـ بسم الله: (بسم القوّة الأعظم التي فيها الجلالة والهيبة التي تجعل الخليفة في حالة مخافة من عظمتها وجلالها).

ب ـ بسم الرّحمن: (بسم الرّحمة التي تلين القلوب وتتلهف الأنفس إليها لتصبح مطمئنة حتى تؤمن بثقة وتعمل بشوق وإرادة).

ج ـ بسم الرّحيم: (بسم من بيده أفعال الرّحمة شواهد بين أيدي النّاس).

---

[647]– الأعراف 143.

[648] – الصافات 144.

وبناء على ذلك ارتبطت الرأفة والرّحمة باسمه {إِنَّ اللَّهَ بِالنّاس لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}649 جاءت في هذه الآية الكريمة الرأفة مطلقة مثلما الرّحمة جاءت مطلقة لكلّ النّاس بدون استثناء، فالله عزّ وجلّ لا يمكن أن يستثني أحد من خليفته، بل الاستثناء يأتي إرادي من البعض من النّاس، الذين فُتِّحت لهم أبواب الرّحمة ولم يدخلوا من أبوابها، ولذا فإن الله بعنايته رحيم بالعباد.

فالاسم الرّحيم: اسم دائم بفعل دائم، فعندما يُمد حرف الياء بقراءة في اتصال كأنه لا ينقطع، يتبيَّن للقراء العطاء الدائم من الاسم الرّحيم الدائم، أي يتبيَّن لهم أنَّ الأفعال تُحمل في هذه الاسم، ممّا يجعل الرّحمة فضيلة خير والرّحيم فاعل لهذه الفضيلة الخيِّرة.

ومن أراد أن يكون خليفة رحمة للرحمن الرّحيم فعليه باستمداد صفات الرّحمن والرّحيم ليكون على الرّحمة ويكون عاملا مع الآخرين بها ومن أجلها، قال تعالى: {أوّلئِكَ أَصْحَابُ الجنّة خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}650 ولهذا فالعمل الناجح هو بأسباب النية الصادقة والفعل الناجح {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}651. ولذا؛ فالمؤمن هو الذي يقتدي بالعمل الصالح، أمّا أوّلئك الذين يقولون ما لا يفعلون، أو يفعلون الباطل فهؤلاء هم من البشر الذين لم تتجسد في أفعالهم أعمال الخير التي ترضي الله ورسوله والمؤمنين.

649- البقرة 143.

650- الأحقاف 14.

651- فصلت 46.

وبما أنّ الله هو الرّحمن الرّحيم، إذن الرّحمة آتية لا محالة، وبما أنّها آتية لا محالة لكلّ من يتقدم لها، إذن فلماذا القنوط؟ ولماذا لا تُفتح صدور البعض لاستقبالها واحتضانها؟

نقول:

من يريد أن يَعُمَّ برحمته الواسعة فعليه بالإيمان بأنه المستخلف بصفات حُسنى فلا يسيء إليها حتى لا يسيء لنفسه وللآخرين، وعندما يكون كذلك تكون الرّحمة من نصيبه، ولهذا فهي ضمان لكلّ مؤمن، وأمل لكلّ إنسان ضامر لفعل الخير.

قال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآَيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرّحمة أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[652]؛ فقوله تعالى: (غَفُورٌ رَحِيمٌ) تدل على أنّه الفاعل لذلك على أرض الواقع والقادر في أي حين على فعل المغفرة والرّحمة، ولهذا جاءت كلّمة الرّحيم مستمرة بأفعالها التي هي شواهد دالة على إظهار الحقّيقة كما هي سواء أكانت ذات أثرٍ سالبٍ أم أكانت ذات أثرٍ موجبٍ، وفي قصة سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما الصّلاة والسّلام دليل شاهد على تجسد الرّحمة في الأفعال.

ولننظر لرحمة الله على أفعال السيد الخضر عليه الصّلاة والسّلام حتى كان بأفعاله رحيما بما هو أتي:

1 ـ كان خرق للسفينة رحمة: من أجل المساكين الذين يعملون في البحر، ولو لم يعيبها الرجل الصالح الأكثر علما من سيدنا موسى

[652] – الأنعام 54.

عليهما الصّلاة والسّلام لكانت تحت حوزة الملك (قاطع الطريق برجاله المأجورين) ليأخذ كلّ شيءٍ غصبا.

إذن، الرّحمة جاءت مرتين:

أ . خرق السفينة رحمة حتى لا تفلت من أيدي المساكين العاملين في البحر وهي مصدر معيشتهم. وبمقارنة خرقها بتلفها نهائيا يكون الخرق رحمة وذلك لأنها أصبحت قابلة للإصلاح وليست قابلة للتلف.

ب . إقدام الرجل الصالح على فعل الخرق إقدام رحمة. فلولاه ما سَلِمت من الوقوع في أيدي رجال الملك ولأخذت إلى يوم يبعثون من المساكين العاملين في البحر الذين هم يقتاتون على ما يجنونه على ظهرها.

2 . قتل الغلام رحمة: من أجل الأبوين المؤمنين حتى لا يرهقهما طغيانا وكفرا فكانت الرّحمة عليهما بالتخلص ممن لو بقي حيّا لكان سببا في إرهاقهما طغيانا وكفرا وجاء البديل خير على الوالدين، ولدُ صالحُ، خير زكاة وأقربّ رُحمة.

من هذا الأمر جاءت الرّحمة مرتين:

أ . قتل الغلام في ذاته رحمة على الأبوين، باعتباره تخلص من أسباب تؤدّي إلى الطغيان والكفر.

ب . الولد الصالح جاء بديلا للولد الطالح وهذه رحمة من رحمن رحيم.

3 . بناء الجدار رحمة: من أجل الغلامين اليتيمين أبناء الرجل الصالح الذي ترك لهما كنزُ تحت الجدار حتى إذا بلغا أشدهما (بلغ سن حُسن التصرف) استخرجا كنزهما رحمة لهما من الرّحمن الرّحيم.

يستقرأ من وراء بناء الجدار الآتي:

أ. فعل حفظ الكنز كان رحمة وذلك حتى لا يضيع في غير محله.

ب. استخراج الكنز من قِبل الغلامين اليتيمين بعد أن يبلغا أشدهما كان رحمة لهما ورحمة عليهما.

ج. أنّ الأمر الذي جعل الوالد صالحا هو الذي بأسبابه كانت الرّحمة متصلة مع أبنائه.

وعليه: يمكن استنباط الآتي ممّا قصَّ علينا في قصة سيدنا موسى والسيد الخضر عليهما الصّلاة والسّلام من الآيات السابقة الذكر:

1. الاعتماد على الصبر في استقراء الأمور ومعالجتها كلّما ألمت بالإنسان {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أوّلو الْعَزْمِ مِنَ الرّسل وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً}[653]. ولأن الله وحده هو الذي يصطفي الرّسل والأنبياء من عباده ليجعلهم قدوة ومثالا للخليفة الذي يود له أن يكون في الأرض مستخلفا، لذا كانت الرّحمة حيث قصّ الله علينا من قصص أوّلي العزم حتى يقتدي بأقوالهم وأفعالهم كلّ من يريد أن يكون خليفة لله على الأرض، وهذا لا يعني أن يكونوا بالتمام مثل الرّسل والأنبياء، فالرّسل والأنبياء لا يمكن أن يكون غيرهم مثلهم، بل أن غيرهم بإمكانه أن يقتدي بهم قولا وفعلا وعملا وسلوكا، وهذه رحمة من الله تعالى على عباده المؤمنين.

2. الرّحمة الكبرى على الغلامين (أصحاب الكنز) أنّ رحمة ربّي كانت عليهما مباشرة وذلك لأن الله تعالى هو الذي أراد أن يبلغ الغلامين أشدهما ولم يكن الخضر الذي يود ذلك، {فَأَرَادَ ربّكَ أَنْ

---

[653]– الأحقاف 35.

يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ ربّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}654.

إذن، كلّ رحيم قادر على أن يقوم بأفعال الرّحمة مباشرة وبدون إنابة، ولذا، لا يمكن أن تكون أفعال الرّحيم خالية من الرّحمة، ولهذا كلّ أثرٍ من رحيم هو أثر رحمة. وبما أن الأمر كذلك إذن بطبيعة الحال تكون الرّحمة صفة للرحيم عزّ وجلّ. وبما أنّ الرّحمة صفة، إذن الاتصاف بها ممكنا، وبما أنه ممكنا فالاقتداء بأفعالها كما يود لها أن تكون يجعل الإنسان خليفة بها وخليفة عليها.

ولارتباط الرّحمة بالرّحيم، نلاحظ أينما وُجِدَ رحيم وجدت الرّحمة، وأينما غاب رحيم غابت الرّحمة. ولأن الله هو الرّحمن الرّحيم فإن رحمته لن تنقطع، ولهذا؛ فالعذاب يخص والرّحمة تعم {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كلّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرّسول النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أوّلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}655.

ولأنّ العذاب عام والرّحمة خاصة، جاءت قضايا العذاب جامعة مانعة، جامعة للذين يحق عليهم العذاب، وتستني الذين يقومون بأفعال الرّحمة. أمّا قضايا الرّحمة فهي قضايا جامعة لا مانعة، جامعة لكلّ من هم يقومون بأفعال الرّحمة (أفعال الخير) ومستوعبة لكلّ من

[654]- الكهف 82.

[655]-الأعراف 156، 157.

يُكفِّر عن سيئاته متى ما يشاء مستغفرا وتائبا وطائعا لله ربّ العالمين لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير.

وعليه: لكلّ من العذاب والرّحمة أفعال مترتبة على أفعال، ولكلّ من العذاب والرّحمة فاعل، ولذلك لا يمكن أن يكون العذاب أو الرّحمة إلا بفاعل، ولهذا فإن فاعل الرّحمة هو الرّحيم الذي تتصف أفعاله بها، وفاعل العذاب هو المنتقم الذي تتصف أفعاله بها، وفي هذا وذاك فإن الله واحد هو الرّحمن الرّحيم وهو المنتقم من الذين يجرمون ما يجعل انتقامه منهم رحمة على المؤمنين، {فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}656.

وقد يتساءل البعض:

كيف تترتب الأفعال على الأفعال؟

نقول:

لو لم يقترف المنحرف جريمة ما صدر بشأنه فعل عقابي، ولذا فالعقاب فعل مترتب على الفعل الانحرافي، ولو لم يكن يونس من المسبِّحين للبث في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون، وهكذا دائما تترتب الأفعال تحت ظروف السبب والمسبب، والعلة والمعلول.

والرّحمة فضيلة تستمد منها القيم العلائقية التي بها تلين القلوب والنفس وتقتربّ من بعضها بعضا من أجل ما يُفيد وينفع ذوي العلاقات سواء أكانوا أفراد أسرة أم عشيرة أم رفاق عمل أم جيرة أم أصحاب مصلحة أم أكانوا مواطنو دولة؛ فبدون الرّحمة لا يمكن أن تتكون العلاقات بين النّاس، وإذا انقطعت الرّحمة انقطعت العلاقات

656–الروم 47.

وإذا سادت بينهم سادت العلاقات وقويت عُراها؛ فعلى مستوى الأسرة لا يمكن أن يحدث التفكك والرّحمة سائدة بين الوالدين والأبناء وبين الأخوة جميعا وكذلك الجيران، ممّا يجعل الرّحمة شرطا رئيسا للُّحمة والوحدة وتبادل المحبة والمودة بين النّاس.

ولذا؛ فإنّ حُبّ الخالق لعباده رحمة، وحب العباد لخالقهم رحمة، وهذا الأمر إن ساد بين النّاس فهو الذي يجعل من الرّحمة بينهم مركزا لكفتي الميزان المعتدل على التساوي.

وعليه: فالرّحمن هو مصدر الرّحمة، والرّحمة هي المسبب في تكوين العلاقات وقوّة روابطها، وأن الرّحيم هو الذي به تتم أفعال الرّحمة، قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرّحمن الرّحيم}657، وبطبيعة الحال لو لم يكن الله واحدا ما كان رحمن ورحيم، وما كانت هناك رحمة، ولهذا وحدانية الله تعالى هي الرّحمة الكبرى، فالحمد لله الرّحمن الرّحيم.

وقد يتساءل البعض:

لماذا الرّحمة؟

الرّحمة ليست حاجة كما يظن البعض، بل الرّحمة مشبّع حاجة، ولو لم تكن مشبعة للحاجة ما كنّا جميعا نسعى لنيلها.

وعليه فإشباع الحاجة هو المحقق للراحة والرضا والسكينة والطمأنة، ولأنّ في الحاجة الألم لذا فالكلّ يسعى للتخلص من الألم بما يُشبّع الحاجة؛ فالألم كلّما ألمَّ بالإنسان كان في حاجة للتخلص منه فهو بدون شك مُقلق ويؤدّي إلى الضيق الشديد ولأجل أن تطمئن

---

[657]-البقرة 163.

القلوب والأنفس وتتحقق السكينة لابدّ من التخلص من الألم والقضاء عليه بكلّ استطاعة وقوّة.

ولأن الإنسان خُلق ضعيفا فهو مخلوق ليسعى حتى يتمكن من الإشباع الذي يمده بالقوّة، وإلا سيظل دائما في حاجة، {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}658 التخفيف دائما للأعباء والآلام عمن لا يستطيع وذلك لمحدودية مقدرته ودرجة تحمُّله.

إذا الرّحمة أمل ينبغي أن يسعى الإنسان إلى بلوغه، ولا ينبغي له أن ييئس، فاليأس هو انقطاع الصلة بين الرّحمة ومن هو في حاجة إليها وبين الرّحيم الذي بيده أمر القيام بالفعل، والأمل هو الصلة التي بها يتم إشباع الحاجة التي هي في نفس المؤمن الراغب في مرضات من استخلفه في الأرض.

إذا الرّحمة والأمل أمران مترابطان مثل ترابط المثير والاستجابة، فلولا الأمل ما تحققت الرّحمة، ولولا الرّحمة ما تحقق الأمل، وعليه فالرّحمة في ذاتها مُعطية بلا فعل، والأمل في ذاته أيضا معطية بدون فعل، ولهذا كان وراء كلّ رحمة رحيم ووراء كلّ أمل مرحوم.

بناء على ما تقدم فإن أثر الألم يقع في دائرة الممكن (السالب والموجب) في ساعة الإنجاب يكون الألم سيدا فيها، ومع أنّه ألم إلا أنه المنتظر بفارغ الصبر، حيث من بعده ولادة، التي بها تكون الفرحة وتنتشر بين ذوي العلاقات رحمة، وكذلك يوم الختان فرحة في ساعة ألم، وهكذا يكون الزواج فرحة في ساعة ألم. وفي مقابل ذلك يكون الموت راحة من ألم (شفاء دائم من داء) وحتى إن أزداد الألم في يومه ليحسبه البعض ساعة ألم في يوم حُزن، يكون البعث من بعده رحمة في

658- النساء 28.

يوم الفرحة. ولذا {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}659. وبمراجعة ما سبق نُلاحظ أن كلّ شيء رحمة فالحمد لله الرّحمن الرّحيم.

وهكذا تكون العلاقة بين المرض والمصاب به، ألم يجعله في حاجة للشفاء، الذي لا يمكن أن يكون بدون علاج المرض، وسيظل الألم إلى أن تزال أسبابه، ممّا يجعل المريض في حاجة لمقابلة الطبيب المتخصص حتى يكتشف الأسباب والعلل ويصف له الدواء المقاوم للأسباب والعلل، وسيظل الألم إلى أن تزول الأسباب، وقد يتبيَّن للطبيب أن المريض في حاجة ماسة لإجراء عملية جراحية، التي عندما يعرف المريض أن من بعدها سيشفي فيأذن بالإقدام عليها مع معرفته التامة بما يترتب عليها من ألم قد يضاف إلى آلامه السابقة، ولذا فإن إجراء العملية ساعة ألم في يوم فرحة نجاحها.

وفي مقابل ذلك فرحة الظالمين بفوزهم على المظلومين هو يوم فرحة في يوم ألم. فاليوم الذي يفرح فيه الفائز ظلما يتألم فيه المظلوم انهزاما، إلا أنّ المترتب على الفعلين سيكون معكوسهما بالتمام في اليوم الذي لا ينقطع (اليوم الآخر) فالظالم سيظل في يوم ألم (العقاب) والمظلوم سيظل في يوم فرحة (الإثابة) أمّام عدالة الرّحمن الرّحيم مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}660.

وعند ما يجد الإنسان نفسه إراديا بين اختياري فرحة وألم، فقد يقبل بتقديم ساعة الألم على ساعة الفرحة، فالفتاة في عُرسها تجد نفسها بين أن تفارق أسرتها مؤقتا وبين أن تتزوج، فهي بطبيعة الحال ستُقدِم

659- الروم 44.

660- آل عمران 182.

يوم الألم (يوم الانفصال النسبي) الذي قد يحس به الوالدين والأخوة أو قد يحس به البعض منهم مثلما هي تحس بألم الرحيل النسبي عنهم، لتعيش أيام فرحة من بعده. وكذلك بعد الزواج إن كان فاشلا سيظل ألم إلى أن تأتي ساعة الفراق التي هي ألم لعلاج مشكلّة، وهذا الألم الفراقي يتماثل من حيث تقريب المعنى من ألم إجراء العملية الجراحية للمريض التي من بعدها تأتي أيام الفرج فرحة.

وعليه: فإن أفعال الرّحمة تتعدد بتعدد ما يُقدَّم من أعمال حِسان، {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}661 فلننظر إلى هذه الآية الكريمة والكيفية التي تتعدد الرّحمة فيها:

ألا تُعد صلاة الله على المؤمنين رحمة.

ألا تُعد صلاة الملائكة على المؤمنين رحمة.

ألا يُعد الإخراج من النّار رحمة.

ألا يُعد دخول النور رحمة.

ألا تُعد رحمته بالمؤمنين رحمة.

ألا يُعد وجود الرّحمة في ذاته رحمة.

ألا يُعد اسم الرّحيم الفاعل للرحمة رحمة وإن استمد منه.

ولأنّ رحمة الله واسعة فهي لم تقتصر على فئة دون فئة، بل أبوابها مُفتّحة لكلّ من يريد الدخول فيها، {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى

[661]- الأحزاب 43.

أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}662؛ فلننظر إلى هذه الآية حتى نستبين:

. ألا تُعد رحمة الله قد جاءت مطلقة دون أي استثناء، ومطلقة لأن تغفر الذنوب جميعا.

. ألا تُعد هذه الآية جامعة لكلّ الرّحمة، وفاتحة أبوابها لكلّ النّاس. ولأن رحمة الله واسعة لتعم النّاس قال تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}663، وقال تعالى: {للَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}664. في هذه الآيات الكريمة جاء التأكيد على أن الرّحمة عامة، وقضاياها جامعة لا مانعة. أمّا أنّ الله بالمؤمنين رءوف رحيم فهذه تدل على التخصيص باعتبار أن الرّحمة سبقت إلى البعض الذي آمن وبالتالي كانت المترتبة على الأفعال الإيمانية مصداقا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}665.

وعليه: بما أنّ الله هو الرّحمن الرّحيم، إذا لابدّ من أن يكون هناك من هو في حاجة لأن يُرحم، وبما أنّ الإنسان خُلق ضعيفا من حيث غرائزه ومشاعره وحواسه تجاه ما يُشبع الشهوات، إذا هو في حاجة لرحيم يجود عليه من واسع رحمته، ولهذا فالرّحيم لا يمكن أن يكون ضعيفا، ولا يكون منّاعا للخير ولا يكون في حاجة، بل يكون هو

---

[662]- الزمر 5.

[663]- الأعراف 128.

[664] - العنكبوت 62.

[665] - الأحزاب 43.

القادر بالمطلق على فعل أي شيء بالأمر (كن) بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير.

وعليه: فالرّحيم قوي، ومن يُرد أن يكتسب هذه الصفة فعليه أن يتخلّص من أسباب الضعف والوهن، حتى يمتلك مقاليد الأمور التي تُمكّنه من أن يكون رحيما.

الرّحيم لا يمكن أن يكون خصما، ولذا من يدخل في خصام مع النّاس يفقد خاصية من خاصيات الاستخلاف في الأرض. ومع أنّ الله جعل في الأرض خليفة إلا أنَّ الخليفة مهما امتلك من معطيات الرّحمة واتصف بأفعال الرّحيم، فهو في ذاته محتاج لرحيم ليحفظه من كلّ سوء، ولهذا قال تعالى {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}666.

الرّحمة، إضافة خير على من يستحقه، ولذا زيادة الخيرات بين النّاس رحمة، ومن يعمل على ذلك تتجسد صفة الرّحيم في أفعاله وسلوكه، ومن لا يعمل على ذلك يُعد من الذين يفتقدون لصفة من صفات المؤمنين الوارثين في الدارين، ولذا فإن جميع أفعال الخيرات الحِسان هي أفعال رحمة، وصفات من الرّحمن الرّحيم {أُوّلئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}667. وقوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آَيَاتِ اللَّهِ آَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوّلئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ

---

[666] - يوسف 64.

[667]- المؤمنون 61.

عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}668. من الآيتين السابقتين يتضح ازدياد الرّحمة بالتسابق على أعمال الخيرات، والإسراع لأداء أفعالها الحِسان، وجاءت الخيرات مطلقة لتعم كلّ فعل من ورائه رحمة.

668- آل عمران 113 . 115.

النبي

إدريس من السُنّة

إدريس عليه الصّلاة والسّلام نبيا كريما من الأنبياء الكرام الذين أخبر الله عنهم في كتابه العزيز وباسمه وحدّث عن شخصه؛ فوصفه نبيا صدّيقا ومن الصّابرين، ودعا إلى وحدانية الله وهو من عرف الخط بالقلم وهو كذلك يجيد خياطة الثياب، وهو من نظر في علم النجوم وسيرها.

حَكَى مَكِّيٌّ فِي تَفْسِيرِهِ عن النبي إدريس "أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ كَانَ يَخُطُّ بِأُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى فِي الرَّمْلِ، ثُمَّ يَزْجُرُ. قَوْلُهُ: (فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ) بِنَصَبِ الطَّاءِ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ، وَالْفَاعِلُ ضَمِيرٌ يَعُودُ إلَى لَفْظِ مَنْ، قَالَ الْخَطَّابِيّ: هَذَا يَحْتَمِلُ الزَّجْرَ عَنْهُ إذْ كَانَ عَلَمًا لِنُبُوَّتِهِ، وَقَدْ انْقَطَعَتْ فَنُهِينَا عَنْ التَّعَاطِي لِذَلِكَ. قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: الْأَظْهَرُ مِنْ اللَّفْظِ خِلَافُ هَذَا، وَتَصْوِيبُ خَطِّ مَنْ يُوَافِقُ خَطَّهُ، لَكِنْ مِنْ أَيْنَ تُعْلَمُ الْمُوَافَقَةُ وَالشَّرْعُ مَنَعَ مِنْ ادِّعَاءِ عِلْمِ الْغَيْبِ جُمْلَةً، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: مَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ الَّذِي تَجِدُونَ إصَابَتَهُ لَا أَنَّهُ يُرِيدُ إبَاحَةَ ذَلِكَ لِفَاعِلِهِ عَلَى مَا تَأَوَّلَهُ بَعْضُهُمْ. وَلَوْ قِيلَ: إنَّ قَوْلَهُ: فَذَاكَ، يَدُلُّ عَلَى الْجَوَازِ لَكَانَ جَوَازُهُ مَشْرُوطًا بِالْمُوَافَقَةِ، وَلَا طَرِيقَ إلَيْهَا مُتَّصِلَةً بِذَلِكَ النَّبِيِّ؛ فَلَا يَجُوزُ التَّعَاطِي"669.

قال ابن كثير: وقد قالت طائفة أنّ المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل النبي عن الخط بالرّمل فقال: "إنّه كان نبي

---

669 نيل الأوطار، 7، ص 222.

يخط بالرّمل فمن وافق خطه فذاك" ويقال أنّه أوّل من خط بالقلم، "وأول من خط بالقلم"670.

وقد أختلف العلماء في مولده ونشأته، فقال بعضهم إنّ إدريس ولد ببابل، وقال آخرون إنّه ولد بمصر، وقال غيرهم أنّه ولد ببابل وهاجر إلى مصر، وقد آتاه الله النبوّة فنهي المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شرع الله؛ وهو يدعو النّاس إلى الله وإلى مكارم الأخلاق. وكانت له مواعظ وآداب فقد دعا إلى دين الله، وإلى عبادة الخالق جلّ وعلا، وحرّض على العمل الصالح، وحض على الزّهد في هذه الدنيا الفانية الزائلة، وأمرهم بالصّلاة والصّيام والزّكاة، وغلّظ عليهم في الطهارة من الجنابة، وحرّم المسكر من كلّ شيء وشدد فيه. فأطاعه نفر قليل، وهذه من سُنن الحياة حيث، أكثرهم يجهلون ولا يعقلون ومجرمون وضالون.

قال البخاري: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أنّ إلياس هو إدريس، واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء: أنّه لما مرّ به عليه السّلام قال له مرحبا بالأخ الصّالح والنبي الصّالح، ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قالوا: فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قالا له"671.

إدريس عليه السّلام نبيا بذاته ولم يكن هو إلياسَ كما يظن البعض وقد بيّنا ذلك سابقا، كما بيّنا أسبقية نوح على إدريس عليهم جميعا الصّلاة والسّلام. "والذي سَنَحَ لي أنهما اثنان"672

670 شرح القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 5، ص 331.

671 مستخرج أبي عوانة، 1، ص 107.

672 فيض الباري على صحيح البخاري، 2، ص 6.

قد ورد في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنّ النبيّ قال: "يَا أَبَا ذَرٍّ أَرْبَعَةٌ سُرْيَانِيُّونَ آدَمُ وَشِيثُ وَأَخْنُوخُ وَهُوَ إِدْرِيسُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ وَنُوحٌ وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ هُودٌ وَشُعَيْبٌ وَصَالِحٌ وَنَبِيُّكَ محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ"673.

ويذكر السيوطي اسم إدريس عليه السّلام بين من دخلوا مصر من الأنبياء، ويذكر رواية عنه أنّه قد حكم مصر، وكان أوّل من خطط المدن ووضع قواعد للزراعة وعلّم النّاس الفلك والهندسة.

وينقل المؤرخ ابن تغري بردي في كتابه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» رواية عن بناء إدريس للأهرام، فيقول إنّه قد استدل من فهمه لحركة الكواكب على قرب الطوفان، فبنى الأهرام وأودعها العلوم التي خشي من ضياعها.

نبوّة إدريس:

قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنّة وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا}674.

---

673 صحيح ابن حبان – محققا، 2، ص 77.

674 مريم 56 . 60.

"قال الحافظ ابن كثير في تاريخه إدريس عليه السّلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوّة والصديقية"675

وقد "اخْتَارَ اللَّهُ عزّ وجلّ لِنُبُوَّتِهِ وَانْتَخَبَ لِرِسَالَتِهِ إِدْرِيسَ صَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ أَرْضِهِ فَجَمَعَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ عِلْمَ الْمَاضِينَ كُلِّهِمْ مِنْ قَبْلِهِ وَزَادَهُ مِنْ عِنْدِهِ ثَلَاثِينَ صَحِيفَةً وَذَلِكَ قَوْلُهُ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى}676، ويَعْنِي بِالْأُولَى الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى ابْنِ آدَمَ هِبَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِدْرِيسَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَمَنْ آمَنَ مِنَ النّاس يَوْمَئِذٍ كَانَ مُؤْمِنًا وَمَنْ جَحْدَهُ وَحَارَبَهُ كَانَ كَافِرًا"677

نسب إدريس:

أَنَّ نبوةَ إِدريسَ – عليه السّلام – متأَخرَةٌ، وأَنّه كانَ نبيّا في بني إسرائيل، نَقَلَ القرطبيُّ في تفسيرِه عن القاضي أَبي بكر بنِ العربيِّ قولَه: "ومَنْ قالَ: إِنَّ إِدريسَ كان قبلَ نوح، فقد وَهِم! والدليلُ على وَهْمِه الحديثُ الصحيحُ في المعراجِ، حينَ لقيَ النبيُّ – – آدمَ وإدريس. فقالَ له آدَمُ: مرحبا بالنبيّ الصالحِ والابنِ الصالح، وقالَ له إدريس: مرحبا بالنبيّ الصالحِ والأَخ الصالح. فلو كانَ إِدريسُ أَبا لنوحٍ لقال: مَرحبا بالابنِ الصالحِ والنبيّ الصالح، ولَمّا قَالَ له إِدريسُ: الأَخ الصالح دَلَّ على أَنّه يجتمعُ معه في نوح"678

675 الفتح الرّباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، 20، ص 38.

676 الأعلى 18.

677 العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني، 5، ص 1603.

678 القرآن ونقض مطاعن الرهبان، 1، ص 112.

(قال) أنس وفي رواية البخاري (قال أنس) بتصريح أنس، وقال القسطلاني ظاهره أنّ أنسًا لم يسمع من أبي ذر هذه القطعة الآتية وهي (فلما مرّ جبريل ورسول الله بإدريس) فقال: (مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح) ولم يقل والابن كما قال آدم لأنّه لم يكن من آبائه، وقال القاضي عياض: عبر آدم ونوح وإبراهيم عليهم السّلام بالابن لأنّهم آباء له، وعبّر غيرهم بالأخ لأنّهم ليسوا آباء باتفاق، وتعبير إدريس – عليه السّلام – بالأخ يخالف ما يقوله أهل النسب والتاريخ إنّه جدّ أعلى لنوح – عليه السلام – ويقولون هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، وأخنوخ هو إدريس – عليه السّلام – بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السّلام، ولا خلاف في عدّ هذه الأسماء على هذا النحو، وإنّما الخلاف في ضبط بعضها"[679]

إدريس في السّماء الرّابعة علوّ:

وهذه من قصّة الإسراء، إنّ النبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام لما صعد إلى السماوات علوّ وجد النبي إدريس في السّماء الرّابعة، عندما صعد به جبريل عليه السّلام: "صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، فَإِذَا إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ"[680] وَرَفَعَ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ[681]

وعليه فانّ النبي محمّد وهو في علوّه للسّماوات رأى النّبي ادريس وهو في علوّه في السّماء الرّابعة، وهذا دليل اثبات رفعة المكانة العالية

---

[679] الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم، 4، ص 193.

[680] الإيمألّابن منده، 2، ص 729.

[681] فضائل الأوقات للبيهقي، ص، 441.

التي جعل فيها المتعالي العظيم ادريس عليه الصّلاة والسّلام في السّماء الرابعة. أي أنّ المتعالي جعل ادريس متعاليا عن الأرض الدنيا بما فيها من نواقص؛ ولهذا فالمتعالي هو الذي يتعالى عن كل وصف لا ينبغي له أن يتصف به، إنّه المتصف بالصفات الحسان وبالأسماء الحسان الكاملة سبحانه لا إله إلا هو ليس له مثيل ولا شبه.

والمتعالي هو الذي يعلم حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله، فيثبت لنفسه وصفه الحقّيقي، وهو: أنّه العلي. وهذا المعنى هو معنى التعالي بالنسبة إلى الله تعالى، وأمّا التعالي بالنسبة إلى غيره في الأرض: فهو ادعاء كاذب، وتكلف ممقوت، وخلق ذميم، يقول الله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}[682]

ويدخل اسم الله تعالى (المتعالي) مع مجموعة من أسماء الله الحسنى مكونا وحدة دلالية واحدة، وهذه الوحدة الدلالية يمكن تسميتها ب(صفات الحمد والتمجيد لله تعالى) وهذه الأسماء هي (الكبير، المتكبر، العلي، المتعالي، الجليل، العظيم، الكريم، الماجد، المجيد، الحسيب، ذو الجلال والإكرام، الصمد، الحميد). وهذه الصفات لها مطلق المجد والعظمة، والعلو والكبرياء، السيادة والكرم. والله تعالى هو الذي يستحق وحده منتهى الحمد والثناء عليه، بالعظمة والجلال، والعلو والكبرياء، وهو الذي يستحق التمجيد بمنتهى السؤدد والشرف الحقّيقي.

[682] - الرعد 8 – 10.

واسم الله تعالى (المتعالي) يفتح ملفا معرفيا يتشكّل من عدّة محاور، وهذه المحاور تأخذ أبعادا مترامية الأطراف وتحيلنا إلى قراءات مختلفة، منها نستمدّ المعارف والأفكار التي تدخلنا حيزا جديدا يزيد إيماننا وثقتنا بالله تعالى.

المتعالي هو المنزّه عن صفات الخلق وهذه صفة يستحقها بذاته وقد يكون بمعنى العالي فوق خلقه بالقهر683. والمتعالي متعالٍ عن الأشباه والأنداد والأمثال والأضداد وعن أمارات النقص ودلالات الحدوث، وقيل: هو من العلو الذي هو بمعنى القدرة والسلطان والملك وعلو الشأن والقهر والاعتلاء والجلال والكبرياء684.

ويدخل اسم المتعالي مع اسم المتكبر مكونا تشكلا معرفيا يجمع صورتين كل واحدة تحيل على الأخرى، فترسمها بشكل يتفاعل فيه التعالي مع الكبر ممّا يخلق صورة واحدة تحيل إلى عظمة وتعالي وتكبر لله. "فالْمُتَكَبِّرُ هُوَ الْمُتَعَالِي عَنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ وَيُقَالُ: هُوَ الَّذِي يَتَكَبَّرُ عَلَى عُتَاةِ خَلْقِهِ إِذَا نَازَعُوهُ الْعَظَمَةَ، فَيَقْصِمُهُمْ وَالتَّاءُ فِي الْمُتَكَبِّرِ تَاءُ التَّفَرُّدِ وَالتَّخْصِيصِ بِالْكِبْرِ لا تَاءُ التَّعَاطِي وَالتَّكَلُّفِ، وَالْكِبْرُ لا يَلِيقُ بِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَإِنَّمَا سِمَةُ الْعَبِيدِ الْخُشُوعُ وَالتَّذَلُّلِ وَقَدْ رُوِيَ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَاءُ اللهِ تَعَالَى، فَمَنْ نَازَعَهُ رِدَاءَهُ قَصَمَهُ وَقِيلَ: إِنَّ الْمُتَكَبِّرَ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ الَّذِي هُوَ عَظَمَةُ اللهِ تَعَالَى لا مِنَ الْكِبْرِ الَّذِي هُوَ مَذْمُومٌ عِنْدَ الْخَلْقِ"685. وهنا ندخل في سياق التكبر، إذ لابدّ من الإحالة إلى قول رسول الله، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه

[683] – الاعتقاد ج 1 ص 64.

[684] – تفسير الالوسي ج 2 ص 319.

[685] – الأسماء والصفات ج 1 ص 183.

وسلم: "قال الله عزّ وجلّ الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النّار"686.

وفي حديثنا عن اسم الله تعالى (المتعالي) لابدّ من التفريق بينه وبين اسم (العلي) وذلك لأن الاسمين الكريمين يدلان على العلو، بمعنى أن دلالتهما واحدة لكن هناك في الوقت نفسه فرق بينهما، فالعلي: الذي رتبته أعلى المراتب العقلية، وهي المرتبة العلية، فإن ذاته المقدسة هي مبدأ كل موجود حسي وعقلي، وعلته التامة المطلقة التي لا يتصور فيها النقصان بوجه ما.

والمتعالي هو المستعلي على كل شيء بقدرته، أو المتنزه عن نعوت المخلوقات وعن كل شيء لا يجوز عليه في ذاته وصفاته وأفعاله687.

إنّ توضيح الفرق بين اسم العلي والأعلى والمتعالي، يأتي وفق التصور الآتي: إنّ كل اسم كما سبق دل على معنى من معاني العلو، فاسم الله العلى دل على علو الفوقية وأنّ الله عال عرشه وهو أعلم بالكيفية، واسمه المتعالي دل على علو القهر والغلبة، واسمه الأعلى دل على علو الشأن والعظمة، تنسجم في ذلك الأدلة اللغوية مع الأصول القرآنية والنبوية688.

واسم الله تعالى (المتعالي) ضمن تشكل صوتي يحيل إلى الكبر والعلو والسمو ففيه حرفان من حروف المد هما الألف والياء، ممّا يحتاج نفسا طويلا عند قراءته ممّا يخلق جوا معرفيا طول مدة نطقه للتبصر به والتعمق والوصول إلى سبر أغواره، فيثير في النفس الرهبة والرّغبة،

---

686 – سنن أبي داود ج 2 ص 456.

687 – الفروق اللغوية ج 1 ص 375.

688 – أسماء الله الحسنى ج 32 ص 204.

فالرهبة تحيل إلى الخوف منه، فالتعالي صورة موحية بالخوف الشديد الذي يهز الابدّان فترتعش الأطراف وتخرج القلوب من الصدور إلى الحناجر، صورة مرعبة مضطربة تتبعها أزمة نفسية واهنة، وهذا التشكل النفسي المضطرب يدعمه صورة من صور القيامة التي رسمها لنا القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}689، هذه الآية الكريمة رسمت صورتي الرّحمة بالاصطفاء، والخوف المتحقق في النفس الإنسانية ضمن سياق بدأ بالإنذار قبل يوم التلاق. فالسياق هنا يتمثل في عرض مشاهد القيامة، وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله، مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة690.

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له فقال: (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ) أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلّت أوصافه، وتعالت ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه ويجعلهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: (يُلْقِي الرُّوحَ) أي: الوحي الذي هو للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى

---

689 - غافر 15 – 16.

690 - في ظلال القرآن، ج6، ص 243.

(يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ) الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم. (عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وهم الرّسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده.

والفائدة من إرسال الرّسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: (لِيُنْذِرَ) من ألقى الله إليه الوحي (يَوْمَ التَّلاقِ) أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية ممّا يكون فيه. وسماه (يوم التلاق) لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ) أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. (لا يَخْفي عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ) لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال. (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. (الْقَهَّارِ) لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه[691].

أمّا الرغبة فهي لا تكون إلا للمؤمنين بالله تعالى، فهذه الصفة يتحقق فيها الإيمان الحقّيقي، إذ يقول تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

[691] – السعدي، ج 1، ص 734.

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}692
والمحبة: انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء من صفات ذاتية، أو إحسان، أو اعتقاد أنّه يُحِب المستحسِنَ ويَجُر إليه الخير. فإذا حصل ذلك الانفعال عقِبَهُ ميل وانجذاب إلى الشيء المشعور بمحاسنه، فيكون المنفعِل محبّا، ويكون المشعور بمحاسنه محبوبا، وتُعدّ الصفات التي أوجبت هذا الانفعال جمالا عند المحبّ، فإذا قويَ هذا الانفعال صار تهيّجا نفسانيا، فسُمي عشقا للذوات، وافتنَانا بغيرها.

والشعور بالحسن الموجبُ للمحبة يُستمدّ من الحواسّ في إدراك المحاسن الذاتية المعروفة بالجمال، ويُستمد أيضا من التفكّر في الكمالات المستدلّ عليها بالعقل وهي المدعوة بالفضيلة، ولذلك يحبّ المؤمنون الله تعالى، ويحبّون النبي تعظيما للكمالات، واعتقادا بأنّهما يدعوانهم إلى الخير، ويحبّ النّاس أهل الفضل الأوّلين كالأنبياء والحكماء والفاضلين، ويحبون سُعاة الخير من الحاضرين وهم لم يَلْقوهم ولا رَأوْهم693. وقد عبّر رسول الله عن المحبة المتحققة، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ"694. وهنا نعود إلى يوم التلاق لنستعرض فيه من هم المحبون؟ والمحبون هم من يتشكلون من القرآن الكريم وسنة النبي محمّد، ونقصد بالتشكل هنا أتباع ما جاء في القرآن الكريم وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصّلاة والسّلام، والمحبة وردت في النص القرآني في خطاب الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ

692 – أل عمران 31.

693 – التحرير والتنوير، ج 3، ص 84.

694 – صحيح مسلم، ج 8، ص 65.

يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}695، فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدا يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد. وفي هذا السياق ورد قول الرّسول عليه الصّلاة والسّلام: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ – قَالَ – فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ إِنِّي أُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضْهُ – قَالَ – فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوهُ قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ"696، المتعالي هنا يرسم للخلق أجمعين صورة عظيمة، فهو المتعالي تبارك وتعالى يحب مخلوقا ضعيفا، وهذا الحب يأخذ منحا أخر، إذ يتشكل مع العبد ويجعل منه قوة كبيرة مستمدة من حب الله تعالى له، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عبدي بشيء أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عبدي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سألني لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شيء أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ

695 – المائدة 54.

696 – صحيح مسلم، ج 8، ص 40.

الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"697. فضلا عن ذلك تنال محبة الله بطاعة رسوله، إذ يقول تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}698، فمن اتّبع الرّسول أحبه الله، ومن عصى الرّسول أبغضه الله.

ولابدّ أيضا من المحبة المنافية لضدها، فلا يحصل لقائلها معرفة إلا بقبول ما دلت عليه من الإخلاص، ونفي الشرك؛ فمن أحب الله أحب دينه، ومن لا فلا، يقول تعالى: {وَمِنَ النّاس مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ القوّة لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ}699، فصارت محبتهم لله ولدينه، فأحبوا من أحبه الله، وأبغضوا من أبغضه الله، وفي الحديث: "وهل الدين إلا الحب والبغض"700 هذه صورة الحب التي يجب أن يكون عليها الخليفة ولهذا وجب أن يكون الرّسول أحب إليه من نفسه وولده ووالده والنّاس أجمعين.

حبّ الله يستلزم الانقياد لأوامره ونواهيه، ومن علامات محبته: بُغض من أبغض الله ورسوله ومعاداة من عاداه، ومجانبة من خالف سنته، وابتداع في دينه، واستثقاله كل أمر يخالف شريعته، قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

---

[697] – صحيح البخاري، ج 21، ص 392.

[698] – آل عمران 31.

[699] – البقرة 165.

[700] – تفسير ابن أبي حاتم، ج 12، ص 267.

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}701.

ومن الحبّ أيضا أن يحبّ القرآن الذي أُنزل عليه ويحب سنته ويقف عند حدودها، قال سهل بن عبد الله: "علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حبّ القرآن حبّ النبي، وعلامة حب النبي حب السنة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بُغض الدنيا، وعلامة بُغض الدنيا ألاَّ يدَّخر منها إلا زادا وبلغة إلى الآخرة"702.

الله سبحانه وتعالى متعالٍ عن الوصف والإدراك والإحاطة، إذ يقول تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}703، هذه الآية هي إخبار من الله تعالى بأنّه هو المتفرد بالألوهية لجميع خلقه، وهو الذي يستحق أن يُعبد دون سواه، فالآية الكريمة ترتسم ضمن صفات متعددة متتابعة فتبدأ بالحي القيوم، الحي في نفسه الذي لا يموت أبدا. والقيم على غيره، وهو القائم بتدبير أمر عباده، يكلؤهم ويحفظهم ويرعاهم ويرزقهم، ولا قوام للمخلوقات بدون أمره.

701 – المجادلة 22.

702 – البدع الحولية، ج 1، ص 131.

703 – التوبة 255.

لا تأخذه سنة ولا نوم، لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، ومن تمام القيومة ألّا يعتريه سنة ولا نوم، لأنّ اعتراء النعاس والوسن دليل على العجز والضعف. له ما في السماوات وما في الأرض، وهو إخبار بأنّ جميع من في الكون عبيد له وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه، وهو المتصرف بشؤونهم، الحافظ لوجودهم.

من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، ومن عظمته، جلّ شأنه وعلا، لا يجرؤ أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا إذا أذن له بالشفاعة، ولا يتكلّم أحد بدون إذنه.

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهذا دليل على إحاطته علما بكلّ شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو يعلم أمور الدنيا التي خلفوها، وأمور الآخرة التي يستقبلونها.

ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، ولا يطلع أحد من خلقه على شيء من علم الله إلا ما علمه الله، وأطلعه عليه، وأذن له به. ولا يعرف إذنه تعالى إلا بوحي منه.

وسع كرسيه السماوات والأرض، والكرسي غير العرش، وهو أصغر منه. وقال رسول الله: ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة في الأرض.

ولا يؤوده حفظهما، ولا يعجزه حفظ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما بل هو سهل عليه يسير؛ فلا يعزب عن علمه شيء، ولا يغيب عنه شيء.

وهو العلي العظيم، وهو الكبير المتعالي عن النقص، العظيم بجلاله وسلطانه704. وهذا يقين بأنه تعالى الكبير المتعالي عن النقص، فهو سبحانه منزه عن أي نقص فهو العظيم بجلاله وسلطانه. هذه الآية الكريمة تشكلت مع اسم الله تعالى (المتعالي) فجاءت بأنساق مختلفة كلّ واحدة تفضي إلى الأخرى لتشكل لنا حزمة معرفية تفتح لنا أفاقا رحبة في التعرف على ربنا.

وفي هذا السياق نتذكر قول الرّسول الكريم في هذه الآية العظيمة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ – – بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَصَّ الْحَدِيثَ فَقَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. وَقَالَ النَّبِيُّ – – "صَدَقَكَ وَهْوَ كَذُوبٌ ذَاكَ شَيْطَانٌ"705.

والتعالي صفة لا يختص بها إلا الله تعالى، وهذه الصفة عند التحلي بها إنسانيا لها وجهان:

. محمود، وهو تعالٍ مطلوب في حق الخليفة ويتجسد في التعالي عن الرذائل والنقائص، فيجب على الخليفة التعالي بالطاعة عن المعصية وبالإيمان عن الكفر وبالعدل عن الظلم، وبالمطلق بالحقّ عن الباطل.

. مذموم، ليعلم الخليفة أن أول من تعالى عليه عدوه إبليس لعنة الله عليه، يقول المتعالي جل في علاه: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ

---

704 – أسعد حومد، ج 1، ص 262.

705 – صحيح البخاري، ج 16 ص 499.

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}706، من هنا يجب على الخليفة أن يستشعر التعالي المذموم الذي هو من أسباب دخول جهنم والعياذ بالله، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ (لاَ يَدْخُلُ الجنّة مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ). قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ "إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الحقّ وَغَمْطُ النّاس"707. هنا الحديث النبوي يقطع صورة التكبر الإنساني، ويرسمها ضمن شكل دقيق لا يرى بالعين المجردة في بعض الأحيان ممّا يجعلها خاصة بالمتعالي، فلا تكون إلا له.

وحظ الخليفة من اسم (المتعالي)، أن يتخلق به فلا يتعالى على الخلق، إنما يتعالى على كل شيء يبدد تشكل الخليفة الذي أراده الله تعالى، ويمتثل لقول الله تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}708، هذا الإتيان والنهي يمثل دائرة مغلقة يكون الخليفة بداخلها فتكسبه حصانة وأمانا وقوة، فضلا عن ذلك تعاليا يتماشى مع تشكله ممّا يمنحه صفة الإصلاح في الأرض، فيكون قادرا على هذا الإصلاح لأنه امتلك أدواته التي يتحقق من خلالها التغيير المطلوب من الله تعالى، من ذلك

706 - ص 71-76.

707 - صحيح مسلم، ج 1 ص 65.

708 - الحشر 7.

جاء قول الله تعالى مخاطبا داود عليه الصّلاة والسّلام، إذ يقول: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}709.

المتعالي يسقط أمامه كل كبير، والكبير وفق تشكلنا الإنساني يحيلنا إلى صورة كل متكبر وطاغية ومتجبر على في الأرض واستحكم عليها وملك المال والأنفس، وبطبيعة الحال إن ملك المال والنفس هو من باب المجاز، فالله سبحانه وتعالى هو مالك الملك وبيده كل شيء، ولنبدأ من فرعون تلك الشخصية التي أصبحت مضربا للمثل، فضلا عن ذلك صارت معيارا للتجبر والتكبر، فهذه الشخصية رُسمت صورتها وفق إطار التملك والقوّة والجبر، إذ يقول تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ}710 جمع فرعون قومه ونادى فيهم متبجحا متفاخرا بملك مصر، وتصرفه فيها، وفي أنهارها الجارية في أرضها، وسياق الخطاب هنا تشكل من مفردات مختلفة كلها تحيل إلى القوّة وعظم المكانة التي عليها هو، فضلا عن ذلك أراد تثبيتهم في طاعته، وصرفهم عن التأثر بموسى وما جاء به من آيات.

فإذا تتبعنا النص القرآني وجدناه قد رسم فرعون في صورة لم ترسم لغيره، ألا وهي صورة العلو التي شغلت حيزا واضحا في سرد قصته، إذ يقول تعالى: {فَمَا آَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

---

709 - ص 26.

710 - الزخرف 51.

الْمُسْرِفِينَ}711 وقوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}712 وقوله تعالى: {وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ}713 هذه الآيات الكريمة في كل سياقاتها بينت لنا صورة فرعون صاحب القهر والغلبة، وفي الوقت نفسه هو عاتٍ متكبر، هذه الصفات عند قراءتها والتمعن فيها تحيلنا إلى مخلوق قوي متمكن متسلط جبروت يفعل بالخلق ما يريد لا أحد يقف أمامه، لكن هذه الصورة تتهاوى أمامنا حين نقرأ قول الله تعالى:{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}714 هنا تهاوى كل شيء، أين الجنود؟ أين المدافعون؟ أين الحماة؟ أين العلو الذي زعمته؟ {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}715 الكل تفرق عنه وذهب كل يريد النجاة بنفسه، نُفي عنه إيمانه لم ينفعه إيمانه لأنه جاء به في وقت حصول الموت. وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي، يقول تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ

---

711 - يونس 83.

712 - القصص 4 – 5.

713 - الدخان 30 – 31.

714 - يونس 90 – 92.

715 - النازعات 24.

وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}716 تحقق أمر الله تعالى بغرقه في البحر، إلا أن الغرق تبعه أمر مهم بقي خالدا في الذاكرة يتشكل معها ويوقظها عند سماع اسم فرعون، يقول تعالى: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}717، الإنجاء بالبدن صورة تبقى على طول الزمن واضحة معبرة لكل الخلق، فعندما تقع أعينهم على البدن يذكرون المتعالي، الذي يسقط أمامه كل من أراد العلو والتكبر والجبروت في الأرض، سبحانك ربنا لا اله إلا أنت، أنت المتعالي.

ولننتقل إلى شخصية أخرى وهي شخصية قارون، فقد قص علينا النص القرآني قصته، يقول تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي القوّة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ

---

716 - النساء 18.

717 - يونس 92.

عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}718، قصة قارون تعرض سلطان المال والعلم، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق. وتقرر حقيقة القيم، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح؛ مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد.

تبدأ القصة فتعين اسم بطلها (قارون) وتحدد قومه (قوم موسى) وتقرر مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي (فبغى عليهم) وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء:

(وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوّة).

ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس.

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالا كثيرا، يصور كثرته بأنه كنوز والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال. من أجل هذا بغى قارون على قومه. ولا يذكر فيم كان البغي، ليدعه مجهولا يشمل شتى الصور. فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال719. ثم يأتي الخطاب القرآني بعد سرد قصة قارون ليبين صفات المستحقين للآخرة، يقول تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا

---

718 – القصص 76 - 82.

719 – في ظلال القرآن، ج 5 ص 442.

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}720ومن بين هذه الصفات صفة العلو التي تشكل محورا مهما في حياة المؤمنين فهم لا يريدونها لأنهم متواضعون وعارفون أنها لا تكون إلا للواحد الأحد المتعالي.

وقوله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}721 هذه الآية الكريمة فيها إطلاق معرفي، فالله تعالى يعلم كل شيء ممّا يشاهده العباد، وممّا يغيب عنهم من عوالم لانهاية لها، ولا يخفي عليه شيء منه. و(الكبير) العظيم الشأن الذي كل شيء دونه و(المتعالي) المستعلي على كل شيء في ذاته وعلمه وسائر صفاته سبحانه، وجوز أن يكون المعنى الكبير الذي يجل عما نعته به الخلق من صفات المخلوقين ويتعالى عنه، فعلى الأول المراد تنزيهه سبحانه في ذاته وصفاته عن مداناة شيء منه؛ وعلى هذا المراد تنزيهه تعالى عما وصفه الكفرة به فهو رد لهم كقوله جل شأنه: {سبحان الله عَمَّا يَصِفُونَ}722 قال العلامة الطيبي: إن معنى (الكبير المتعال) بالنسبة إلى مردوفه وهو (عالم الغيب والشهادة) هو العظيم الشأن الذي يكبر عن صفات المخلوقين ليضم مع العلم العظمة والقدرة بالنظر إلى ما سبق من قوله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}723 إلى آخر ما يفيد التنزيه عما يزعمه النصارى والمشركون724.

---

[720] – القصص، 83.

[721] – الرعد، 8 – 9.

[722] – الصافات 159.

[723] – الرعد 8.

[724] – تفسير الالوسي، ج 9 ص 210.

التوازن الاجتماعي قضية مهمة تكتسب أهميتها في أنها ترسم للحياة جوانب الاستقرار التي إن تحقق تصبح الحياة تسير وفق تشكل خاص ورؤية خاصة تلملم الفكر المتشتت، وتبصره إلى الصورة المثلى التي يجب أن تتحقق، وهذه الصورة المثلى التي تتحقق ترتكز على صورتين مهمتين تستندان إلى مرجعيات سابقة، ونقصد بالمرجعيات السابقة أن هناك أحداث وقعت، وعند استدعاء هذه الأحداث وتوظيفها تتشكل صورتان تنطقان بالتوازن الاجتماعي الذي يحصل حين التفكر بهما، الصورة الأولى تقول إن أي متعالٍ أو جبارٍ من البشر حين يتفكر بما حصل لقارون يندك جبروته وتعاليه، إذ يقول تعالى:{كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}725 وقوله تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ}726 هاتان الصورتان تنطقان أن كل متكبر وكل عال في الأرض يكون هذا مصيره، فعند التفكر بهاتين الصورتين ينسج عقل المتكبر صورة جديدة واعية ترتكز على الخضوع والخشوع والطاعة لله تعالى، فيبني لنفسه حياة جديدة يشكلها وفق الوعي الذي تشكل معه نتيجة التفكر المتحقق بعد طول تأمل وتبصر واستدعاء، هذا الأمر لا يقتصر على فرد واحد بل يستمر ليتشكل مع الأسرة أيضا،

---

[725] - الدخان 25 – 29.

[726] - القصص 79 – 81.

ولا يقف عند الأسرة الواحدة بل يستمر أيضا ليشمل المجتمع والأمة جميعها، وبهذا يتحقق للمجتمع صورة جديدة مُشبَعَّةٌ برضا الله تعالى، فضلا عن ذلك حتى لا يتخلف أحد من الوصف الذي ذكره الله تعالى بقوله: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}727.

أما الصورة الثانية: فهي صورة الإنسان الضعيف الذي يعلم أن له سندا أعلى لا ينال منه أحد فيطمئن ويعيش آمنا، هذه الصورة تحيلنا إلى قوله تعالى:{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}728 هذه الآيات الكريمة نسجت صورة عظيمة ارتكزت على قوله تعالى: (إِنَّنِي مَعَكُمَا) ممّا يفتح لنا هنا ملفا معرفيا يتشكل فيه ثبات المؤمن، فضلا عن ذلك الجانب النفسي الذي يكسب المؤمن الثقة العالية في مواجهة كل ما هو متوقع وغير متوقع. وغير المتوقّع هو ما حصل للنبي يونس عليه الصّلاة والسّلام، إذ يقول تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ

[727] - أل عمران 110.

[728] - طه 43 – 74.

فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}729 وهذا ثناء منه تعالى، على عبده ورسوله، يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوّة والرسالة، والدعوة إلى الله، وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: (إِذْ أَبَقَ) أي: من ربه مغاضبا له، ظاننا أنه لا يقدر عليه، ويحبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما أغضبه عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، تكريما لنبي الله يونس، وإنما ذُكِّرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرّسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقيض له ما هو سبب صلاحه.

فلما أبق لجأ (إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فاقترعوا على أن من قرع وغلب، ألقي في البحر عدلا من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه. فلما (اقترعوا) أصابت القرعة يونس (فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ) أي: المغلوبين. فألقي في البحر {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ} وقت التقامه (مُلِيمٌ) أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه. (فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه، وتسبيحه، وتحميده، فضلا عن ذلك قوله في بطن الحوت حيث قال: (لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين، عند وقوعهم في الشدائد730.
فكان هنا مقابلة غير المتوقّع بأمرين، الأمر هو عبادة الله تعالى والإيمان به في كل الأوقات وبخاصة في أوقات الرخاء، أما الأمر الثاني فهو

729 - الصافات 139 – 148.

730 - السعدي، ج 1، ص 707.

مواجهة الأمور الصعاب والعظام بالدعاء، ذلك لان الدعاء هو مخ العبادة أو هو العبادة، وبذلك يكتسب المؤمن قوة تحصنه وتعينه في حياته، فضلا عن ذلك أن كل الأمور التي يتعرض لها هي خير، عَنْ عَبْدِ الرّحمن بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -: "عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"731.

المتعالي هو المقصود في الحوائج، فإذا توجه العبد إلى الله تعالى أصبح في علو. فالعبد يقصد الله تعالى في كل الأمور سواء أكانت الأمور دنيوية أم أخروية، ولهذا جاء الخطاب القرآني وفق نص مفتوح لا يتقيد بأي شيء، ممّا يرسم صورة عظيمة للرحمة التي يريدها الله تبارك وتعالى لعباده، إذ يقول تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}732 وقوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}733 فالعبد حين يطلب حاجته من الله تعالى يكون في علو، لأنّه يطلب الحاجة من المتعالي، فالتشكل هنا يكون وفق تحقق صورة عظيمة، العبد يطلب من المتعالي العظيم ممّا يجعله في حالة نفسية قوية، تفيض روحه بالتعالي المستمد من المتعالي.

والمتعالي متعالٍ في كل شيء وفي أي شيء نفكر فيه، ممّا يجعلنا ندور في حلقة مفرغة لا نصل إلى نتيجة تتفق مع علم الله تعالى

[731] - صحيح مسلم، ج 8، ص 227.

[732] - البقرة 186.

[733] - غافر 60.

بنفسه، ومن خلال النص القرآني تتضح لنا صفة المتعالي في عدة تشكلات منها:

1 . المتعالي خارج قياس الحيز:

ورد في النص القرآني الكثير من النصوص التي تبين أن الله تعالى متعالٍ عن الحيز والجهة، ومن بين ما ورد قصة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[734] إن الوجهة المتحققة هنا ليست توجيه وجه القلب إليه، لأنه متعال عن الحيز والجهة، بل توجيه وجه القلب إلى طاعته لأجل عبوديته، فترك كلمة «إلى» هنا والاكتفاء بحرف اللام دليل ظاهر على كون المعبود متعاليا عن الحيز والجهة[735].

والحيز يتحدد وله أبعاد، ويكتسب اتجاهات أربعة شمال، جنوب، شرق، غرب، وهذا كله لا يمد لله تعالى بأي صلة، فهو متعالٍ عن أي حيز أو جهة سبحانه.

2 – الله تعالى متعالٍ عن العقوبة:

والعقوبة إنما هي لإحقاق حق وإبطال باطل. والعقوبة وردت في الدين الإسلامي من أجل إعطاء كل ذي حق حقه، فضلا عن ذلك

[734] – الأنعام 76 – 79.

[735] – تفسير الرازي، ج 6 ص 354.

تكون حياة لكل الخلق، يقول تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[736] كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرّف القصاص ونكر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوع من الحياة عظيما، فالحياة لابدّ أن يسودها الأمن والأمان من أجل أن يعيش النّاس حياة طبيعية يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وهذه الأمور لا تتحقق إلا إذا نفذ القصاص بالخارجين عن القانون، ففي القصاص ارتداع للناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع النّاس؛ لأن أشدَّ ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين. ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم. فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سببا لحياتهم. وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثاني تخصيص. وقيل: المراد بها الحياة الأخروية، فإن القاتل إذا اقتص منه في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة[737]. فكل العقوبات التي وردت في النص القرآني والحديث النبوي تدل على أن الله سبحانه متعالٍ عنها، إنما وضعها تبارك وتعالى من أجل تنظيم أمور الحياة في كل تفاصيلها، وجعلها تسير ضمن نسق محدد واضح، فلا يحدث أي تجاوز أو خروج عن الحدود التي وضعها الله تبارك وتعالى، يقول جل شأنه: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

---

[736] – البقرة، 179.

[737] – البيضاوي، ج 1 ص 214.

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}738.

3 . الله تعالى متعالٍ عن الحاجة:

الله سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى أحد، بل الكل في حاجة له تبارك وتعالى، إذ يقول تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ}739 الآيات الكريمة هنا تتشكل ضمن سياقين، السياق الأول: يبين الله تعالى فيه أن خلقه للجن والإنس هو من أجل العبادة، وهذا السياق يفتح ملفا مهما يكون على أساسه الحساب الأخروي المتحقق في الآخرة، والعبادة لم تتحقق عند جميع الخلق، لأن الله تعالى أراد منهم أن يعبدوه مختارين لا مضطرين إليها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم. والعبادة المطلوبة هي عبادة الله تعالى، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

أمّا السياق الثاني وهو محور كلامنا في سياق الحاجة، فقوله تعالى: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا

[738] – النساء 13 – 14.

[739] – الذاريات 56 – 59.

يَسْتَعْجِلُونِ}740 فالله تعالى لا يريد منهم من رزق وما يريد أن يطمعوه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق، فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، (ذُو القوّة الْمَتِينُ) أي: الذي له القوّة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته، أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته، أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلى، وعصفت بترابهم الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين741.

ولننتقل إلى الحديث القدسي الذي يرسم صورة للمتعالي، إذ يتمحور على تشكلات مختلفة كلها تنطق بقدرة وجلال المتعالي تبارك وتعالى، عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ

740 – الذاريات 57 – 59.

741 – السعدي ج 1 ص 813.

يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ. قَالَ سَعِيدٌ كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ"742.

الحديث القدسي يفتح أمامنا الحاجة ضمن وجهين، الوجه الأول وقد مر ذكره أن الله تعالى ليس في حاجة إلى أحد، حتى العبادة تبارك وتعالى ليس في حاجة إليها، فتحققها وعدم تحققها يعود إلى المخلوق، أي أن مصيره مرتبط بالعبادة، فمن كفر يكون مصيره من الداخلين إلى نار جهنم والعياذ بالله، إذ يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}743.

أمّا من آمن فيكون مصيره من الخالدين في جنات النعيم ورضوان الله تعالى، يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجنّة زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا

---

[742] - صحيح مسلم ج 8 ص 16.

[743] - الزمر 71 – 72.

خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنّة حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}744.

أمّا الوجه الثاني: أنّ الخلق أجمعين لو سألوا الله تعالى وأعطاهم ما يريدون لا ينقص من ملكه شيء، يقول تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}745 وهذا الوجه يدخل في سياق الحديث عن ملك الله تعالى، فقد ورد في النص القرآني وفي كثير من المناسبات، من ذلك قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّار رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَار رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}746 هذه الآيات الكريمة تبدأ بأمر الملك، ففيه عرض لملك الله تعالى بما يحاكي العقل البشري، فضلا عن ذلك أن هذا الكون بذاته كتاب مفتوح، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته؛ ويشي وراءه من يد تدبره بحكمة، ويوحي بأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة وحساب وجزاء إنما يدرك هذه الدلائل ويقرأ هذه الآيات ويرى هذه الحكمة،

---

744 – الزمر 73 – 74.

745 – النحل 96.

746 – أل عمران 189 – 194.

ويسمع هذه الإيحاءات (أولو الألباب) من النّاس الذين لا يمرون بهذا الكتاب المفتوح وبهذه الآيات الباهرة مغمض الأعين غير واعي!

وهذه الحقّيقة تمثل أحد مقومات التصور الإسلامي عن هذا الكون والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الإنسان والتفاهم الداخلي الوثيق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان، ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة، وعلى الناموس الذي يصرّفه وما يصاحبه من غاية وحكمة وقصد من جهة أخرى. وهي ذات أهمية بالغة في تقرير موقف الإنسان من الكون و(إله) الكون سبحانه وتعالى، فهي ركيزة من ركائز التصور الإسلامي للوجود.

يلي هذه الحقّيقة في سياق الدرس استجابة الله (لأولي الألباب) وقد توجهوا إليه سبحانه بدعاء خاشع منيب؛ وهم يتدبرون كتاب الكون المفتوح، ويتأملون ما ينطق به من الآيات، وما يوحي به من الغايات. استجابته لهم استجابة توجيهية إلى العمل والجهاد والتضحية والصبر، والنهوض بتكاليف هذا الإيمان، الذي ثابوا به من جولتهم الخاشعة في كتاب الكون المفتوح. مع التهوين من شأن الذين كفروا وما قد يستمتعون به من أعراض هذه الحياة. وإبراز القيم الباقية في الجزاء الأخروي، التي ينبغي أن يحفل بها المؤمنون الأبرار[747].

4 . الله تعالى متعالٍ عن النقص:

النقص مفردة تتردد في سياق الحديث عن المخلوقين، أما الله تبارك وتعالى فله الكمال المطلق، وقد بين الله تعالى أنه أحق بالكمال من غيره وأنّ غيره لا يساويه في الكمال، إذ يقول تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ

[747] – في ظلال القرآن، ج 2، ص 27.

كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}748 فالخلق صفة كمال وهي من الدلائل الدالة على وجود القادر الحكيم على الترتيب الأحسن والنظم الأكمل وكانت تلك الدلائل كما أنّها كانت دلائل، فكذلك أيضا كانت شرحا وتفصيلا لأنواع نعم الله تعالى وأقسام إحسانه أتبعه بذكر إبطال عبادة غير الله تعالى والمقصود أنّه لما دلت هذه الدلائل الباهرة، والبينات الزاهرة القاهرة على وجود إله قادر حكيم، وثبت أنّه هو المولي لجميع هذه النعم والمعطي لكل هذه الخيرات فكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لا سيما إذا كان ذلك الموجود جمادا لا يفهم ولا يقدر، فلهذا الوجه قال بعد تلك الآيات: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) والمعنى: أفمن يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر البتة على شيء أفلا تذكرون فإن هذا القدر لا يحتاج إلى تدبر وتفكر ونظر. ويكفي فيه أن تتنبهوا على ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، وأنتم ترون في الشاهد إنسانا عاقلا فاهما ينعم بالنعمة العظيمة، ومع ذلك فتعلمون أنه يقبح عبادته فهذه الأصنام جمادات محضة، وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار فكيف تقدمون على عبادتها، وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها749.

والخلق صفة كمال، وأن الذي يخلق أفضل من الذي لا يخلق، وأن من عدل هذا بهذا فقد ظلم. يقول تعالى:{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مم}750 هذا

---

[748] – النحل 17.

[749] – الرازي، ج 9، ص 368.

[750] – النحل 75.

مثل ضربه الله تعالى للكافرين في إشراكهم بالله الأوثان والأصنام، والمثل بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين رجل حر يملك مالا ينفق منه كيف يشاء، ويتصرف فيه كيف يريد، هذا المثل يحمل تبعات معرفية مترتب عليها تشكل ثنائي يحيل إلى كمال الله تعالى مقابل النقص المتحقق الذي مثله العبد المملوك العاجز عن التصرف، وهذه الثنائية ألغت التسوية بين الإله القادر وبين الأصنام التي لا تملك شيئا، ولا تقدر على شيء. فبين أن كونه مملوكا عاجزا صفة نقص، وإن القدرة والملك والإحسان صفة كمال.

وقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[751] هذه هي سورة الإخلاص، سورة تعدل ثلث القرآن الكريم، وفيها جميع صفات الكمال لله تعالى، وفي الوقت نفسه فيها نفي لجميع صفات النقائص والعيوب. وهذه السورة الكريمة انحصرت فيها الصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة التي لا نظير لها ولا مثيل. فالله تعالى هو الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرّحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) لكمال غناه (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى، فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

وقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ

[751] - الإخلاص 1 – 4.

الْعَظِيمُ}752هذه أعظم آية في كتاب الله تعالى، إذ اشتملت على جانبين مهمين يتشكل منهما إثبات الكمال لله تبارك وتعالى، وهما النفي والإثبات، نفي النقائص عن الله تعالى، وإثبات الكمال لله عزّ وجلّ، ويتشكل النفي في قوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) فالشفاعة أمر مهم جعله الله تبارك وتعالى خاصا لا يتحقق لأحد وإن كان من الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء أو الصالحين، فالشفاعة لا تكون إلا بإذن من الله تبارك وتعالى، وهنا تتشكل لنا صورة الكمال المتحققة لله تعالى، وفي الوقت نفسه السياق هنا في باب الرد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء بدون إذنه سبحانه وتعالى في ذلك، وزعموا أن هؤلاء الشفعاء يقومون بما يريدون منهم عند الله عزّ وجلّ، إذ يقول تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}753.

5 . الله تعالى متعالٍ عن الظلم:

الظلم من المفردات التي تشكلت مع النسق المعرفي للبشر من أدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة، فهي سمت بشرية متحققة بين البشر، وورد الظلم في النص القرآني في مواضع كثيرة وبمعاني مختلفة، ومن بين هذه المعاني إضافة الظلم إلى الكافرين ونفيه عن الله عز وجل، وكان ذلك في عشرة مواضع شكل منها الخطاب القرآني سمة نفي الظلم عن الله تعالى وإضافته إلى الكافرين، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ

---

[752] - البقرة 255.

[753] - يونس 18.

مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}754 وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}755 وقوله تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}756 هنا السياق القرآني عمد إلى خلق صورة معرفية للظلم المتحقق، وكل الذين ذكرهم الله تعالى تتحقق ظلمهم على أنفسهم، فقد جاءتهم رسل الله بالبينات والدلائل والبراهين، فصدوا عنها، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا وَمَا مَنَعَ النّاس أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرّحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ

---

754 – التوبة 70.

755 – الروم 9.

756 – العنكبوت 40.

دُونِهِ مَوْئِلًا وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}757.

وقد نُفي عن الله تعالى ظلم هؤلاء لأنّ إيلامهم كان جزاء على أعمالهم وكل ما كان من نوع الجزاء يوصف بالعدل وقد نفي الله عن نفسه الوصف بالظلم فوجب الإيمان به سمعا لا عقلا في مقام الجزاء، وأما في مقام التكوين فلا. وظلمهم أنفسهم هو تسببهم في عذاب أنفسهم فجرُّوا إليها العقاب لأن النفس أولى الأشياء برأفة صاحبها بها وتفكيره في أسباب خيرها.

والاستدراك ناشئ عن نفي الظلم عن الله في عقابهم لأنّه يتوهم منه انتفاء موجب العقاب فالاستدراك لرفع هذا التوهم758.

والله سبحانه وتعالى في أكثر من آية نفي الظلم عن نفسه، إذ يقول تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}759 وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}760 وقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}761. وصيغة الخطاب هنا تأخذ أبعادا كثيرة يرتسم في كلها أن الله تعالى يريد الرّحمة والغفران لكل البشرية، لكن تصرف البشرية يسعى نحو الظلم الذي يكون الطريق الموصل نحو الهلاك المتحقق المرسوم قبل تحقق الظلم.

---

757 - الكهف 54 – 59.

758 - التحرير والتنوير، ج 10 ص 499.

759 - أل عمران 182.

760 - الحج 10.

761 - فصلت 46.

6 . الله تعالى متعالٍ عن الكيد بغير حق:

الكيد ورد في القرآن الكريم ضمن سياقات عدة، من ذلك قوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}762 هذه الآيات الكريمة رسمت صورة المشركين المكذبين، فبُين للسامع أنّ عملهم ذلك كيد مقصود، فهم يتظاهرون بأنهم ما يصرفهم عن التصديق بالقرآن إلا ما تحققوه من عدم صدقه، وهم إنما يصرفهم عن الإيمان به الحفاظ على سيادتهم فيضللون عامتهم بتلك التعليلات الملفقة والكيد، إخفاء قَصد الضر وإظهار خلافه، فكيدهم مستعمل في حقيقته، وأما الكيد المسند إلى ضمير الجلالة فهو مستعمل في الإمهال مع إرادة الانتقام عند وجود ما تقتضيه الحكمة من إنزاله بهم وهو استعارة تمثيلية، شبهت هيئة إمهالهم وتركهم مع تقدير إنزال العقاب بهم بهيئة الكائد يخفي إنزال ضره ويظهر أنه لا يريده وحسَّنها محسن المشاكلة763.

7 . الله تعالى متعالٍ عن الانتقام بغير حق:

وردت لفظة الانتقام في النص القرآني في مواضع خاصة، أراد الله تعالى أن يبين أن الانتقام يتحقق وفق معايير خاصة، ضمن تشكل خاص، ضمن سياق خاص، إذ يقول تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}764 هذه الآية الكريمة تشكلت ضمن ثلاثية متتابعة وهي الظلم – المجرمون – المنتقمون، فالسياق التتابعي يدل على تدرج في المخاطبة، فقد بدأ

762 – الطارق 15 – 17.

763 – التحرير والتنوير ج 16 ص 210.

764 – السجدة 22.

بقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ) فالمخاطبون أصبحوا من أهل الظلم لأنهم ذُكِّروا بآيات الله تعالى ولم يؤمنوا بها، ثم دخل المخاطب في مرحلة جديدة وهي الإعراض عن آيات الله تعالى، ممّا تبع هذا الإعراض اكتسابه صفة جديدة تجاوزت صفة الظالم ألا وهي صفة المجرم، وهي صفة تفوق الظلم ممّا يتحقق له الحصول على درجة جديدة في الابتعاد عن الله تعالى، وبعد كل ذلك لابدّ من نهاية تتحدد لهم، وهذه النهاية تكون من جنس عملهم لتحقق العدالة الإلهية وفق معايير خاصة أرادها الله تبارك وتعالى، فكان الانتقام منهم جزاء ما عملوه رغم التذكير المستمر لهم.

وفي سياق الانتقام ورد قوله تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}765 وقوله تعالى:{إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}766

والمنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يمعن في المعصية فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة والمحمود من انتقام العبد أن ينتقم من أعداء الله تعالى وأعدى الأعداء767.

[765] - الزخرف 39 – 43.

[766] - الدخان 15 – 16.

[767] - المقصد الأسنى، ج 1، ص 139.

8 . الله تعالى متعالٍ عن المكر بغير حق:

المكر: تبييت فعل السوء بالغير وإضمارُهُ. وقد ورد في النص القرآني ضمن سياقات عدة منها قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}768 هذه الآية الكريمة ترسم لنا صورة المكر المتحققة من الكفار لرسول الله، وسنوردها كما ذكرها الزمخشري لنرى أبعاد المكر المتحقق من الكافرين، فضلا عن ذلك لنرى مكر الله تعالى المتحقق الذي يكون فيه العدل والحقّ." لما فتح الله على رسوله عليه الصّلاة والسّلام، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله عزّ وجلّ في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وما أتاح الله له من حسن العاقبة، والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك وذلك أن قريشا – لما أسلمت الأنصار وبايعوه – فرِقوا أن يتفاقم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا شيخ من نجد، ما أنا من تهامة دخلت مكة فسمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا غير كوّة تلقون إليه طعامه وشرابه منها؛ وتتربصوا به ريب المنون. فقال إبليس: بئس الرأي؛ يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم؛ فلا يضركم ما صنع واسترحتم. فقال إبليس: بئس الرأي يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا صارما، فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناهم واسترحنا. فقال الشيخ – لعنه الله –: صدق هذا الفتى، هو أجودكم

768 – الأنفال 30.

رأيا. فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله وأمره ألّا يبيت في مضجعه، وأذن الله له في الهجرة، فأمر عليا رضي الله عنه فنام في مضجعه، وقال له: اتّشح ببردتي، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه، وباتوا مترصدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه، فأبصروا عليا فبهتوا وخيب الله عزّ وجلّ سعيهم، واقتصوا أثره فأبطل الله مكرهم (ليثبتوك) ليسجنوك أو يوثقوك أو يثخنوك بالضرب والجرح، من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح، وفلان مثبت وجعا. وقرئ: (ليثبتوك)، بالتشديد. وقرأ النخعي: (ليثبتوك)، ومن البيات. وعن ابن عباس: (ليقيدوك)، وهو دليل لمن فسره بالإيثاق (وَيَمْكُرُونَ) ويخفون المكايد له (وَيَمْكُرُ الله) ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة (والله خَيْرُ الماكرين) أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرا، أو لأنّه لا ينزل إلا ما هو حقّ وعدل ولا يصيب إلا بما هو مستوجب"769. وهنا تتضح صورة المكر التي اكتسبت درجة عالية جعلتها تذكر دائما، وتدخل سياق المكر من أوسع الأبواب، لكن في الوقت نفسه تحقق مكر الله الذي فيه الخير العظيم بحفظ رسوله عليه الصّلاة والسّلام وفي سياق المكر أيضا ورد قوله تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}770.

9. الله تعالى متعالٍ ببسطه للرزق:

الرزق مفردة يشترك فيها خلق الله تعالى جميعا، إذ يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ

769 - الزمخشري، ج 2، ص 357.

770 - إبراهيم 46 – 47.

مَحْظُورًا} 771هذه الآية الكريمة ترسم لنا صورة الرّحمة المتحققة للخلق فمن أثر رحمة الله تعالى حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة، يقول تعالى: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} 772 هذه الآية طرحت دعاء المؤمنين ضمن نسق معرفي تابع إلى معرفتهم برحمة الله تعالى المتحققة لهم في الدنيا والآخرة، فكان الدعاء وفق الآتي (واكتب لنا) حياة طيبة في هذه الدنيا، من عافية وبسطة في الرزق، وتوفيق لطاعة، ومثوبة حسنة في الآخرة بدخول الجنّة، ونيل رضاك، إنّنا تبنا إليك (هدنا إليك) ممّا فرط من سفهائنا من عبادة العجل، ومن تقصير العقلاء منا في نهيهم والإنكار عليهم.

ورد الله تعالى على دعاء موسى قائلا: لقد أوجبت أن يكون عذابي خاصا أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة، الذين لم يتوبوا، أما رحمتي فقد وسعت كل شيء، وسأثبت رحمتي بمشيئتي للذين يتقون الكفر والمعاصي، ويؤدون الزكاة المفروضة، ويؤتون الصدقات التي تتزكى بها نفوسهم، وللذين يؤمنون ويصدقون بجميع آياتي الدالة على الوحدانية، ويصدقون رسلي، وما جاؤوهم به773.

وعليه فانّ علو ادريس عليه السّلام في السّماء الرابعة على أوجه فمنه قول الحافظ ابن حجر: "النبي إدريس رفع وهو حي؛ فالظّاهر أنّ

---

[771] - الإسراء 20.

[772] - الأعراف 156.

[773] - أسعد حومد، ج 1، ص 1111.

الرّفع رفع مكانة، والتنصيص على رفع مكانته لا يمنع رفع مكانة غيره من الأنبياء مثله"774.

ومع أنّ الله تعالى قال: {لَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}775، ولكن الأنبياء هم على الخصوص؛ فقد رفع الله المسيح عيسى إليه، ورفع النبي محمّد إسراء إلى السماوات، فلا استغراب أن يكون النبي إدريس في السّماء الرّابعة أو أيّة سماء من السّماوات العلاء. أي: أنّ الله بقادرٍ على رفعه وإدخاله وإخراجه كيفما يشاء.

ولأنّ الُمدخل هو الله؛ فهو الذي يتوجّه إليه بالسؤال وعليه الإجابة، ولذلك سأل سيدنا محمّدا عليه الصّلاة والسّلام ربُّه ليدخله مُدخل صدقا لِما يشاء دخوله أو الدخول إليه حتى لا يظلم أحدا أو يظلمه أحدا، وكما سأل ربُّه الدّخول سأله الخروج مخرج صدقٍ، قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا}776.

وعليه نقول:

المدخل يدخل من يشاء ويخرج من يشاء على الظرفية المتعددة ومنها:

1 . مُدخل إلى المكان.

---

774 فتح المنعم شرح صحيح مسلم، 1، ص 561.

775 طه 53 . 55.

776 الإسراء 80.

2 . مدخل للزمان.

3 . مُدخل للموضوع علما وحكمة وحُجّة وفكرة وغاية.

4 . مُدخل في القول والفعل والعمل والسّلوك.

5 . مدخل في السّماء ومخرج منها، ولهذا فالأنبياء ومنهم إدريس عليهم الصّلاة والسّلام هم أصحاب المعجزات؛ فلا استغراب.

ومع أنّ الله هو المدخِل لكل شيء إلا أنّه لن يُدخل أحدا في غير مكانه ألذي ينبغي أن يكون فيه، فالجنّة أبوابها مفتوحة للمؤمنين الذين يسلموا وجوههم لله ربُّ العالمين، ولكن الذي يُفسِد في الأرض ويسفك الدّماء فيها بغير حقّ فلا يدخل الجنّة بالرّغم من أن أبوابها مفتوحة وذلك لأنّه لا دخول إليها إلا بالمدخل العظيم وهو المحاسب على الأعمال والمجازي على الأعمال، فمن كسبت يداه يدخله الجنّة، ومن أفسدت يداه يُدخله النّار، قال تعالى: {وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحقّ وَنَطْمع أنّ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ}777.

إذن فمن يجتنب الكبائر وارتكاب الأفعال والأعمال الآثام يُكفِّر المدخِل عنهم سيئاتهم ويُدخلهم مُدخلا كريما مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا}778. فما بالك بإدريس نبي الله الذي رفعه مكانا عليا؟

---

777 المائدة 84.

778 النساء 31.

ولأنّ المدخل هو الرّحمن الرّحيم فرحمته واسعة وأبوابها مفتوحة لمن يعمل صالحا أو يستغفر ربّه أو يجاهد في سبيله أو يهاجر في سبيل إعلاء كلمته وإحقاقها بين النّاس رحمة وعدلا، وهؤلاء يُدخلهم الله الجنّة خالدين فيها أبدا، قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ}779. هذه تتعلّق بالعموم، فما بالك إذن بأهل الخصوص، بهجرة الأنبياء الذين منهم إدريس عليهم جميعا الصّلاة والسّلام؟

ومن هنا؛ فالمدخل يُدخل على أوجه منها:

1 ـ إظهار المعجز على أيدي الأنبياء الكرام.

2 ـ المصلحون الذين ماتوا وهم مصلحون وفاعلون للخيرات الحسان يُدخلهم الجنّة.

3 ـ المفسدون الذين أفسدوا ثم استغفروا وتابوا فسيجدون الله غفورا رحيما وهؤلاء فقد يكون منهم من يُدخل الجنّة مع الداخلين وهناك منهم من يعاقب على ما أفسد ثم بعد ذلك يُخل الجنّة.

4 ـ المفسدون الذين لم يستغفروا ولم يتوبوا إلى الله المدخل تعالى فلا مكان لهم إلا نار جهنّم خالدين فيها، وهؤلاء هم الذين أخزاهم الله مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ

[779] الحج 58، 59.

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}780.

وعليه فالأنبياء والمتّقون هم أصحاب الجنّة يدخلونها آمنين وهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ}781.

ولأنّه المدخِلُ فلا تبديل لكلماته يُدخل من يشاء لما يشاء ولا يظلم أحدا قال تعالى: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وَأُزْلِفَتِ الجنّة لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرّحمن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}782.

وعلى الخليفة أنّ يعمل صالحا ليكون من الداخلين للجنة بقوّة المدخِلُ العظيم وبعزّة المدخل العظيم وبإرادة المدخِلُ العظيم وألّا يجعل يداه مقدّمتان لِما يظل الآخرين أو يغويهم في غير طاعة الله، وأن يعلم أنّ الحقّ قولا وعملا وفعلا وسلوكا هو المنقذ من الكرب العظيم، وإنَّ الامتناع عن المحرَّم والمنهي عنه هو خير به ينال رضاء المدخِل للجنة والمغفر للذنوب والسيئات وآثام.

ولذا فالخليفة هو من يطيع الله ورسوله ليدخله الجنّة ومن يعصي الله ورسوله لن يكون من المستخلفين فيها ويدخله نارا، مصداقا لقوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي

---

780 آل عمران 192 . 194.

781 الحجر 45، 46.

782 ق 29 . 35.

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}783، ولذا فمن يعمل صالحا يحصد ثماره خير وافرا ومن يفسد يجني ما زرع من مفاسد في الأرض قال تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}784.

ولأنّ الله أدخل نبيه إدريس في رحمته نبيا، وجعله في علوٍّ مع العليين، فهو مخرجه من كلّ سوء، وهو مدخله للسماء ومخرجه منها سبحانه إنّه على كلّ شيء قدير. بيده الأمر (كنّ) فيخرج ما يشاء ممّا يشاء سبحانه مخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}785.

ولهذا فإذا سأل سائل:

من هو المخرج للحي من الميت والمخرج للميت من الحي؟

نقول:

إنّه الذي يرزق خلقه في السماوات والأرض والذي يملك السمع والأبصار مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}786.

---

783 النساء 13، 14.

784 الطلاق 11.

785 الأنعام 95.

786 يونس 31.

قال تعالى: {ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}787.

ولأنّه المخرج فهو الذي أخرج لنا الماء من بطن الأرض ينابيع تروي الظامئين قال تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}788.

ولذا فعلى الخليفة في الأرض أن يَسجُد لله المخرج للماء من بطن الأرض والمخرج له من قلب السماء مطرا وهو الذي يعلم ما في الصدور فيخرجه بيّنة ويكون أصحابها يوم القيامة عليها من الشاهدين قال تعالى: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}789.

ومن ثمّ؛ فلا استغراب أن يخرج المخرج الماء ينبوعا بما أنّه هو المخرِجُ للحي من الميت والمخرج الميت من الحي، قال تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}790. وعليه؛ فلا داعي للاستغراب أن يكون إدريس قد صعد إلى السماء (أدخله الله إليها، وهو المخرج القادر على إخراجه كما أخرج نبينا محمّد عليه الصّلاة والسّلام بعد أن أدخله إليها

787 النحل 69.

788 الأعراف 160.

789 النمل 25.

790 الروم 19.

سراجا ميرا {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[791].

وكذلك لا استغراب أن يخرج المخرجُ الودق من السحاب ويُمطره حيث يشاء ليخرج من الأرض نباتا ويُخرج من النبات سنابل وثمار فتبارك الله أحسن الخالقين المخرج الحب من النوى والماء من المطر، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[792]، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[793].

ولأنّ المخرج هو القادر على تحقيق فعل الإخراج بالقوّة والحكمة إذا لا تخفي على المخرج خافية سواء أكانت في السماوات والأرض أم أنّها كانت في الأنفس وما تكنّه الصدور مصداقا لقوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}[794]، وقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[795].

---

[791] الإسراء 1.

[792] الروم 48.

[793] الزمر 25.

[794] محمّد 29.

[795] إبراهيم 38.

أي بما أنّه يعلم ما تخفيه الأنفس وما تعلنه إذا العالم بالأسرار هو وحده القادر على إخراجها إن شاء كيفما يشاء ومتى ما يشاء وليس بذلك على الله بعسير، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}796.

ولأنّه المخرج عزّ وجلّ إذا هو:

1 ـ قد أدخل من أدخل فيما يشاء وإلى ما يشاء، وكيفما يشاء، إنّه المدخل المخرج.

2 ـ قد أخرج ما أخرج ومن أخرج.

3 ـ وإنّه في الزمن الآن يُخرج.

3 ـ وإنّه بعد كل الآن يخرج.

4 ـ وإنّه في الحياة يُخرج.

5 ـ وإنّه بعد الموت يُخرج.

6 ـ وإنّه بعد الخروج من الموت يُخرج الحقّيقة أمام من أنكرها أو ظنّ أنّه لن يعلمها المخرِج ولن يواجه بها حُجّة دامغة لكل باطل.

ولأنّه المخرج فقد أخرجنا من أصلاب آبائنا وأرحام أمهاتنا ونحن لا نعلم عن أمرنا شيئا، قال تعالى: {خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}797.

---

796 الحديد 4.

797 الطارق، 6، 7.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يُخرِجَ ما أُمر بإخراجه حقا معلوما حتى لا يكون في أسرته وأهله وأقاربه وبني وطنه وأمته سائلا ولا محروما ولا مظلوما، وألّا يجعل في نفسه غلا للذين آمنوا وليتقي الله ربَّه في نفسه حتى لا يظلم أحدا وألّا يَقدِم على عمل أو فعل يؤدّي إلى إخراج البعض من الدين وأن يُخرِجَ ما يعلمه من علم ولا يخفيه عن الذين هم في حاجة إليه، وأن يخرج ما لديه من مودة ليستوعب بها أفراد أسرته ومن لهم حق عليه.

وأن يحبب النّاس في الدين ولا يسب أحدا باسم الدين حتى لا يسبوا الله قال تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[798].

ولكي يخرج الخليفة من ارتكاب المظالم أو الأخطاء والزلات فعليه أن يتبيَّنَ قبل أن يحكم فإن لم يتبَّن قبل أن يحكم قد يندم.

وعليه بالإصلاح بين النّاس ولا يقول إلا الحقّ ولا يتبع الأهواء ولا يطمع حتى لا يخرج عن الصواب، وليعلم أن المؤمنين أخوة فلا يفرِّق ولا ينحاز لأحد على حساب آخر.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى

[798] الأنعام 108.

فقَاتِلُوا الَّتِي تبْغِي حَتَّى تفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[799].

إدريس عامل مُصلح:

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِكَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ أَشْيَاءٍ أَجِدُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ. فَسَأَلَهُ عَنْ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَفْعِ مَكَانِهِ، فَقَالَ: إِنَّ إِدْرِيسَ كَانَ رَجُلًا خَيَّاطًا وَكَانَ يَتَكَسَّبُ، فَيُجْزِئُ كَسْبُهُ فَيَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَكَان لا يَنَامُ اللَّيْلَ، وَلَا يُفْطِرُ النَّهَارَ، وَلَا يَفْتُرُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ"[800] أي أنّه كان يأكل من عمل يديه كما كان داوود عليهما السّلام؛ فإدريس كان يعمل ممّا يعمل:

1 . خياط.

2 . متصدّق.

3 . مسبح.

4 . يصوم.

حديث الأنبياء في السّماء:

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ قَالَ أَنَسٌ كَانَ أَبُو ذَرٍّ – رضى الله عنه – يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ "فُرِجَ سَقْفُ بيتي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ،

---

[799] الحجرات 6 . 11.

[800] مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، ص 60.

فَفَرَجَ صدري، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانا فَأَفْرَغَهَا فِي صدري، ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ أَخَذَ بيدي، فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ افْتَحْ. قَالَ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا جِبْرِيلُ. قَالَ مَعَكَ أَحَدٌ قَالَ معي محمّد. قَالَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ، فَافْتَحْ. فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ إِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى فَقَالَ مَرْحَبا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ قَالَ هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الجنّة، وَالأَسْوِدَةُ التي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النّار، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، ثُمَّ عَرَجَ بِي جِبْرِيلُ، حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا افْتَحْ. فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُ، فَفَتَحَ». قَالَ أَنَسٌ فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السماوات إِدْرِيسَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يُثْبِتْ لِي كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّادِسَةِ. وَقَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِإِدْرِيسَ. قَالَ مَرْحَبا بالنبي الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ. فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا إِدْرِيسُ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى فَقَالَ مَرْحَبا بالنبي الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا مُوسَى. ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى، فَقَالَ مَرْحَبا بالنبي الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ عِيسَى. ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ مَرْحَبا بالنبي الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ وأخبرني ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الأنصاري كَانَا يَقُولاَنِ قَالَ النبي «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ صَرِيفَ الأَقْلاَمِ». قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ – رضى الله عنهما – قَالَ النبي «فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمُرَّ بِمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى مَا الَّذِى فُرِضَ عَلَى أُمَّتِكَ قُلْتُ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلاَةً. قَالَ فَرَاجِعْ

رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ. فَرَجَعْتُ فَرَاجَعْتُ رَبِّي فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ رَاجِعْ رَبَّكَ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ رَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ فَرَاجَعْتُ رَبِّي فَقَالَ هي خَمْسٌ، وَهْيَ خَمْسُونَ، لاَ يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ. فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ رَاجِعْ رَبَّكَ. فَقُلْتُ قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، ثُمَّ انْطَلَقَ، حَتَّى أَتَى السِّدْرَةَ الْمُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا أَلْوَأْلا أَدْرِى مَا هي، ثُمَّ أُدْخِلْتُ ؟ الجنّة ؟ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ"801.

معجزة إدريس:

الحِكم وعلم الملكوت، "وَأَنْزَلَ عَلَى إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سِتَّ عَشْرَةَ صَحِيفَةً كُلُّهَا حِكَمُ وَعِلْمُ الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى"802

من صفات إدريس:

1 . صدّيق، وقد وصفه به الله تعالى، {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}803.

2 . نبي، وقد ذكره الله بذلك أيضا، {إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}804.

3 . مرفوع المكانة، {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}805.

4 . منعم عليه، {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ}806.

---

801 الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، 14، ص 2.

802 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 9، ص 87.

803 مريم 56.

804 مريم 56.

805 مريم 57.

5 . صابر، {{وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ} 807.

6 . صالح، {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ} 808

7 . شكور، لما بشر إدريس عليه السّلام بالمغفرة سأل الحياة، فقيل له: لِمَ؟ "فقال: لأشكره، فإنّي كنت أعمل قبله للمغفرة، فبسط الملك جناحه وحمله إلى السّماء. وقيل: مرّ بعض الأنبياء عليه السّلام بحجر صغير يخرج منه الماء الكثير، فتعجب منه، فأنطقه الله له، فسأله عن ذلك، فقال: منذ سمعت الله عزّ وجلّ يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النّاس وَالْحِجَارَةُ} 809؛ فأنا أبكي من خوفه، فدعا ذلك النبي عليه السّلام أن يجير ذلك الحجر من النّار، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه، إنّي قد أجرته من النّار، فمرّ ذلك النبي، فلما عاد وجد الماء يتفجّر منه أوفر ممّا كان قبل ذلك، فعجب، فأنطق الله تعالى الحجر له، فقال له: لِمَ تبكي وقد غفر الله لك؟ فقال: ذلك كان بكاء الحزن والخوف، وهذا بكاء الشّكر والسرو" 810.

---

806 مريم 58.

807 الأنبياء 85.

808 الأنبياء 86.

809 التحريم 6.

810 الغنية لطالبي طريق الحقّ، 2، ص 325.

8 . عامل، كان إدريس عليه السّلام "أول من خاط الثياب ولبسها، وكانوا قبله يلبسون الجلود"811

وفاة إدريس:

قال: "أَتَاهُ إِسْرَافِيلُ فَبَشَّرَهُ. وَقَالَ هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: وَدِدْتُ أَنْ أَعْلَمَ مَتَى أَجْلِي؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُ ذَلِكَ فَصَعِدَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَأَلَهُ مَتَى أَجَلُهُ؟ فَنَظَرَ مَلَكُ الْمَوْتِ فِي الْكِتَابِ فَوَجَدَهُ أجله قد أتى. وَقَالَ: أُمِرْتُ أَنْ أَقْبِضَ رُوحَهُ هَهُنَا فَقَبَضَ رُوحَهُ فِي السَّمَاءِ، فَذَلِكَ رَفْعُ مَكَانِهِ"812.

ومع أنّني أعرف أنّ السّماوات والأرض كانتا رقتا، ثمّ فتقت وأصبحت سماوات عليا وأرض وسماء دنيا، ولكن ما يبدو لي أنّ عقلي لن يسلّم بوجود مقابر أو حتى قبرٍ في السماوات العلاء، ذلك لأنّ السماوات العلاء أماكن جنّة، ولهذا فلا مكان للمقابر إلّا الأرض الدّنيا، ذلك لأنّها دنيا، ولهذا أقول: إنّ في حياة إدريس عليه السّلام لا استغراب أن يرفعه الله إلى السماوات ويدخله بابا كما أدخل سيدنا محمّد أبواب السماوات في إساءه، وكما رفع عيسى إليه.

أمّا الرفعة في الدنيا، فلا أعظم من رفعة النبوّة عليهم الصّلاة والسّلام.

انفتاق الأرض وهبوط آدم:

بعد أن حدث الانفتاق العظيم هبطت الأرض الدّنيا بالقوّة الفراغيّة حتى استقرّت اعتدالا جاذبيا في فلكها المتوازن، وصعدت السّماء بذات القوّة المنفجرة تتمدّد إلى النّهاية؛ فشكّلتا كونا دنيويا تملأه

811 التوضيح لشرح الجامع الصحيح، 14، ص 199.

812 مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، ص 60.

الحيويّة والحياة، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}813.

ولأنّ أمر فتق السّماوات والأرضين بيد الخالق؛ وأنّ فتقهما جاء قبل هبوط الأرض إلى الدّنيا، إذا؛ فلا أحد يعلم الكيفية التي بها فتقت السّماوات والأرض، ولا الزّمن الذي فيه فتقت، ولا الصّفة التي جاء عليها الانفتاق العظيم، فلا أحد يعلم بذلك إلّا الذي أمر بفتقها سماوات وأرضين، ولا أحد يعرف إلّا الأزواج التي هبطت عليها.

ولأنَّ الزّوجين (آدم وزوجه) المستخلفين في الأرض لم يتركا لنا شيئا من هذا؛ إذا؛ فلا حُجّة بين أيدينا، وكذلك لم نعثر حتى الآن على هيكليهما العظمي لنقول هذا أثر الأنسان الأوّل، الذي قالوا عنه قد تطوّر بعد أن كان شبيه قردٍ. ولكن الإجابة العلمية وفقا للمعلومة المتوفّرة بين أيدينا حُجّة هي: (أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا).

ولذا؛ فُتقت السّماوات والأرضين؛ فكانت أكوانا، وفي كوننا علماء الفلك والفيزياء يبحثون ويتقصّون، ومع ذلك لم يعلموا إلّا قليلا، ومن ثمّ؛ فكيف لنا بمعرفة أسرار الأكوان الأخرى، ونحن لم نعلم من أسرار كوننا إلّا قليلا؟ {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}814.

ولأنّها أكوان مستقلّة بذواتها؛ فهي أكوان مخلوقة على الخصوصيّة والنّوعيّة التي تُميّز كلّ كونٍ عن غيره، وهذه من أسرار الخالق الذي يعلم ما لا نعلم، {وَنُنْشِئَكُمْ فيما لَا تَعْلَمُونَ}815.

813 الأنبياء 30.

814 الإسراء 85.

815 الواقعة 61.

ومع أنّ السّماوات والأرضين كانت ملتحمة كونا لا فواصل بينها، لكنّ الأرض كانت صالحة لحياة الخلق الأوّل قبل أن تنفتق أرضا دنيا، وهناك كان نشوء أبينا آدم مثل نشوء النّبات، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}816، وهناك أيضا تمّ اصطفائه نبيا للخلق الأوّل (الملائكة والجنّ والإنس)، وهناك كانت جنّة الحياة الأوّلى، حيث تمام النّعمة ورغد العيش، وفي المقابل كانت هناك المعصية، {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}817. أي: أنَّ معصية آدم وزوجه لم تكن على الأرض الدّنيا، بل كانت على ذلك الكون المرتق في وحدة وجود عظيم، أي: في جنّة عرضها كعرض السّماوات والأرض، {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}818.

ومن هذه الآية يمكن استقراء نهاية الأكوان التي فُتقت بعد رتق أن تعود ثانية إلى ما كانت عليه مُرتقة، وهناك ستكون الجنّة التي يأملها المؤمنون، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}819.

إذا؛ فالخالق وعد بعودة الخلق إلى ما كان عليه خلقا أوّلا، وبالتّالي ستطوى الحيّزات الفراغية العظيمة التي فصلت الأكوان، وجعلت منها طرائق سماوية وأرضية؛ وسَتُرتق من جديد وجودا عظيما (جنّة ونارا) ولكلّ ثمار عمله، {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}820.

---

816 نوح 17.

817 طه 121.

818 الحديد 21.

819 الأنبياء 104.

820 الأنبياء 104.

ومع أنّ الإنسان الأوّل خُلق في أحسن التقويم، وكان في جنّة غير منقوصة، لكنّه لم يصمد أمام الوسوسة والإغواء؛ فأكل من تلك الشّجرة المنهي عنها؛ فأهبط به وزوجه والجنّ على ظهر الأرض من الحياة العليا إلى الحياة الدّنيا، {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}821. فقوله: (اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) المقصود هما: الإنس والجن، اللذين أصبح بينهما العداء جزء من الحياة الدّنيا.

ولأنّ الإنس الأوّل (آدم وزوجه) يشكّل طرفا رئيسا في مخالفة أمر الله، وأنّ الجنّ طرف رئيس أيضا في المخالفة، فكان حكم الهبوط عليهم بلا استثناء، {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}822؛ فهنا جاء القول موجّه للخطّائين، الذين تمّ تبليغهم بأنَّ الأرض هي نصيبهم في الحياة الدّنيا، وكأنّ المقصود: خذوا الأرض؛ فهي قد مُنحت لحياتكم، لكم فيها مستقر ومتاع إلى حين، وستظلون عليها ما حييتم، وستموتون عليها وستحييون منها.

إنّ القول جاء أمرا حاسما بأنّ وجود الخطّائين في الكون المرتق (الملتحم) أصبح غير ممكن، والإبعاد عن الجنّة لا مفرّ منه؛ فالجنّة التي لم يقدّر العيش فيها، من قِبل من خُلق خلقا كما هي خُلقت؛ فلابدّ من خروجه منها؛ فكان الخروج هبوطا للأرض ومن عليها، وكان الدّرس، ولعلّه يكون الموعظة.

---

821 طه 123.

822 الأعراف 24، 25.

ولذلك، فُتقت السّماوات والأرضين، وأهبطت الأرض الدّنيا بالحياة الدّنيا، وعلى ظهرها الأزواج التي أنبتت منها وخُلقت عليها، وعلى رأسها الإنس والجنّ، ممّا جعل الوسوسة والإغواء بين بني آدم نار فتنة حتى اقتتلا.

والتساؤل: كيف يفكّ اللبس بين مفهوم خلق آدم في الجنّة وخطيئته هناك، وبين خلقه من تراب الأرض؟

الأرض التي نشأ آدم وزوجه منها كانت في زمن الرّتق مع السّماوات قطعة من الجنّة، ولذلك؛ فطينة خلق آدم وزوجه هي من طين الجنّة قبل أن تنفصل الأرض عنها، وتصبح دُنيا (سفلى)، ولكن بعد أن أهبط بهما وبمن معهما من أزواج، لم تبق الأرض قطعة جنّة، ولذا؛ فآدم وزوجه لم يخلقا من الأرض بعد انفتاقها من ذلك الوجود الأوّل (سماوات وأرضين)، بل خُلق من الأرض قبل الانفتاق العظيم، {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنّة فَتَشْقَى}[823]. ولا شكّ أنّ البقاء في الجنّة بقاء في النّعيم، أمّا البقاء في الأرض بعد انفتاقها من السّماوات أصبحت دنيا، ولم تعدّ عليا كما كانت جنّة.

إنَّ الأرض بعد هبوطها والأزواج التي على ظهرها سُلبت من نعيم الجنّة، ولم يترك لها إلّا شيء من الماء الكفيل بحياة الأزواج المتكاثرة في الحياة الدّنيا، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[824]. أي: أنّ السّماوات والأرض عندما كانت مُرتقة في وحدة الوجود العظيم كانت قطعة جنّة، ولكن بعد أن

[823] طه 117.

[824] الأنبياء 30.

فُتقت؛ فلم يفتق معها من نعيم الجنّة إلّا الماء، الذي يحفظ الأحياء على الحياة الدّنيا، (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ).

ولأنّ نشوء الإنس نشوء غير كامل؛ فكانت الخطيئة من الإنسان الأوّل (أصل السّلالة البشريّة)، ولذلك، لو أخذ آدم بأمر النّهي، وبقي ممتنعا عن الأكل من تلك الشّجرة، لكانت حياته مثل خلقه في النّعيم، {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}825، ولكن التساؤل:

متى بدأت الحياة على الأرض؟

الفيزيائيون يقولون: لقد بدأت الحياة على الأرض بعد أن بردت من حرارة ذلك الانفجار العظيم؛ فتكوّنت بحارها وجبالها وسهولها وغلافها الجوي، حتى أصبحت جاهزة لاستقبال الحياة، وقد نادى بعض العلماء الفيزيائيين وعلى رأسهم العالم الألماني ريختر Richter 1870، والعالم هلمهولتز Helmholtz 1894: إنّ الحياة انتقلت إلى الأرض من كوكب آخر عن طريق بذور نبات، أو حويصلات جراثيم الميكروبات، أو الأطوار ذات البيات، أو السّكون في كائنات أخرى، أو أنّ أحد النيازك قد حمل كائنات حيَّة لكوكب الأرض، وهناك من يرى أنّ الأرض مرّت بزمن ارتفاع درجات الحرارة، ثمّ حلول العصر الجليدي، ثمّ أخيرا ظهر الإنسان بعد أن تمت تهيئة ظروف حياته826.

---

[825] طه 121.

[826] Cosmology: The Science of the Universe. Second edition. Edward Harrison. Cambridge University Press, 2000

وهنا، تكمن حقيقة، مفادها: أنّ دلائل تشير إلى وجود علاقة بين الأرض وكواكب أخرى، وهذا يؤكّد أنّ الأرض كانت غير مستقلة عن غيرها من خلائق الكون (السّماوات والأرض)، أي: أنَّ الكائنات والنباتات والنيازك السّماوية التي يعتقد إنّها قد هبطت على الأرض تعدّ مؤشرا ودليلا على أنّ الأرض والسّماوات كانتا رتقا.

ولذلك؛ فالأرض لو كانت نتاج الانفجار العظيم ذا الحرارة العالية كما قال عنها علماء الفيزياء والتي لا توصف بأيّة حرارة نعرفها، لكانت الأرض رمادا غير صالح للحياة (النّار لا تترك إلّا الرّماد)، ولكن لأنّها كانت مرتقة في السّماوات، ثمّ فتقت؛ فأهبط بها وبمن على ظهرها إلى الحياة الدّنيا؛ فأصبحت الحياة على الحاجة بعد أن كانت على النّعيم إشباعا.

ومع أنّ علماء الفلك والفيزياء يتحدّثون عن الأرض كونها نتاج انفجار تلك الذّرة، وليست نتاج الانفتاق العظيم الذي سبق علمه ما اكتشفه علماء الفلك والفيزياء، ولكن لو كانت الأرض على تلك الحرارة الموصوفة شدّة، لكانت عدما (حيث لا حياة) وهذه لا تكون صفة الأرض التي خلقت منها الأزواج، {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}827.

ومع أنّ الإنسان الأوّل خُلق من الأرض؛ لكنّه لم يُخلق من أرضٍ رمادٍ (عدم)، ولا من الأرض الدّنيا، بل خُلق من الأرض العليا التي ترابها وطينها وصلصالها جنّة. ولذلك؛ فحياة الإنسان الأوّل كانت حياة عليا، أمّا الحياة على الأرض الدّنيا فهي الحياة السفلى.

---

827 يس 36.

أي: بمقارنة ذلك النّعيم مع ما يتوفّر على سطح الأرض الدّنيا؛ فلا مقارنة، وهنا، تكمن سُفلية الحياة الدّنيا، وفي المقابل ترتقي حياة النّعيم وتعلو.

ولذلك، في الأرض العليا (المرتقة مع السّماوات) كان نشوء الحياة فيها من كلّ زوجين اثنين، وقبل الزّوجين كان الملائكة والجنّ من خلائق الجنّة، ولكن نتيجة الإغواء الذي شبّ بين الإنس والجنّ أهبط بهما والأرض حيث أصبحت أرضا دُنيا بعد أن كانت أرضا عليا، وظلّت الملائكة في السّماوات العليا غير مخالفة لأمر الخالق، وهي لا تتنزّل للأرض إلّا لأمرٍ. {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}828، أي: كلما لزم أمر تنزّلها تُنزل، {يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}829.

فالأرض بعد أن أصبحت دُنيا قلّ شأنها عمّا كانت عليه، وذلك بفقدانها صفات الجنّة التي لم يعدّ منها شيئا، إلّا شيء من الماء، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}830؛ فالأرض خُلقت وهيأت للحياة العليا، ثمّ فُتقت بما هُيأت به للحياة الدّنيا، فكان الانفتاق العظيم انفتاق أكوان (سماوات وأرضين) وهو النّشوء العظيم، الذي به تمدّد الكون متسارعا في اتساعه، وإنّه لمن الصّعب معرفة أسراره إلّا مؤشرات.

وعليه:

---

[828] القدر 4.

[829] آل عمران 124.

[830] الأنبياء 30.

فإنّ أساس الخلق هو: كون مُرتق، ثم كون مُفتق، وفي كلا الحالتين الخالق واحد؛ فنحن بنو آدم لا نعلم إلّا ما أعلمنا به الخالق وحيا موحى، ومع ذلك لم يُظهرنا على ما أعلمنا به إلّا بمقدار، ومن ثمّ، فكلّما اكتشفنا شيئا تمكنّا من معرفة حقيقة ذلك الشيء، وفي المقابل لم ننتج حقيقة؛ فالحقّيقة: (وراء كلّ مخلوق خالق)، ولذلك فمنتج الحقّيقة هو خالقها، أمّا مكتشفها فهو المتعرّف عليها، وبين هذا وذاك قد يظهر مدّعيها وهو من لم يكن منتجا لها ولا متعرّفا عليها. والحمد لله ربّ العالمين.